

إصدارات مركز  
غراس للإنتاج الفكري

غراس  
للإنتاج الفكري

# هَوَاجِسُ عَلامَةِ اسْتِفْهَام

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب



محل خير موسى

مكتبة الأسرة العربية  
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مؤسسة مركز  
بناء الشباب



هُوَ اجِسُّ عِلْمَةٍ اسْتَفْهَام

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب



**HEWACESU**

ALÂMATİ İSTİFHÂM

**MOHAMMAD KHEİR MUSA**

1. Baskı: İstanbul

2026 - 1447



# هَوَاجِسُ عَلَامَةِ اسْتِفْهَامٍ

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

محمد خير موسى

مكتبة الأسرة العربية  
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

غراس  
للإنتاج الفكري

## هواجس علامة استفهام

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

محمد خير موسى

القياس: 21.5 X 14.5 سم

عدد الصفحات: 256 ص

ISBN: 978-625-5521-71-2

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

جميع الحقوق محفوظة



GHIRASCENTER



غراس  
للإنتاج الفكري

info@ghirascenter.org

+90 531 437 25 99

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة - نشر - توزيع



www.ArabFamilyBS.com

info@ArabFamilyBS.com

سوريا - دمشق +963 933 564 566

تركيا - اسطنبول +90 552 888 59 99

UFUK neşriyat.®

BASIN - YAYIN - DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basimevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي جعلَ السؤالَ مبدأً الوعي، وأنفاسَ الفكرِ الأولى، ووهبَ الإنسانَ قلَقًا يُوقظه من سُباتِ العادة، ودهشةً تُشَرِّع له أبوابَ المعنى، ونورًا يُبدِّدُ غشاوةَ الجهلِ كلما طرقَ بابَ الحقيقةِ متسائلًا.

الحمدُ لله الذي بثَّ فينا شوقَ المعرفة، وغرس في فطرتنا نزوعًا إلى الاكتشاف، فكان السؤالُ فينا نفخةَ روحٍ، وصوتَ العقلِ حينَ يتهيَّبُ الصمت، وخفقةَ القلبِ في ممّراتِ الغيب.

نحمدهُ على أن علّمنا كيف ننظرُ قبل أن نحكم، وكيف نتفكّرُ قبل أن نُقرّر، وكيف نُصغي لنداءِ المعنى في جوفِ الكلمة، فكلُّ حقيقةٍ تنبُت من تربةِ التساؤل، وكلُّ يقينٍ يُزهرُ على أطرافِ الحيرةِ النبيلة.

والصلاةُ والسلامُ على المعلّمِ الأول؛ الذي علّمنا أن الفكرَ عبادة، وأن السؤالَ عبورٌ إلى الله تعالى، وأن من سألَ بصدقٍ فقد خطا في سبيلِ الهدى؛ صلواتٌ تتردّدُ مع كلِّ ومضةٍ عقلٍ، وتُزهرُ مع كلِّ سؤالٍ يفتشُ عن النور، وتعلو مع كلِّ روحٍ تسعى إلى الحقيقة.

هو محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي فتحَ في الوعيِ أبوابَ السؤال، وجعلَ من المعرفةِ جهادًا، ومن التفكّرِ سبيلًا إلى اليقين، فكانَ هاديًا للعقولِ قبل الأبدان، وموقفًا للقلوبِ من سُكرِ الغفلة، ومعلمًا أن الكلمةَ التي تُقالُ بوعيٍ تُقيمُ أمة، وأن السؤالَ الذي يُطرحُ بإخلاصٍ يُغيّرُ مصيرًا.

فالحمدُ لله على هبةِ السؤال، وعلى نورِ البحث، وعلى شرفِ السعيِ إلى المعنى، وعلى نعمةِ أن نكونَ طلابَ حقيقةٍ في زمنٍ تتزاحمُ فيه الظلال.

## إلهي:

سكبتَ فينا رعدة السؤال كما تُسكب الحياة في الجسد، وأوقدتَ في العقل نار الخيرة لتدلّه عليك، وهياتَ للعقل سفينةً تمخرُ بنا عُبابَ المعنى، ومن القلب مرآةً تعكس أنوارك.

هبْ لنا عقلاً لا يكتفي بالإجابة، وروحاً لا تسكنُ إلى المعلوم، وسؤالاً لا يهدأ إلا في حضرة التجلّي، واجعلنا من أولئك الذين لا يُغيّرهم يقينُ العبارات الجاهزة ولكنهم يُطيلون الوقوف على عتبة الدهشة، يتسمون من بوابات الغيب رائحة المعنى، ويستضيئون بسُحب التأمّل وهم يسرون إليك؛ لا يحملون دليلاً ولكن يحملهم الشوق.

## إلهي:

طهرنا من لغو السّؤال المكرور، ومن رطانة المعرفة المتعالية، واجعل فينا حياءً من الجواب السّريع، وصبراً على مسالك البحث، ورفقاً بمن لم يسأل بعد. امنحنا ذوقاً يُبصر البصمة في كلّ شيء، ويتهجّى أسماءك من تفاصيل الخلق، ويدرك أنّ كل جمالٍ في هذا الكون إنّما هو أثرٌ دالٌّ عليك، وإشارةٌ إليك.

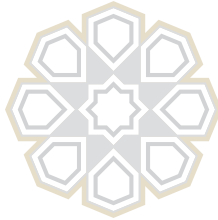
## إلهي:

إنّا لا نأتيك بعلومٍ مُدوّنة، ولا بفروضٍ مُؤداة، ولكننا نأتيك بعطشٍ لم تروه الكتب، وبتوقٍ لم تهديه الفهارس؛ نأتيك بأسئلتنا المكسورة، بقلوبٍ أنهكها التّيه، ونفوسٍ لم تعد تطمئنّ إلى المنطق وحده؛ فاجعل يا ربّ من شكّنا نافذةً إلى يقينك، ومن تردّدنا سلماً نحو مقام القرب، ومن جهلنا باباً إلى نورك الذي لا يُطفأ.

## إلهي:

اجعلنا ممن يسألون لِيُحَبِّوا، ويبحثون ليعبدوا، ويقرؤون ليشهدوا، ويعيشون على قلب الواصلين الذين لا يسكنون في جوابٍ، ولا يطمئن بهم الفكر إلا حين تُرْفَع عنهم حُجُب الغيب بشعاع التجلي.

خذ بأيدينا إلى تلك الرحلة التي تُصبح فيها الإجابة توجَّهًا إلى وجهك، وتتحوّل فيها الدلالة دربًا إلى أنسك، ويغدو السؤال فينا نسغًا خفيًا يسري في عروق المعنى لا يتوقّف عن التدفّق، ويدخل دورة حياة لا تنقطع؛ يبحث فيها عن وجه الحقيقة كما تبحث الأشجار عن النور في أعماق السماء.



أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

# مقدمة



هذه الصفحات التي بين يديك ليست ترفاً فكرياً يُنشئه الفراغ لتسليّة المترفين، ولا بهرجاً لغويّاً يتقن صنعة البيان لكنه يخون معنى الوجود، ولا نصباً معرفياً يُنصب في سوق الكتب ليزاحم العناوين الكثيرة التي تشكو فائض الخبر وفقر البصيرة.

إنها ليست من ذلك الصنف الذي يُقرأ لينام العقل، أو يُعرض لينال إعجاباً عابراً؛ لكنّها جمرٌ في يد من أضناه السؤال، ونداءٌ صارخٌ في وادٍ أدمن الصمت، ومشعلٌ يُحاول أن ينقذ السؤال قبل أن يُعدم على يد الإجابة الكسولة أو السلطوية العمياء.

هذا الكتاب لم يأت ضمن محاولات مكرورة لتكديس المفاهيم ولكنه جاء على قدر في محاولة لفكّ حصار المعنى عن السؤال؛ فالسؤال - في عمقه - شهادة على كوننا بشراً، نعيش في حيز القلق، والدهشة، والتشوّف إلى النور.

و حين تصير الأمة بلا سؤال فإنها لا تفقد أدوات التفكير فحسب ولكنها تفقد مبرر وجودها بوصفها أمة شاهدة على الناس، وحين يضيع السؤال في الزحام تموت المعرفة ويضيع معها المصير نفسه، ويغدو الإنسان مخلوقاً استهلاكياً ورقمياً لا روح فيه.



لا نكتب هذا الكتاب دفاعاً عن السؤال بوصفه أداة عقلية فحسب إنما نسطره دفاعاً عن كرامة الإنسان وعن وظيفته الوجودية في هذا الكون، وعن دوره بوصفه كائنًا سُئل ففكر، وشكّ فأمن، وتألّم ففهم، وسجد بعد أن رأى الحقّ. نكتبه لأننا نعلم أن الجواب - حين يُقدّم في غياب السؤال - يخلق عقلاً خاضعاً؛ وأن الفكر الذي يُمنع من التساؤل، يغدو تابعاً ومتلقياً على غير هدى ولا بصيرة.

إن هذا الكتاب ليس نصّاً نكتبه من أبراج التنظير المعزولة ولكننا نخطّه من قلب المعاناة اليومية التي نحياها حين نرى كيف يُجثّث السؤال من صدور الشباب، وكيف تُقابل حيرتهم بالاستهزاء، وكيف يُحنق نبض الوعي في مهده باسم الطاعة العمياء، أو باسم (لا تفتن نفسك)، أو باسم (هكذا قال الأوّلون) فلا تعترض؛ إنه صرخة ضد ثقافة القمع الناعم التي تلبس الجواب ثوباً مقدّساً لا يُمسّ، وتُحيل السائل إلى مهرطق ولو لبس جُبة العلم وعمامته أو ارتدى ربطة عنق المثقف النحرير.

هذا الكتاب ليس (معرفة تُقال) ولكنّه (كرامة تُستعاد)، وهو تمرينٌ على أن نسترجع حقننا في السؤال بوصفه شرطاً وجودياً لبقائنا أحياء حقاً، وهو جسر بين الوحي والعقل، وبين الحيرة والإيمان، وبين أن نكون ونُدرِك ذواتنا في ذلك كلّ. فإن كنت من أولئك الذين ما زالوا يشعرون بوخز السؤال في قاع أرواحهم، فأنت مدعو إلى أن تمضي معنا في هذا النص من أجل أن تولد أسئلتك من جديد، وإن كنت قد شبعت من الأجوبة الجاهزة، وتاقت نفسك إلى شيء يهز يقينك الكسول، فأنت صاحب هذه الرحلة ولست ضيفاً طارئاً عليها.

أما إن كنت قد تعودت أن تحيا بلا سؤال، وأن تُسلم بلا بحث، وأن تؤمن



بلا دهشة؛ فربما أن أو أن تعود إلى البداية؛ إلى حيث وُجدت أول مرة؛ تأتئها،  
متسائلاً، إنساناً.

هذا الكتاب كُتب لأننا نرى بأم أعيننا كيف تذوي شرارة السؤال في نفوس  
الشباب كما تذبل عروق الزهر في أرض عطشى؛ كُتب لأننا نلمس بأيدينا كيف  
يتحوّل العقل من مشكاة تُضيء الطريق إلى إناء مغلق يطفح بالأجوبة المعلّبة  
التي لا تُنبِت فهماً ولا تفتح أفقاً.

نكتبه لأننا نؤمن أن الأزمة الكبرى في أمتنا لم تكن في فقدان الجواب ولكنها  
كانت في تغييب السؤال؛ ولأننا ندرك أن أمة لا تسأل لا تفكر؛ وإذا لم تفكر لم  
تُبدع، وإذا لم تُبدع سارت على غير هدى في قافلة الأمم حتى لو ملأت ساحاتها  
ضجيجاً ومهرجانات.

كتبناه لأننا نؤمن أن السؤال هو أول عبادة للعقل وأنه لا إيمان بلا تساؤل،  
ولا يقين بلا رحلة، ولا نور بلا دهشة، لقد كتبناه لأننا في زمن يُقابل فيه السؤال  
إما بالهروب، أو بالسخرية، أو بالتكفير، ولأن جيلاً كاملاً نشأ على أن (لا  
تسأل) هي أولى درجات الأدب، و(اصمت) هي مدخل الحكمة، و(سلم دون  
فهم) هو طريق السلامة فغابت عنهم بهجة الفهم، ولذة الاكتشاف، وعِزة أن  
ترى الأشياء بعينيك لا بعدسات الآخرين.

إننا نكتبه لردّ الاعتبار لفعل السؤال في حياتنا الفكرية، والتربوية، والدينية،  
والسياسية، والروحية؛ نكتبه للشباب الذي صرخ في قلبه سؤال يوماً فلم يجد  
من يُصغي، ولا من يربّت على كتفه ويقول له: (أحسنّت أنك سألت؛ فالسؤال  
شجاعة لا وقاحة).

نكتبه لأننا نريد أن نستعيد لأنفسنا القدرة على الحيرة النبيلة دون غرق في



التّيه؛ وعلى الشكّ المنهجي الذي يحمي من الإلحاد؛ وعلى التمردّ المسؤول الذي يقي من الفوضى؛ وعلى الإيمان المبصر الذي يتناقض مع الاتّباع الأعمى.  
نكتبه لنقول: السؤال ليس أزمة ولكنّ غيابه هو الأزمة.

فإن كنت تبحث عن أجوبة جاهزة فضع هذا الكتاب جانباً؛ أما إن كنت مستعداً لتُربك يقينك الكسول، ولتخوض مغامرة السؤال، ولتدع قلبك يضطرب دهشة فمرحباً بك في الطريق.

محمد خير موسى

إسطنبول - ربيع الأول ١٤٤٧هـ

الموافق: أيلول "سبتمبر" ٢٠٢٥م



## فهرس العناوین



● الأُسئلة أم الإجابات؟ عن مفتاح الفكر وجدلية البذرة والثمرة في

مسار المعرفة ..... ٢١

أولاً: في البدء كان السؤال ..... ٢٢

ثانياً: التاريخ يبدأ من السؤال لا من الجواب ..... ٢٥

ثالثاً: السؤال حرّية أصيلة، والجواب قيدٌ حين يُمنع من المساءلة ..... ٢٧

رابعاً: الإجابة قد تُتمت الفكر إن لم تُسبق بسؤالٍ حيٍّ ..... ٣٠

خامساً: عمقُ الفكر يُقاسُ بعمق السؤال لا بجمال الجواب ..... ٣٢

سادساً: المجتمعات التي تقتل السؤال تُميت إمكانات النهوض ..... ٣٩

● لماذا السؤال؟ ..... ٤٣

أولاً: السؤال إعلانٌ للذات في وجه النَّسق ..... ٤٤

ثانياً: السؤال هو لحظة الانفجار المعرفي والتحويلات الذاتية ..... ٤٧

ثالثاً: من لا يسأل؛ يعيش بعقل غيره.. في الاستعمار الصامت للعقل وطريق

التحرر بالسؤال ..... ٥٠

رابعاً: السؤال يُحرّر من الاستعباد الرمزي.. في دور السؤال في تفكيك البنية

الرمزية للسلطة ..... ٥٣



- خامساً: السؤال أداة تنقيب الذات عن حقيقتها.. عن المسألة الداخلية  
 وولادة الإيمان الحرّ ..... ٥٦
- سادساً: السؤال يحوّل القضايا من خارجية إلى وجودية ..... ٥٩
- سابعاً: الجواب الذي لا يُنبت سؤالاً قهراً للفكر ..... ٦٢
- ثامناً: السؤال معيار الحرّيّة لا مجرد أداة للمعرفة.. عن العلاقة بين جرأة  
 السؤال وميلاد الذات المفكّرة ..... ٦٤
- تاسعاً: السؤال تشكيل العلاقة مع المقدّس.. السؤال لا يُمزق الحجاب  
 ولكنه يُوقظ الحضور ..... ٦٦
- عاشراً: السكوت عن السؤال يُورث نفاقاً فكريّاً ..... ٦٨
- حادي عشر: السؤال نواة الفقه المقاصدي وبوابة الحياة في النصّ ..... ٧٠
- ثاني عشر: السؤال هو ما يجعل الدين حيّاً في التاريخ ..... ٧٢
- ثالث عشر: في السؤال جمال لأنه اعتراف بأنّ الحقيقة لا تُملك ..... ٧٥
- **النبيّ المتسائل: تجليات النبوة في هيئة سؤال ..... ٧٧**
- أولاً: العبور من الظاهر إلى المعنى الوجودي؛ حين سأل إبراهيم عليه السلام  
 عن الإحياء ..... ٧٨
- ثانياً: التحرّر من وثنية المألوف بميزان النقد الفطري.. قراءة في سؤال إبراهيم  
 عليه السلام الكوني ..... ٨١
- ثالثاً: مواجهة السلطة بسؤال يكشف لا يُجامل.. نقد الأب والنسق  
 والملك ..... ٨٤
- رابعاً: الانسجام العميق بين القلب والعقل؛ السؤال بوصفه لغة الحبّ بين  
 العبد وربّه ..... ٨٨
- خامساً: من الطبيعة إلى التوحيد.. رحلة استخلاص المفهوم من صمت  
 الكواكب ..... ٩١



- سادساً: التجريب مدخلاً إلى التثبيت المعرفي.. من تفكيك التصوّر إلى مشاهدة المعنى ..... ٩٣
- سابعاً: تفكيك الرموز لا كسرهما؛ هندسة العقل الإصلاحيّ في مشروع إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..... ٩٦
- ثامناً: الحجاج العقلي بوصفه بديلاً للهيمنة؛ حين تكون الكلمة أقوى من عرش الطّاغية ..... ٩٩
- تاسعاً: استبصار الأجيال القادمة من خلال وعي اللحظة؛ حين يكون السؤال نبوءةً تريّ الغد ..... ١٠١
- خاتمة تأملية؛ حين صار السؤال طريقاً إلى الله تعالى ..... ١٠٣

### ● المنهج النبوي في صناعة السؤال: حين يصبح الاستفهام وحيّاً يُربّي ووعياً يُوقظ ..... ١٠٥

- أولاً: السؤال أداة لفكّ قيود الصمت وتحرير النفوس من حرج البوح .. ١٠٦
- ثانياً: السؤال لتفجير طاقات الفكر، وإشراك العقول في صناعة الجواب .. ١٠٨
- ثالثاً: السؤال أداة لتقويم المفاهيم المغلوطة وبناء وعي قيمي جديد ... ١١٠
- رابعاً: السؤال جسراً بين المواقف اليومية ورسائل التوحيد الكبرى ... ١١٢
- خامساً: السؤال الاستنكاري لاجتثاث بقايا الجاهلية الأخلاقية ..... ١١٤
- سادساً: السؤال للتأكد والإنصاف، ثم ترسيخ قواعد العدل الاجتماعي .. ١١٦
- سابعاً: السؤال الحاني في مواطن الألم.. من وصف العلة إلى تأويل الرحمة .. ١١٨
- ثامناً: السؤال لتبديل مقياس الفلاح والفشل نحو الآخرة، نقد المفاهيم الشائعة وتحرير العقل من أسر المعايير الدنيوية ..... ١٢٢
- خلاصة: السؤال النبوي؛ جذوة العقل ونبض الروح ..... ١٢٤



## ● سؤال الماهية وسؤال الجمالية: حين تُضيء الدهشةُ جوهر الكينونة .. ١٢٧

الدهشة.. الشرارة الأولى في إشعال السؤال ..... ١٢٩

الجمالية ليست ترفاً؛ إنها شمس الروح حين تضيء جوهر السؤال .... ١٣١

من العقل التحليلي إلى القلب المتذوق؛ مسارات تكامل الوعي ..... ١٣٣

حين يُولد المعنى من رحم الجمال؛ قصة الإنسان بين الوجود والتذوق .. ١٣٥

تمظهرات الأزمة؛ حين غابت الجمالية ففقدنا الماهية ..... ١٣٧

نحو فلسفة سؤالٍ متكاملة؛ تتأمل وتتلذذ، تعقل وتُبصر، تبحث

وتذوق ..... ١٣٩

## ● تجليات وتمظهرات أزمة السؤال عند الشباب ..... ١٤٣

أولاً: انكفاء العقل عن المعنى وانشغاله بسطح الأشياء ..... ١٤٥

ثانياً: اغتراب السؤال عن جذره الحضاري وتمزقه في هواء الثقافة

الوافدة ..... ١٤٨

ثالثاً: الركون إلى سطح السؤال دون الغوص في لبّه الوجودي؛ ليست كل

الأسئلة العظيمة عظيمة حقاً ..... ١٥١

رابعاً: انفصام السؤال عن لحم الواقع الحيّ.. إحياء السؤال المشتبك . ١٥٣

خامساً: التدين بلا تساؤل، والتمرد بلا تبصّر.. بين أصنام الماضي وأوثان

الترجمة ..... ١٥٧

سادساً: استعراض السؤال وغياب صدقه؛ حين تتحوّل المعرفة إلى

مَشهَدِيَّة ..... ١٥٩

سابعاً: فصل السؤال عن سياق الأمة المعرفي.. قطيعة الروح عن

جذورها ..... ١٦١

ثامناً: الإقامة في أسئلة الانكسار لا أسئلة البناء ..... ١٦٣



- تاسعاً: تسرّب وهم السؤال في غياب ثقافة القراءة..... ١٦٥
- عاشراً: السؤال المتوقع في الذات والمنقطع عن الجماعة..... ١٦٨
- حادي عشر: تخطيط الجواب وقتل السؤال؛ حين تتحول المعرفة إلى صنم..... ١٧١
- ثاني عشر: تحوّل السؤال إلى خنجر؛ حين يُستعمل العقل أداةً للطعن .. ١٧٤
- ثالث عشر: الهروب من السؤال المؤلم.. الجُبن المعرفي المقنّع..... ١٧٧

### ● أسباب أزمة السؤال عند الشباب: قراءة فكرية في أسباب خفوت

#### السؤال ..... ١٨١

- أولاً: الإرهاب المعرفي والاستبداد الفكري؛ حين يُذبح السؤال ..... ١٨٢
- ثانياً: استقالة العقل أمام سطوة الشاشة؛ حين ينقلب البصر على البصيرة..... ١٨٤
- ثالثاً: اختناق القيم الكبرى في زحام اليومي؛ حين يضيق الهمم فيموت السؤال ..... ١٨٦
- رابعاً: انكسار النموذج المثقف وسقوط القدوات المفكّرة..... ١٨٩
- خامساً: الاغتراب الروحي أمام الحداثة الزائفة..... ١٩١
- سادساً: فقدان الأمان النفسي أمام الإجابات المُحرّجة..... ١٩٣
- سابعاً: تآكل الحسّ الحضاري وإغلاق أفق المشروع..... ١٩٥
- ثامناً: القطيعة مع سؤال الوحي والنبوة..... ١٩٧
- تاسعاً: استبطان صورة (العالم المعصوم) وغياب ثقافة الحوار..... ١٩٩
- عاشراً: الهشاشة الهويّانية أمام العوالة..... ٢٠١
- حادي عشر: هيمنة النزعة الأداتية على العقل المعاصر..... ٢٠٣
- ثاني عشر: الانغماس في العبثية الوجودية واليأس من المعنى..... ٢٠٥



ثالث عشر: الانشطار الداخلي بين السؤال الحقيقي والسؤال المستعار ٢٠٧  
ومضة ختام؛ السؤال نبض الحياة ومفتاح الخلافة..... ٢٠٩

### ● كيف نعيد للسؤال شرعيته وقيمته في فضائنا الفكري والمعرفي؟ . ٢١١

أولاً: تحرير الفضاء المعرفي من سطوة الإجابات المتأهّمة..... ٢١٢  
ثانياً: ترسيخ فضيلة (لا أدري) بوصفها مقدّمة لتُبلّ السؤال ..... ٢١٥  
رابعاً: إحياء الدهشة المنسيّة بوصفها معين السؤال الأول ..... ٢١٨  
خامساً: تجديد صورة السائل من المغامر المشاكس إلى المفكر الجاد .... ٢٢٠  
سادساً: تعليم فقه السؤال لا صيغته فحسب ..... ٢٢٢  
سابعاً: تفكيك هرم السلطة المعرفية.. من المدرّس القاضي إلى المعلّم  
الرفيق ..... ٢٢٤  
ثامناً: تحويل السؤال من لحظة عابرة إلى فعل حضاري متجدد ..... ٢٢٦  
تاسعاً: تحويل السؤال من صدى الأزمة إلى نداء الإمكان ..... ٢٢٨  
عاشراً: ترسيخ المسؤولية الفكرية عن إنتاج السؤال ..... ٢٢٩  
حادي عشر: مأسسة السؤال؛ من القلق الفردي إلى العقل الحضاري . ٢٣١

### ● آليات عملية لتربية الذات على صناعة السؤال ..... ٢٣٣

أولاً: درّب نفسك على الصمت الداخلي لتسمع السؤال في أعماقك .. ٢٣٤  
ثانياً: خصّص دفترًا خاصًا لأسئلتك الوجودية والفكرية ..... ٢٣٥  
ثالثاً: اقرأ لا لتجمع معلومات بل لتبحث عن السؤال الذي بذر  
الفكرة..... ٢٣٦  
رابعاً: تعلّم كيف تسأل (سؤالاً جيّداً) وليس مجرد أسئلة كثيرة..... ٢٣٧  
خامساً: ناقش أسئلتك مع من يُفكّر ببطء لا مع من يُجيب بسرعة ..... ٢٣٩



سادساً: اربط كل ما تدرسه بسؤال أصلي؛ لماذا أدرس هذا؟ ..... ٢٤١

سابعاً: اخرج من دائرة (أسئلتني فقط) إلى (أسئلتنا نحن الأمة) ..... ٢٤٣

ثامناً: تذكّر؛ ليس كل سؤال يحتاج جواباً مباشراً؛ بعض الأسئلة تحتاج

مساراً..... ٢٤٥

تاسعاً: اجعل من السؤال مشروع حياة وليس لحظة انفعال ..... ٢٤٧

عاشراً: اجعل سؤالك دعاءً خفياً لا مجادلةً صاخبة ..... ٢٤٨

● في خاتمة الرحلة؛ نداء من القلب ..... ٢٥١

فهرس المراجع ..... ٢٥٤



أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

# الأسئلة أم الإجابات؟

## عن مفتاح الفكر وجدلية البذرة والثمرة في مسار المعرفة



إنَّ العقل الذي يبدأ بالإجابة قبل أن يُصغي لصوت السؤال، كمن يزرع الثمرة ويتجاهل التربة، وإنَّ أمتنا لم تعجز لأنها افتقرت إلى (الأجوبة)، بل لأنها أطفأت مصابيح السؤال، فصار الفكر عندنا جُملاً تحفظ وليس قلقاً يُعاش؛ وأصبحت المعرفة طقوساً لغوية ولم ننجح في جعلها مساراً وجودياً يُحَكم وينقّب ويهزّ الجذور.

لا توجد علاقة فوقية بين السؤال والجواب؛ إنَّها هي جدلية أشبه برقصة النور والظل، يتقدّم أحدهما ليكشف الآخر، ويعود الآخر ليعيد صياغة الأول من جديد، والإجابة التي لا يولدها سؤال أصيل ليست معرفة حقيقية ولكنّها ترميمٌ سطحيٌّ لصورة هشة، والسؤال الذي لا يُنجم مساراً نحو اليقين قد يُغرق صاحبه في متاهة العبث.

إنَّ أزمة السؤال هي جوهر أزمة الفكر، ويغدو إصلاح العقل مرهوناً بإعادة الاعتبار للسؤال وذلك بوصفه شرارة الوحي الأولى، ونبض الأنبياء، وبوصلة الأحرار، وفيما يأتي نضيء على جدلية الأسئلة أم الإجابات مفتاح المعرفة في إطار سعيها لفهم أزمة السؤال.



## ○ أولاً: في البدء كان السؤال

الجواب ليس أول المعرفة ولكنّه السؤال؛ فالسؤال هو ذاك الطّرق الأول على باب الحقيقة، وهو الحرف الذي تبدأ به أبجدية الوعي، وهو اللّحظة التي يتمرّد فيها العقل على الصمت، ويتمرّد فيها القلب على الركود، ويأبى الإنسان أن ينام في العتمة وقد خلقه الله تعالى نوراً.

لقد كانت كل معرفة عميقة، وكل فلسفة خالدة، وكل اكتشاف غير وجه التاريخ، تبدأ بسؤال وليس بإجابة.

السؤال هو لحظة الدهشة التي يُولد منها الوعي، حين يرتطم كيان الإنسان بجدار الغيب، فينبثق منه القلق النبيل الذي يدفعه لبحث ليفكر وليقف في العراء مع ذاته ويتساءل: لماذا؟ وكيف؟ ومن أنا؟ وإلى أين؟

حين سُئل عبد الله بن عباس، ترجمان القرآن وإمام التأويل عن سرّ علمه لم ينسبه إلى حفظ ولا قرب من النبي **صلى الله عليه وسلّم** فحسب بل قال كلمته التي تُكتب في مطلع كل كتاب: (بلسانٍ سؤولٍ، وقلبٍ عقولٍ)<sup>(١)</sup>؛ وكأنّه يقول: لم تكن المعرفة هبةً من السماء تهبط على الغافل الكسول ولكنها كانت ثمرة شغفٍ عقليّ لا يهدأ، ولسانٍ لا يكفّ عن قرع أبواب السؤال، وقلبٍ مفتوحٍ على التأمّل والتفكير لا يسكنه الجواب حتى يطمئن للسؤال.

إنّ السؤال في الحضارة الإسلامية لم يكن في يوم من الأيام جرأةً على المقدّس ولكنّه كان طريقاً لفهمه، وكان السائل العاقل يُقدّم على غيره في مجالس العلم؛ فعن الصحابة **رضي الله عنهم** أنهم كانوا يفرحون بمجيب الرجل من أهل البادية

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ١١/١٢٢.



يسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>، لأنه يأتي بعفويته الفطرية، ويسأل بما يعجز عنه المترددون في الحضر، فيفتح بسؤاله باب علمٍ للعقلاء من بعده.

لكن ما نوع هذا السؤال؟ ليس السؤال الذي يُطرح لمجرد الاعتراض أو التسالي أو اختبار الآخرين وإنما هو السؤال الذي ينبع من حرقه الداخلية، ومن شعورٍ بنقصٍ حقيقيٍّ، ومن توقُّعٍ إلى اكتمالٍ روحيٍّ وفكريٍّ.

لا يمكننا اعتبار السؤال الحقيقي فعلاً ذهنياً محضاً ولكنه موقفٌ وجوديٌّ؛ إنه إعلان بأن الإنسان لم يُخدع بزيف العالم ولم يرضَ بما لقَّنه المجتمع ولم يغلق عينيه أمام الفراغ بل اختار أن يفتحها على الاتساع ويحدِّق في المجهول حتى يرتوي.

تأمل معي المشهد الآتي: طفل صغير يلتقط نفاحةً سقطت من الشجرة فيسأل: (لماذا سقطت إلى الأرض؟ لم لم تصعد؟)؛ سؤال بسيط في ظاهره لكنه يمكن أن يكون الشرارة التي توقد في الطفل عقل نيوتن، فقد لا تكون المعادلات هي البداية وإنما تلك الدهشة الطفولية التي ترفض الصمت وتفتح باب العقل للإبداع.

إن أعظم الانعطافات في تاريخ البشرية بدأت بسؤال؛ بل إن القرآن الكريم ذاته وهو الكتاب الخاتم، جاء يحمل في ثناياه عشرات الأسئلة التي أرادها الله تعالى أن تُشعل الفكر الإنساني؛ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٨٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٥]، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [التَّبَا: ١]، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المَائِدَة: ١٧٦]، كلها أسئلة لأن الطريق إلى التوحيد وإلى الفهم وإلى الاكتمال لا يبدأ بالإجابة وإنما يبدأ بالسؤال.

(١) أخرجه مسلم.



ومّا يلزم تأكيده في هذا المقام أنّ الإجابة ليست نقيضاً للسؤال بل هي بنت من بناته؛ لكنها تموت إذا لم تولد من رحم السؤال وتتحول إلى وثني فكريّ إذا لم تكن مسبوقة بقلق، ومغموسة بالشك النبيل، ومشروعة من عمق الحاجة إلى المعنى؛ فالذين يُكثرون الأجوبة دون أن يفتحوا باب السؤال، لا يصنعون حضارة ولكنهم يبنون سجوناً فكرية، والذين يُربّون أبناءهم على الحفظ دون السؤال يظنون واهمين أنّهم يُنشئون علماء وما دروا أنّهم يُخرجون بيغاوات، والذين يقدّسون الإجابات الجاهزة ويُجرّمون الأسئلة الحائرة، إنّها يخنقون المعرفة وهي في مهدها.

إن السؤال - لا الجواب - هو ما يحرّر العقل من الوثوقية العمياء، ويوقظ القلب من سبات الرضا البليد، ويضع الإنسان في حالة سعيٍّ دائم، لأن من سأل قد اعترف بعجزه ومن اعترف بعجزه فقد سلك أول طريق الحكمة.

ولهذا كان السؤال أعظم من الجواب لأنه إعلان الحياة بينما الجواب قد يكون علامة موتٍ فكريّ إذا لم يُجدّد بأسئلةٍ أخرى؛ فالذين يريدون معرفة حقيقية لا بد أن يسألوا؛ والذين يريدون بناء نهضة لا بد أن يبدؤوا بالسؤال: (لماذا تأخرنا؟)، (كيف نفهم ديننا؟)، (ما غاية وجودنا؟)، (ما الإنسان؟)، (ما العدل؟)، (ما الحق؟)، (من نحن؟ وإلى أين نمضي؟) ففي البدء؛ كان السؤال، وفي كل فجرٍ جديدٍ يولد من جديد.



## ٥ ثانيًا: التاريخ يبدأ من السؤال لا من الجواب

التاريخ ليس سلسلة وقائع تبدأ من الفعل وتنتهي بالأثر؛ إنما هو في جوهره سفرُ الأسئلة الكبرى؛ وهو سجلُّ تلك اللحظة العظيمة التي وقف فيها الإنسان وحده في وجه الصمت، التاريخ لا يبدأ حين يكتب المنتصرون روايتهم ولكن حين يسأل المفكرون: ما معنى النصر؟ وما قيمته؟

لم يكن سقراط -شيخ الفلاسفة- يعتلي منبرًا ولكنه كان يتسلل إلى العقول بأسئلته كأنه يوقظ الأرواح من سباتها، يخلخل المسلمات، ويكسر أصنام الفكر بأداة واحدة؛ سؤال شريف، ودهشة نبيلة، فلم يكن يُلقي خطابًا ولكنه كان يُلقي قنبلة تساؤل، يهدم بها جدار الزيف الذي بنته العادة، ويعيد للإنسان خجله من الجهل، وجرأته على الاعتراف به.

وكذلك الأنبياء أولئك الذين ظنَّ الناس أن الوحي جاءهم حزمة أجوبة، فإذا القرآن -وهو أرقى خطاب إلهي- مُزهرٌ بالأسئلة، يفجرها في وجه الغفلة، ويفجر بها العقل من داخله.

أولم يقل الله تعالى لرسوله ولعباده المؤمنين: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩].

فلم يُجب ولكنه طرح السؤال وترك الجواب معلّقًا في ضمير السامع؛ سؤال لا ينتظر إجابة لفظية إنما يُحرك عصب الوعي، ويهزّ كيان السكون، ويوقظ القلب من خدر الغفلة.

فما أشبه هذا السؤال بمنبه في قلب الليل يوقظ الروح من نومها، ويهمس في أذنها: هل ترضى أن تجهل؟ هل يسويك الجهل بأهل النور؟ هل تقبل أن تمشي في طريق لا تعرف منتهاه؟ هكذا يُعيد الوحي تشكيل الإنسان باعتباره نبضًا



معرفةً، من خلال إثارة السؤال وتحرير العقل واستنهاض الفطرة التي وُلدت على شهوة المعنى.

أما أولئك الذين يخافون السؤال فيكتمونه أو يحرمونه أو يتهمون من يسأله؛ فهم يخنقون الإيمان وهم يظنون أنهم يصونونه، ويدفنون اليقين تحت ركام الجبن، فالإيمان الصلب لا يخاف السؤال، والفكر الحي لا يُصاب بالذعر من الشك ولكنه يحوله إلى سلمٍ يرقى به إلى اليقين.

ويا للعجب؛ حين يُمنع الناس من السؤال باسم الدين، فإن الدين نفسه يصرخ من بين صفحاته: (أفلا يتدبرون؟)، (أفلا يعقلون؟)، (أفلا ينظرون؟)؛ أسئلة تتردد لتصنع إنساناً حقيقياً.

إن الذين كتبوا التاريخ كانوا جيوشاً ولكن الذين غيروا التاريخ كانوا سائلين؛ فالفتوحات التي تفتح الأقاليم فتحت الأرض وحررت الإنسان أما السؤال الواحد الذي يُولد في عقلٍ حرٍّ قد يهزّ قرناً كاملاً من الغفلة.

فيا صاحبي: إذا أردت أن تبدأ الرحلة، فلا تفتش عن جواب بل ابحث أولاً عن السؤال الذي ضيعته، وإذا أردت أن تكون إنساناً بحق، فلا تقل: أعطني إجابة ولكن قل: علمني كيف أسأل.



## ٥ ثالثاً: السؤالُ حريّةٌ أصيلة، والجوابُ قيدٌ حين يُمنع من المساءلة

إنّ السؤال في جوهره ليس مجرد أداة معرفية تُستخدم للبحث عن المعلومة ولا هو مجرد مفتاح تُفتح به أبواب الجواب ولكنه هو - في حقيقته الكيانية - صيغةٌ وجوديةٌ واعيةٌ تُعبّر عن حرية الذات في أن تتعلّل ما حولها، وتُعيد بناء علاقتها مع العالم على أساس الاختيار والحوار لا التلقّي؛ فحين يسأل الإنسان فإنه يعلن اعتناقه من السطوة الصامتة التي تمارسها الإجابات الجاهزة على بنيته الذّهنية، ويعلن تمرّده على القبول الساذج بكلّ خللٍ ورثه عن مجتمعه، أو لقنّه إياه معلمه، أو أملاه عليه حاكمه، أو أرادته منه شيخ مذهبه، أو فرضه عليه سقّف الجماعة التي ينتمي إليها.

إنّ السؤال الصادق المنبعث من عمق وجوديٍّ؛ لا ينبغي أن نراه تمريناً عقلياً عابراً ولكنه لحظة نفككٍ للقديم وتبيؤٍ لاستقبال الجديد، وانفتاح على الاحتمال، واعتراف ضمنيٍّ بأنّ كثيراً ممّا كان ينبغي أن يُراجع، وأنّ بعض ما بدا يقيناً قد يكون حجاباً، وأنّ عدداً مما جعل معصوماً قد يكون موضع نقد.

من هنا فإن كل سؤالٍ هو ممارسة حقيقية للحريّة، ليس بمعناها السياسي الضيق إنما بمعناها الوجودي العميق الذي يجعل الإنسان حرّاً في وجوده حين يكون حرّاً في فكره، وحرّاً في فكره حين يكون قادراً على التشكيك فيما يُعرض عليه من أجوبة، أيّاً كان مصدرها ما لم يقيم الدليل على صحتها بعد محاكمة حقيقية.

في المقابل فإن الجواب الذي هو ضرورة منهجية بعد السؤال قد يتحوّل - إن لم يُراجع ويُختبر ويُعرض للشكّ - إلى أداة قمع فكريٍّ ونفسيٍّ، وإلى قيدٍ غير مرئيٍّ يُكبّل العقل باسم الوضوح، ويحبس الوعي داخل أسوار الإجماع المزعوم.



بل إنَّ من أعظم مظاهر الاستبداد في التاريخ، أنَّه لم يكن يعتمد دائماً على الجهل، بل كثيراً ما كان يستند إلى إجاباتٍ مقنعة، لكنها غير قابلة للنقد، تُرفع إلى منزلة (الحقِّ) الذي لا يُسأل، ولا يُناقش، ولا يُمسّ، حتى لو كانت في مضمونها تُكرّس الظلم ومُجمل القبح وتُسكّن الضمير.

إنَّ الطغاة السياسيين - في كل العصور - لم يمنعوا الأسئلة لأنها تُفسد النظام الإداري للدولة، بل لأنهم يعلمون أن مجرد السؤال عمّا يُسمّى (بديهيات الشرعية) هو خيانة للسرديّة المؤسسة لسלטتهم، وأنَّ طرح سؤالٍ من قبيل: (من منح هذا الحاكم الحقَّ في أن يحكم؟)، أو: (ما حدود طاعته؟)، أو: (أليس من الممكن وجود بديلٍ أكثر عدلاً؟)، يُعدّ تفكيكاً لبنية الشرعية ذاتها وليس مجرد اعتراض جزئيّ.

ولهذا؛ فإنَّ أخطر الأسئلة في نظر المستبدين ليست تلك التي تتعلق بالخدمات أو الضرائب أو السياسات ولكنها التي تمسّ ماهية السّلطة، ومصدرها، وغاية وجودها، لأنها تعيد كل شيء إلى نقطة البدء، وتُظهر أن ما بدا قدراً تاريخياً لم يكن سوى نتاج سكوتٍ طويلٍ عن السؤال.

ولا يختلف الطغيان الفكريّ عن الطغيان السياسي في هذه الناحية بل لعله أشدّ خطراً؛ إذ إنَّ الجواب المقدّس حين يُعطى للناس مغلفاً باسم الدين أو التاريخ أو المذهب أو الجماعة، ويُحاط بهالة من الطمأنينة الكاذبة، ثم يُجرّم السائل ويُحوّل الشاك، ويُشيطن من يتجرأ على النقد، فإنَّ العقل الجمعيّ يتحول إلى مقبرة للأسئلة، ويتحول الناس من كائناتٍ مفكّرة إلى حشودٍ مبرمجة تردّد دون أن تفكر، وتُسلمّ دون أن تعقل؛ فنجد أنفسنا أمام مجتمعٍ متسرّب بالعبوديّة المهينة التي تلبس ثوب الأخلاق الزائفة.



ومن هنا فإنّ الجواب لا يكون تحريراً إلا إذا وُلِدَ من رحم السؤال، وتعرّض لاختبارات الفكر والنقد، وكان حصيلة مسارٍ من التدرّج المعرفي، أما حين يُمنح الجواب قبل السؤال، أو يفرض على السائل بوصفه حلاً جاهزاً لا خيار فيه، فإنّ العقل يُختزل إلى وعاء، والذات إلى نسخة مكرّرة من غيرها، وتتحوّل المعرفة إلى ميراثٍ يُتناقل دون تمحيص.

لقد رسّخ القرآن هذا العمق منذ اللحظة الأولى؛ فكان الخطاب الإلهي فيه معجوناً بالسؤال وليس بالإملاء؛ (أفلا تعقلون؟ أفلا تتفكرون؟ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟).

أسئلة لا تُطرح للإجابة فحسب ولكنها تُقذف في وجه الغفلة لتفجّر الطمأنينة الكاذبة، وتُعيد الإنسان إلى شرطه الأول؛ أن يكون حرّاً لأنه سائل، وأن يكون سائلاً لأنه مفكّر، وأن يكون مفكّراً لأنه عبدٌ لله تعالى لا لغيره.

إنّ جوهر العبودية لله تعالى هو التّحرّر من كل ما سواه، ولا يكون ذلك إلا بأن تمتلك شجاعة السؤال الذي يُحرّرك من أوهام البشر، حتى تسلم لله تعالى عن بينة وبصيرة لا عن تقليد أعمى وعصبيّة جاهليّة.

إنّ كل سؤال حقيقيّ هو ولادة جديدة للإنسان في عالمٍ غارقٍ في الأجوبة القديمة، وكل مجتمع يُدرّب أبناءه على طرح الأسئلة بدل استظهار الجواب؛ هو مجتمع يزرع الحرّيّة قبل أن يحصد النهضة، وكل مشروع فكريّ لا يبدأ بسؤال: (هل هذا الذي نعتقده حقاً؟) هو مشروع محكومٌ عليه بأن يُعيد إنتاج القيود والأغلال باسم التقدّم.



## ٥ رابعًا: الإجابة قد تُميت الفكر إن لم تُسبق بسؤالٍ حيٍّ

لن تجد في الوجود خطرًا على العقل أشدَّ من جوابٍ قدّم له قبل أن يُدرّب على السؤال، ولا في الفكر عدوًّا أشدَّ فتكًا من إجابةٍ جاءت تُسكّن القلق دون أن تُداويه، وتُغلق باب الدهشة قبل أن تُولد فيها الفكرة، وتُخرِس الصمت النبيل الذي كان يتجهز للنطق بمعرفةٍ نابعةٍ من صميم الذات وليس من شرفة التلقين. ذلك أن الجواب الذي لا ينبثق من رحم السؤال لا يكون إدراكًا ناضجًا ولكنه يغدو تكرارًا ميتًا يُعطلُّ به العقل باسم الطمأنينة، وتُغلف به العقول بغلافٍ لامعٍ من (الوضوح) بينما في باطنها يتعفن الركود.

وإن أخطر ما في (الجواب الكسول) أنه يشبه الشفاء في ظاهره، لكنه لا يُعالج المرض من جذوره، بل يُجدرّ الأعراض ويُبقي العلةً مختبئةً في أعماق الوعي، حتى إذا أُثير العقل يومًا، وجد نفسه عاجزًا عن أن يبدأ من جديد لأنه نسي لغة السؤال التي بها أُخلق.

إننا نعيش في عالمٍ يحتفي بالإجابات أكثر مما يحتفي بالأسئلة، فمنذ سنوات الطفولة الأولى، يُدفع الطفل إلى استظهار الجواب الصحيح قبل أن يُسمح له أن يسأل عن معناه، وفي المدارس يُكافأ الذي يردّد ما قيل له حرفًا، ويُهَمَّش -في كثير من الأحيان- الذي يسأل عن علاقة الفكرة بالحياة، وفي حلقات العلم تُعلّق الشهادات على الأجوبة المحفوظة دون اعتبارٍ للتجربة الفكرية التي سبقت تلك الإجابة، وفي الخطاب الديني يُبشّر من (سلم) بإيمانه دون أسئلة، بينما يُتهم صاحب السؤال بأنه مشكك أو متلاعب أو مبتدع، وفي السياسة يُهلّل لمن يُكرّر شعارات الشرعية بينما يُحَوَّن من يسأل: من الذي كتب هذا الشعار؟ ولمن هذه الشرعية؟ وبأي حقّ صممت العقول دهورًا تحت سلطانها؟



وهكذا؛ تنشأ أجيالٌ لا تُنتجُ فكرًا ولكنها تُعيد إنتاج الرِّق، ولا تُبصر الحقيقة رغم أنّها تردد ما كُتب عنها، جيل لا يعرف من الدين إلا آراء العلماء، ومن العلم إلا هوامش المناهج، ومن التاريخ إلا ما دونه المنتصرون.

وهذا كله ليس جهلاً بالضرورة ولكنه صورة أعمق من الجهل؛ جهلٌ مموّه بأجوبة صحيحة الشكل، ميتة الروح، وعيٌ مشلول بأثقال محفوظات لم تُهضم، ومعرفةٌ تشبه الأموات المحنطين؛ تامّة المظهر وخاوية الجوهر.

إنّ الجواب الذي لا تسبقه رحلة سؤال أشبه بثمرة نُزعت قبل نضجها فأجبرت على أن تكون طعاماً لكنها لا تُغذي لأنها لم تنبت في أرض القلق، ولم تُسقَ بعرق الفكر، ولم تنضج بحرارة الوعي.

وحين تصبح الأجوبة سلعة جاهزة، ويصبح العقل مستهلكاً تتحوّل الأمة من ذاتٍ ناهضة إلى ظلٍّ باهتٍ لمجدٍ سابق، تُكرّر تلاوتها لما فهم قديماً، وتغيب عن الحاضر لأنها لم تعد تسأل عنه.

وكم هو خطير أن تنقلب وظيفة العقل من (البحث) إلى (الحفظ)، ومن (الشك المنهجي) إلى (الاطمئنان التكراري)، ومن (السعي إلى المعنى) إلى (الكتفاء بالصورة)؛ فبدل أن يكون الإنسان كائنًا مُفكّرًا، يُصبح آلة نسخ تُنتج نسخًا من الكتب لا أفكارًا من الروح، ومكتبةٌ منسوجةٌ من الآخرين دون أن يكون مشروعًا وجوديًا نابعًا من ذاته.

لهذا كله؛ لا يكفي أن نُعلّم أبناءنا الأجوبة بل ينبغي أن نعلّمهم القلق الجميل، والسؤال الوجودي، والرغبة في الاكتمال، وجرأة أن يقولوا: لا أفهم؛ فأشرح لي، ولا أطمئن؛ فأجبنني، ولا أسلم؛ فأقنعني؛ فالسؤال حيٌّ، والجواب ميتٌ إن لم يُخلق منه، والسؤال يقود إلى الفكر، بينما الجواب الكسول يغلق الطريق ويُنهى الرحلة قبل أن تبدأ.



## ٥ خامسًا: عمقُ الفكر يُقاسُ بعمق السؤال لا بجمال الجواب

في الحديث عن معيار القيمة المعرفية بين ظاهر الجواب وجوهر السؤال يمكننا التأكيد أن الجواب مهما زخرفته البلاغة، والتعريف مهما أحكمته الفصاحة؛ ليس هو المعيار الحقيقي لعمق الفكر؛ بل إن عمق الفكر يُقاس بمقدار ما يستطيع العقل أن يغوص به في السؤال ذاته، لأن السؤال - لا الجواب - هو اللحظة التي تُولد فيها الذات من جديد، حين تتوقف عن المشي في أثر غيرها، وتختار أن تتلمس الطريق بنفسها، بين ظلال المعنى وأشواك التيه.

فالسؤال ليس رصاصةً تُطلق على المجهول، إنما هو سهمٌ حادٌ موجه نحو لب الشيء وليس إلى قشرته، نحو الحقيقة ونحو الجذر وليس نحو الغصن.

بينما الجواب إن لم يكن مُستنبطًا من تربة السؤال الصادق، والنابض، والمتجدد، فهو زخرفة لفظية قد تُبهر السامع لكنها لا تُقيم به برهانًا، ولا تفتح أمامه طريقًا، ولا تُعبر فيه وعيًا.

تأمل هذا المشهد: رجل يسأل: ما معنى الحياة؟ فيُقال له: المعنى أن تعمل وتكذب وتعبد الله تعالى وتكون صالحًا، الجواب يبدو صحيحًا، لكن؛ هل أجب على عمق السؤال؟ أم أنه مرّ عليه كما تمرّ الرياح على سطح الماء دون أن تُحرك القاع؟

الجواب كان جميلًا في ظاهره، لكنه لم يخض في ظلمة الحيرة التي دفعت الإنسان إلى طرح هذا السؤال من الأصل؛ لم يلمس ذلك الفراغ الداخلي الذي يتساءل عن غاية الوجود في لحظة قلق، ولا أعاد بناء الإيمان بوصفه جوابًا اختياريًا لا وصايةً جاهزة.



الفلاسفة الكبار والمجددون العظام في تراثنا الإسلامي لم تكن مكانتهم تقاس بمدى قدرتهم على صياغة الأجوبة الباهرة وإنَّما بجرأتهم على إعادة صياغة الأسئلة من الجذر.

فحين يهَمُّ الإمام الغزالي بصياغة سلّم المعرفة فإنّه لا يبدأ من قمة التأمّل المجرد، بل يهبط إلى أرض الناس؛ حيث تبدأ المعرفة من أدنى مراتبها؛ من الجموع، من روايات يتناقلها الناس كما يتناقلون الأسطورة، لكن الإمام الغزالي لا يلبث أن يرتقي خطوة؛ فيدللّ السائر في درب المعرفة على أن ما يُنقل عن الناس لا يغني عن الرؤية ولا يغني عن السمع، وأن الحواس - وإن كانت خادعة أحياناً - أصدق من أفواه لا تدري، وآمن من تقليد أعشى لا يسأل؛ فحين ترى بنفسك ما سمعت عنه أو تسمع بأذنك ما حُكي لك تكون قد بدأت تخرج من كهف الظن إلى عتبة اليقين الحسي.

ثم يشير الغزالي كمن يفتح بوابة السر إلى أن وراء الحواس عقلاً يُفتش، ويحاكم، وقيس، ويُركّب البراهين؛ فالحاسة وحدها قد تخدع، لكن العقل هو الذي يُميّز الوهم من الصورة، والظلّ من الشيء، وفي العقل تبدأ المعرفة في التشكل بوصفها نظاماً يهندس المعنى، ويجعل من الفوضى مشهداً يمكن الإمساك به.

إنَّ الإمام الغزالي وقد خبر العقل حتى منتهاه، يعلم أن وراء العقل نوراً لا يصنعه العقل، بل يُهدى له؛ نوراً لا يُولد من جدلٍ ولا من حواسٍ وإنَّما يُقذف في القلب إلهاماً، كما يُقذف النور في العين فتُبصر، وهنا يبلغ الغزالي القمّة حيث تسقط أدوات الإنسان ليبدأ فعل الله تعالى، وحيث يخرس السؤال ليبدأ الوحي.

ومما يقوله في (المنقذ من الضلال): (فأقبلت بجدِّ بليغٍ أتأمل في المحسوسات، والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهى بي طولُ



التشكك، إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضًا، وأخذ يتسع هذا الشك فيه، فمن أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل، فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، وبعد ساعة تعرف أنه تحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدرج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية، تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار.

هذا وأمثاله من المحسوسات، يحكم فيه حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونّه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضًا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات، التي هي من الأوليات؛ كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثًا وقديمًا، موجودًا معدومًا، واجبا محالًا.

فقلت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقًا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل، لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر، إذا تجلّى كذب العقل في حكمه كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه وعدم تجلّى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته، فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلًا وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورًا، وتخيّل أحوالًا، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا<sup>(١)</sup>.

وهكذا لا يكون العلم عند الإمام الغزالي تراكم معارف مبعثرة، ولا استهلاكًا لأجوبة معلّبة ولكنه رحلة وجودية تبدأ من رعشة السؤال وليس من محض يقين مُدعى.

(١) المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي: ١١٣.



إنَّ أوَّلَ ما يعترف به الإمام الغزالي في مشروعه المعرفي هو هذا القلق السَّامي الذي يسكن السائل الحقيقي، وهذا الشكَّ النبيل الذي يبحث عن أرضٍ صالحة لبناء اليقين، فالسؤال في فكر الغزالي ليس عارضاً منهجياً، ولا مرحلة مؤقتة قبل الاطمئنان، بل هو أصل المسير ومحرك الانبعاث العقلي والروحي معاً؛ إنه الانتباه الأول للروح قبل أن تُدجَّن، وهو الصرخة التي تسبق الهداية، والزلزلة التي تفتح الطريق نحو النور.

لم يخض الإمام الغزالي شكّه فراراً من الحقيقة بل توفّقاً إليها، وسأل ليوظ عقله من سباته الموروث، فغدا السؤال عنده فرضٌ طريقٍ إلى الله تعالى، وليس مجرد حيلة عقلية، ولم يكن سؤاله لعباً فلسفياً ولكنّه كان استغاثة قلبٍ يطلب النجاة من بين ركام الجهل وغرور التقليد.

ومن هنا، تصير قيمة السؤال عند الغزالي تعادل قيمة الخلاص؛ لأنَّ العقل الذي لا يسأل لا يبصر وإن ظنَّ أنه يعلم، والعين التي لا يقلقها العمى لن تشتاق إلى النور؛ لذلك كان السؤال عند الغزالي باب النجاة ومبدأ الهداية ومهبط النور، وكان الصمت عنه موتاً، والتهرب منه خيانة للروح، فالسؤال هو المشكاة التي يُضاء بها القلب، وهو الحدّ الذي يفصل بين عالم المقلّدين وعالم السالّكين؛ فلا يعرف الله تعالى من لم يسأله، ولا يصل إليه من لم يسأل عنه.

ويصل الحال بالإمام الغزالي على ما يذكره القاضي ابن العماد في (شذرات الذهب): (أن القاضي أبا بكر بن العربي قال: رأيت الغزالي في البرية ويده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيت في بغداد يحضر درسه أربعمئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له: يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟ فنظر



إلى شزراً وقال: لما طلع بدر السعادة، في فلك الإرادة " أو قال: في سماء الإرادة "  
وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركت هوى ليلي وسعدى بمنزلي  
وعدت إلى تصحيح أول منزل  
ونادت بي الأشواق: مهلاً فهذه  
منازل من تهوى؛ رويدك فانزل  
غزلت لهم غزلاً دقيقاً؛ فلم أجد  
لغزلي نساجاً؛ فكسرت مغزلي<sup>(١)</sup>

وفي مثالٍ معاصر، نجد المفكر عبد الوهاب المسيري رحمه الله تعالى، لم يكن مهماً لأنه انتقد الحداثة الغربية فحسب بل لأنه طرح في سياق تفنيده لها أسئلة تضرب على عصب الحداثة المكشوف؛ فنراه يقول في مقال نشر قبيل وفاته: (هذه الحداثة المادية رغم جاذبيتها وإنجازاتها، إنما تصدر عن تأكيد زمنية ومكانية ومادية كل شيء، وإخضاع كل شيء - بما في ذلك الإنسان - لعمليات الترشيد العقلاني المادي في إطار معايير عقلانية صارمة.

ويُعد الترشيد في الإطار المادي جوهر التحديث، فهو يعني اختفاء الحدود بين الإنسان والأشياء، وإزاحة الإنسان من مركز الكون ونزع القداسة عنه تماماً. وبدلاً من ثنائية الطبيعة/ الإنسان، يظهر الإنسان الطبيعي الذي هو الإنسان الطبيعي/ المادي، أي ذلك الإنسان الذي يُنظر إليه باعتباره جزءاً لا يتجزأ من المادة؛ ثم يقول: قد أصبح من الضروري تطوير منظومة تحديث إنسانية

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد: ١٣/٤.



إسلامية، منظومة هدفها ليس التقدم المستمر وبلا نهاية وتساعد معدلات الاستهلاك ولا تقوم على أساس ثورة التطلعات المتزايدة، وإنما التوازن مع الذات ومع الطبيعة وتحقيق العدالة الاجتماعية.

منظومة يطورها عقل مسلم متوازن مع ذاته ومع الطبيعة، ولذلك فهو غير نزاع للغزو والسلب، منظومة توازن بين الإنتاجية وقيم العدل، وتوائم بين الحقوق الفردية وحقوق المجتمع. حداثة تجعل الإنسان وتحقيق إمكاناته هي المركز، تركز على الإنسان من حيث هو إنسان، وليس من حيث هو كائن اقتصادي أو جسماني أو طبيعي.

إن المطلوب هو حداثة جديدة تبني العلم والتقنية ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط؛ حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث، حداثة تحترم التعاقد ولا تنسى التراحم<sup>(١)</sup>.

لقد كان المسيري يعيدنا إلى السؤال قبل أن يقترح الجواب، لأن الجواب إذا لم يُبن على سؤالٍ واعٍ، يكون خديعة معرفية، لا حقيقة عقلية.

ومن أخطر ما يمكن أن يحدث لعقل الأمة أن يتقن فنّ الإجابة دون أن يتعلّم شرف السؤال، أن يُدهش الناس بالبيان، دون أن يحفر فيهم الحاجة إلى الفهم، أن يُنتج مئات الأجوبة في الفقه والفكر والعقيدة والسياسة، لكنها تدور حول قشور الأشياء، وتتجاهل جذر المأزق.

(١) حداثة داروينية أم حداثة إنسانية؟، عبد الوهاب المسيري، مقال منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٠/١٠/٢٠٠٩م.



حين نسأل: ما هو العدل؟ ثم نجيب: إعطاء كل ذي حقَّ حَقَّه؛ فقد أجبنا لكن لم نفكر! لأن السؤال الأعمق هو: من الذي يحدد الحق؟ وعلى أيِّ معيار؟ وهل من عدالة بلا حرية؟ وهل العدل في الإجراء أم في الغاية؟

وحين نسأل: ماهي الدولة؟ ثم نجيب: مؤسساتٌ تحفظ الأمن وتحقق التنمية؛ فذاك جوابٌ إداري، لا وجودي، لكن السؤال الحقيقي هو: هل الدولة وسيلة أم غاية؟ وهل يمكن أن تتحوّل من خادم للشعب إلى سيد عليه؟ وهل الدولة ضرورة عقلية أم عقدٌ اجتماعي؟ وهل السلطة مؤقتة أم مقدسة؟ فهذه الأسئلة ومثيلاتها لا تُجيب فقط بل نبني الحضارة، وإنَّ الفرق بين المفكر الحقيقي وبين (المُجيبين) المحترفين، أن الأول يَعود إلى قلب السؤال ويُخضع الجواب للميزان، بينما الثاني يتباهى بلمعان الجواب ولو كان فارغاً في جوهره.

ولذلك فإنَّ كل مشروع فكريّ، وكل نهضة حضارية، لا تُقاس بعدد الكتب ولا غزارة الأجوبة بل تُقاس بنوعية الأسئلة التي تُطرح في أذهان النخبة، وتدور في ضمير الأمة، وتُثار في وجدان الأجيال؛ فإن كانت أسئلةً وجودية، تأسيسية، نقدية، فاعلة؛ فثمَّ وعيٌ حيٌّ وحضارة قادمة، وإن كانت أسئلةً ساذجة، سطحية، شكلية، فذلك دليل أن الأمة تلوك أجوبة الماضي لأنها نسيت كيف تسأل.



## ○ سادساً: المجتمعات التي تقتل السؤال تُميت إمكانات النهوض

ليس ثمّة جناية معرفية أشدّ على الأمم من وأد السؤال في مهد النشوء، لأن السؤال هو التجلي الأول لقدرة الأمة على أن تعي ذاتها، وتُعرّف رسالتها، وتبني نهضتها على صدى الضمير حين يستفيق.

وحين يُخفّت صوت السؤال في المدارس، والمساجد، والمجامع العلمية، وحلقات الحوار، ومؤسسات القرار، فإن المجتمع لا يفقد حيويّته الفكرية فقط ولكنه يفقد مستقبله ذاته، لأنه يتحوّل من كائنٍ حيٍّ يتطوّر بالسؤال، إلى جسدٍ محفوظ بالماء والملح، لا يتعفن ولكنه لا ينبض.

حين تتحوّل المدرسة إلى مصنعٍ لإنتاج الإجابات النموزجية، وليست محرّاباً لإثارة الأسئلة الوجودية، وحين يصبح (المنهج) وثناً لا يُعدّل ولا يُخالف، وحين يُمتحن الطالب بما لقنوه وليس بما فكّر فيه، وحين يُكافأ من يُعيد الجواب دون أن يلمس روحه، وحين تُصبح الجملة الشهيرة: (هذا خارج المقرر) أداة قمع لكل ما يشبه الحياة؛ عندئذٍ لا تُربّي عقلاً مفكراً ولكننا نُعيد إنتاج عقل مقلّد يُحسن النقل ولا يجرؤ على النظر.

والأخطر من ذلك، حين تُغلق المساجد أبوابها أمام السؤال الجريء، وتُخفق المجامع الفكرية بأداب الصمت، وتُجرّم الأسئلة التي تمسّ الموروث، ويُصنّف السائل في خانة الفتنة أو البدعة أو الانحراف، عندها لا يعود الدين مشروع هداية ولكنه يتحوّل إلى طقس محفوظ، وشعيرة مألوفة، ومفردات محفوظة تخلو من حرارة المعنى، ويغدو القرآن نفسه يُتلى بلا أثر، ويُحفظ بلا وعي، ويُستظهر بلا حضور.



وفي واقعنا المعرفي والديني تتحوّل المقولة المفترضة إلى يقينٍ مُطلق، بينما تُخفي في باطنها سؤالاً موجعاً لم يُسمح له أن يولد؛ خذ مثلاً تلك العبارة المتكررة في العديد من المجالس والمساجد والمدارس: (الذين يحفظون القرآن لا يُصابون بالخرف)، إنها جملة تُلقى بإعجاب، لكنها في عمقها تنتمي إلى بنية ذهنية ترفض السؤال وتُعلي من سلطة (الإجابة الجاهزة)؛ إذ بمجرد أن تحاول مناقضتها تُتهم بالتشكيك أو قلة الأدب مع النصّ، وكأنّ الجملة آية لا تُمسّ، وليست مقولة بشرية بحاجة إلى تفكيك، والسؤال هنا مشروع وملحّ؛ إذا كان الحفظ وقاية من الخرف، فكيف خرف كثيرون من حفظة القرآن؟!

إنّ الدين حين يُفصل عن السؤال يصبح عادة لا عبادة، وحين يُحتزل إلى طقوس يُصبح صالحاً للعرض وليس للتغيير، وحين يُقدّم بوصفه (نهاية المعرفة) يُنتج أتباعاً لا مؤمنين، ووعاظاً لا شهوداً، ومؤسساتٍ تحرس الموجود ولكنها لا تُبشّر بالغياب.

إنّ الأمة التي تعلق نوافذ السؤال بحجة (الفتنة)، أو تقمعه باسم (الثوابت)، أو تستهزئ به وتسميه (تشغيباً فلسفياً)، إنما تقتل في أبنائها قدرة الفهم، وتُعدم فيهم ملكة النقد، وتستبدل باليقين المشرّع على أفق الفكر يقيناً مُعلّباً مهوراً بختم التلقين.

فلا عجب بعد ذلك أن تتكرر الأخطاء، وتعود الأزمات، وتُستنسخ الهزائم، لأنّ من لم يسأل لماذا سقط لن يعرف كيف ينهض، ومن لم يتأمل جذور أزمته سيعيش حياته كلّها يُبدّل الأغصان ويبقي على التسوّس في الجذع والعفن في الجذر.



وإنك لتستطيع أن تقيس حالة أي مجتمع بصدق بعيداً عن عبر مؤشرات الاقتصاد أو العمران بسؤال واحد: ما هو السؤال الذي يُعدّ محظوراً في هذا المجتمع؟ فإن وُجدت قائمة طويلة من الأسئلة الممنوعة، فاعلم أن الحرية غائبة، والفكر مشلول، والدين مُؤمّم، والتعليم خادماً للطاعة لا للفهم.

وإن أردت أن تعرف مستوى نضج الأمة فلا تسأل عن إجابات علمائها ولكن استعرض الأسئلة التي يسمحون بها وتلك التي يتبرمون منها ولا يسمحون بها بين أيديهم، لأن حرية السؤال هي أول أمانة على الوعي، وبوابة النهضة، وبذرة الرسالة.

فالسؤال لم يكن يوماً خصم الدين ولكنه كان على طول الخطّ دليلاً؛ وهو كذلك ليس تهديداً للاستقرار وإنما هو تصحيح لمساره؛ وليس طعنًا في التراث بل هو الوفاء الحقيقي لروحه، والمجتمع الذي لا يسأل يُعيد كتابة موته كل يوم في صورة إجابات محفوظة، تنام فوقها العقول مطمئنة، وتُدفن تحتها النهضة قبل أن تُولد.

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

## لماذا السؤال؟



حين يولد الإنسان فإنه لا يولد كاملاً ولكنه يولد قابلاً للاكتمال، وحين ينظر بعينه لا يرى كل شيء ولكنه يشعر بأن شيئاً ما ينقصه، وأن في الوجود فراغاً لا يملؤه الوصف، وأن في القلب عطشاً لا يرويه الخبر، وأن في العقل صمتاً لا يقطعه إلا سؤال.

السؤال وثبة الروح في وجه الغفلة، وإعلان تمرد الإنسان على المؤلف الذي لا يقدم البراهين، والموروث الذي لا يفسر علته، والجواب الذي لا يحفز على ولادة سؤال جديد.

في هذا المحور لن نقدّم مديحاً مجانياً للسؤال ولكننا سنكشف عن جوهره النبوي في صناعة الذات، وسنبين كيف أن السؤال ليس طريقة في الكلام وإنما هو طريقة في صياغة الذات.

إنّ السؤال لا يطلب الجواب فقط لكنه في جوهره يطلبنا نحن؛ يريد أن يعيد تشكيلنا على صورة الباحث المتعافي من التلقين الهش، وعلى هيئة المتأمل العميق، وعلى مثال الإنسان الذي اختار أن يخطو نحو النور بدل أن يرث عتمة غيره.



## ٥ أولًا: السؤال إعلان للذات في وجه النسق

لا يمكننا اعتبار كل الأسئلة مجرد محاولات لفهم ما هو مجهول، ولا هي كذلك دائمًا تعبير بريء عن رغبة في التعلم؛ بل إن السؤال في كثير من الأحيان يكون فعلًا احتجاجيًا عميقًا، وصيغة تمرد رمزي على المنظومة المهيمنة، وإعلان وجود في وجه الطغيان المعرفي الذي يصوغ العقول كما تُصاغ البضائع في خطوط الإنتاج.

السؤال حين ينبثق من أعماق الذات، لا يُشبه الاستفهام البسيط الذي يُطرح في قاعة الصف ولكنه يُشبه الصرخة الأولى للمولود الجديد؛ تلك التي تعلن للعالم أن كائنًا جديدًا وُلد ليس من أجل أن يواصل ما بدأه الآخرون ولكن ليعيد ترتيب العالم على طريقته.

ففي لحظة السؤال لا يبحث الإنسان عن إجابة وحسب وإنما يسترد سيادته على زاوية الرؤية، ويطالب بحقه في أن ينظر ببصيرته الخاصة وليس بعين الجماعة، وأن يرفض الوصفة الجاهزة للحياة، ويفتش عن حقيقته بنفسه في صراع المعنى وليس في كتب المناهج.

إن أخطر ما تواجهه الذات المفكرة في المجتمعات المغلقة ليس الجهل وإنما النسق المغلق؛ ذلك النظام الفكري الثقافي الذي يحتكر الحق، ويُقصي الأسئلة، ويُزيّف التاريخ، ويؤمّم الدين، ويصوغ الإجابات قبل أن تتكوّن الأسئلة.

وفي هذا السياق يتحوّل السؤال إلى معول يهدم الجدران الخرساء التي بُنيت من المسلمات، وإلى سهمٍ يخترق عباءة (الإجماع الموهوم)، وإلى صاعقة تُربك المطمئنين إلى تكرار ما قاله الأوتل دون فحص، وإلى نافذة يطلّ منها الإنسان



على ذاته التي سُرقت منه حين قرروا أن يُفكروا عنه، ويخافوا بدلاً منه، ويقرّروا مصيره بذريعة (المصلحة العليا)، أو (الاعتدال)، أو (الرؤية التاريخية).

تأمل معي كيف تُصنع السلطة المعرفية في العالم الحديث؛ ففي عام ١٩٧٣م، ألغت الجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين تصنيف المثلية الجنسية باعتبارها اضطراباً نفسياً<sup>(١)</sup>، ولم يكن ذلك بناءً على اكتشاف بيولوجي، ولا نتيجة برهانٍ علمي جديد، بل كان نتيجة تحولاتٍ أيديولوجية، وضغوطٍ ثقافية، وتغييراتٍ في (زاوية النظر)، فتحول الموقف من (المرض) إلى (الهوية)، ثم من (الهوية) إلى (الحق)، ثم من (الحق) إلى (مقدس لا يُناقش).

وهكذا، لم يكن تغيير التصنيف الطبي نتيجة تطورٍ علميٍّ ولكنه تغيير نتيجة إعادة تعريف الإنسان من داخل النسق لا من خارجه، ومن ثمّ فإنّ كل من يسأل اليوم: (هل المثلية اضطراب؟) لا يُجاب عليه علمياً ولكنه على الفور يُتهم أخلاقياً، ويُحاصر سياسياً، ويُشيطن إعلامياً، لأنّ السؤال ذاته تم إخراجه من حيز العقل إلى حيز المحرّم، ولم يعد مسموحاً بطرحه لأنه ينتمي إلى خارج النسق الجديد.

ولك أن تنظر إلى مشهدٍ آخر أكثر اقتراباً من سياقنا: في إحدى أعراس الجامعات العربية، وقف طالبٌ شاب في ندوة تاريخية وسأل بهدوء: (لماذا ندرس الاستعمار الفرنسي بوصفه عصرًا من التحديث والتنوير، دون أن نعالج آثاره الكارثية على الذات العربية، من تهيمش اللغة، إلى سحق الوعي، إلى تصنيع النخب التابعة؟) لم يُجبه أحد بل قوبل بالسخرية، وأتهم بالخطاب المتأخر والمتخلف وبأنه لم يرقّ بعد إلى حدّاتة النظر).

(١) خارج الدليل التشخيصي والإحصائي؛ إزالة الطابع المرضي عن المثلية الجنسية، جاك دريشر، مجلة العلوم السلوكية، العدد ٥٤ / ٥٦٥-٥٧٥.



لكن ذلك الطالب في تلك اللحظة لم يكن يمارس حُسن الاستفهام، ولكنه كان يعلن استقلاله الرمزي عن التاريخ الذي كُتب بأقلام الغزاة، ويطالب بحقه في أن يعيد النظر في الذاكرة، لقد كان سؤاله تمريناً على التحرر، وممارسة للسيادة الفكرية، ورفضاً للهيمنة الرمزية التي تستبطن الاستعمار وتُجمّله.

إنّ السؤال في مثل هذه السياقات لا يُطلب منه أن يصل إلى (جواب مقنع)، ولكن يُطلب منه أن ينكأ جرح الغفلة، ويوقظ الخدر المعرفي، ويفضح هشاشة الإجماع الذي لم يُبين إلا على صمت الأسئلة.

ولهذا فإن المجتمعات التي يُقمع فيها السؤال الجاد، وتُهمَّش فيها الأسئلة التي تخالف زاوية الرؤية الرسمية، هي مجتمعات لا تُنتج فكراً، ولا تصنع وعياً، ولا تُراكم معرفة، ولكنها - للأسف - تُعيد إنتاج ذاتها في نسخة مشوهة، وتبني مؤسساتها على تواطؤ الصمت، وتُعلّم أبنائها كيف يكونون نسخاً مكرّرة لا حرية فيها.

السؤال هو لحظة الشجاعة التي يخرج فيها الإنسان من نسقٍ لم يختره، هو بيان الاستقلال الفكريّ الأول، هو إعلان أنّي أنا الذي أفكر لا غيري؛ فإن قُمع السؤال خنق الإنسان وهو حيّ، وإن أُطلق السؤال تنفّس العقل، ونبتت فيه نُطفة الوعي الحضاريّ الأول.



## ○ ثانيًا: السؤال هو لحظة الانفجار المعرفي والتحوّلات الذاتية

ثمّة لحظات في مسار العمر ليست كسائر اللحظات؛ لحظات لا تُقاس بالساعة ولا تُقارن بالعمر، بل تنفجر في داخل الذات كما تنفجر القصيدة الشرسية في وجدان الشاعر، فتزلزل البنيان لتكشف ما فيه من الشقوق، وتُعيد ترميمه على أساس أكثر صدقًا، وأشدّ رسوخًا.

السؤال في هذه اللحظات يتحوّل إلى زلزال داخليّ يُزعزع النسق الذي تربّى عليه الإنسان، ويهدم السياج الذي أحاط به نفسه لسنوات طويلة من الطمأنينة، ثمّ يفتح أمامه بابًا إلى أفقٍ كان مغلقًا، وإلى عالمٍ لم يكن مرئيًّا من قبل.

هذه اللحظة أزمة معرفية كاملة، يتداعى فيها كل ما بدا أنه ثابت، ويمتزّ فيها (المسلمّ به في العقل الجمعي)، و(المُجمَع عليه في المؤسسة)، و(المكتوب في المنهج)، و(المتفق عليه بين الناس).

وهذه الأزمة - وإن بدت مزلّلة - إلا أنها ضرورية لنضج الوعي، لأن الوعي لا ينمو في أحضان الإجابات السهلة وإنّما في محن الأسئلة الصعبة، ولا يتوسّع في اليقين الوراثي ولكن في شكٍّ مؤمن يطلب الدليل، ويشتاق إلى الحقّ وليس إلى الراحة.

لقد مرّ بهذه اللحظة كبار المجدّدين والمفكرين في تاريخ الفكر الإسلامي؛ فالإمام الغزالي حين كتب (المنقذ من الضلال)، لم يكن يروي سيرة باحثٍ عن معلومات بل سيرة رجلٍ تفجّرت في داخله أسئلة وجودية مزلّلة، ثمّ قرر أن يخوض الشكّ ليس هروبًا من الدين بل فرارًا إليه، فهدم داخله صرح الإجابات الموروثة، فلم يكن الشكّ عنده نهاية، إنّما كان الوسيلة الوحيدة لتجاوز التقليد



إلى اليقين المبني على برهان، والعبادة المبنية على بصيرة، فهذا هو يتحدث عن سبب تأليفه الكتاب قائلاً: (فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أثبت إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخرًا من طريقة التصوف، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما ردني إلى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة، فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك)<sup>(١)</sup>.

ولم تكن هذه التحولات المعرفية حكرًا على الفلاسفة والمفكرين ولكنها قدرٌ للروح الصادقة التي تطلب المعنى.

أنت، أنا، كل إنسان مرّ بلحظة جلس فيها وحده، وأغلق عليه الباب، وسأل سؤالاً مُفزعاً مثل: هل أوّمن حقاً؟ أم أني أُلدّ؟ هل أفهم ديني؟ أم أردّد ما قيل لي؟ هل أنا منتمٍ لأمتي؟ أم مُستلب في أعماقي؟ هل أنا صادق مع نفسي؟ أم أمثّل دوراً أعجب به؟

تلك اللحظة التي ينشقّ فيها الوعي عن ذاته، ويرى الإنسان نفسه من خارج ذاته، لحظة العُري الفكري، حيث لا يبقى سوى صوت السؤال، وتبدأ رحلة جديدة تُبنى على الصدق لا على التكرار.

(١) المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي: ٣.



وكل مجتمع يمنع أفراده من أن يمرّوا بهذه اللحظات، أو يُسكت أسئلتهم عند عتبة الشكّ، فهو يمنع عنهم الولادة الحقيقية، ويقيهم في رحم الإجابات المعلّبة، لا يُخرجهم إلى نور الذات، بينما المجتمعات الحيّة تُربي أبناءها على أن لحظة انهيار القوالب ليست لحظة كفرٍ أو ضياع ولكنّها لحظة بحث، ولادة، يقظة، عبور من ظلمة الاتّباع إلى نور السؤال.

فالسؤال في هذه اللحظة يغدو معولاً يهدّم الزيف، ويفتح النفق نحو الذات، وهو الصاعقة التي تُحرق الغابة القديمة لتُفسح المجال لنبته جديدة، هو اللحظة التي يُخلق فيها الإنسان مرة أخرى من الدهشة وليس من الطين.



## ٥ ثالثاً: من لا يسأل؛ يعيش بعقل غيره.. في الاستعمار الصامت للعقل وطريق التحرر بالسؤال

ثمة أنواع من الاستعمار لا تُمارَس بالجوش ولا بالدبابات، إنما تُبنى في المساحات الأكثر خفاءً؛ مساحات الإدراك، وتشكّل المفاهيم، وتعريف الصّواب، وفهم الدين، وتمييز الحقّ من الباطل.

ذلك أن السكوت عن السؤال لا يورث فقط جهلاً بها نجهل ولكنه يُنتج استعماراً خفياً يسلب الإنسان سيادته على وعيه، ويحوّله إلى كائن يعيش بعقلٍ لم يصنعه، ويرى بعيونٍ لم يختَرها، ويكرّر أفكاراً لم يختبرها، ويُقاتل لأجل مبادئ لم يُمنح يوماً حريّة النظر في أصلها.

في اللحظة التي يكفّ فيها الإنسان عن أن يسأل: (لماذا أو من؟ لماذا أطيع؟ لماذا أتممي؟ لماذا أعارض؟)، يكون قد تنازل عن عقله دون أن يدري، ووقع -دون خبر- على وثيقة التنازل عن سيادته الفكرية لصالح جماعة، أو زعيم، أو شيخ، أو تيار، أو منظومة كبرى قدّمت له (هوية جاهزة) مقابل أن يُسكت صوت السؤال في داخله.

ذلك أن من لا يسأل لا يختار، ومن لا يختار لا يعيش ذاته ولكنه يعيش حياةً أعدت له كما تُعدّ الخريطة للسائح، فيتحرّك ضمن المسارات التي رُسمت له مسبقاً، ويظنّ أنه حرٌّ لأنه يسير بينما هو في الحقيقة يسير في سجنٍ له شكل الطريق.

تأمّل هذا المثال الحيّ الذي يتكرّر كل يوم: شابٌ انخرط -في مطلع مراهقته- في جماعةٍ دعوية، ولم يكن حينها يملك أدوات السؤال، ولا أدوات المقارنة، ولا مسافة التأمل؛ فكبر وهو يردّد شعاراتها، ويُدافع عن رموزها،



ويحفظ أدبياتها، ويجادل خصومها؛ حتى حُيِّلَ له أنه اختار، وأنه عالم، وأنه مجاهد، وأنه على بصيرة.

ثم بلغ الثلاثين من عمره، فداهمه سؤال كالرعد: (هل اخترت هذا الطريق؟ أم جُرُفتُ إليه وأنا أظنه البحر وهو الساقية؟ هل أنا تابعٌ عن وعي؟ أم نسخةٌ كربونية مكرورة؟).

في تلك اللحظة لم يكن يشكُّ في الدين ولكنَّه كان يُطالب بحقه في أن يفهمه، ولم يكن يتمرّد على الجماعة وإنَّما كان يسعى إلى امتلاك نفسه، ولم يكن ناكراً للفضل ولكنَّه كان باحثاً عن الصدق؛ غير أنَّ المجتمع من حوله لم يفهم ذلك فبدأ يجلده بلغة التخوين، واتهام الجحود، والتسفيه، ومع كل خطوةٍ إلى التفكّر كان يخسر صديقاً، ويغلق خلفه باباً، ويتقلّص عالمه الذي كان مأهولاً؛ لكنه كان يعرف أنه -وإن مشى وحيداً- فهو الآن يمشي على قدميه لا على أكتاف غيره.

ذلك أن ثمن التّحرر الفكريّ ليس بسيطاً، فالسؤال الجادّ لا يُربك الأفكار النمطيّة فحسب ولكنَّه يهدّد النّظام بأسره؛ النظام العقائدي الذي تأسّس على قداسةٍ موروثه غير المقدّس الحقيقي، والنظام الاجتماعي الذي لا يشمل المختلف، والنظام التنظيمي الذي لا يعيش إلا على إجماع الأتباع، والنظام النفسي داخل الإنسان ذاته الذي اعتاد الطمأنينة الزائفة وارتعب من دهشة الطريق.

ولهذا؛ فإن المجتمعات التي تُروّج لثقافة (السكينة المعرفية)، والتي تُبارك كل من يحفظ النصّ ويردّد المقولات الكبرى، لكنها تُشهر بكلّ من يسأل عن أصلها، أو مشروعية تفسيرها، أو إمكانية إعادة النظر فيها؛ هي مجتمعات تُنتج الطاعة وتُميت الوعي، وتحوّل العقل من نعمة إلى لعنة، ومن أداة تحرر إلى آلة تكرار.



أما في التصور الإسلامي الحق فإن السؤال لم يكن يوماً خيانهً ولكنه فرض معرفي، والسائل ليس عاصياً وإنما هو أول العابدين إن صدق قصده، وقد ابتدأ الوحي بـ (اقرأ) لا بـ (احفظ)، وأكثر ما في القرآن من الأوامر هو: (أفلا تعقلون؟ أفلا تتفكرون؟ أفلا يتدبرون؟) أي أن الله تعالى يريد منك أن تفعل وجودك لا أن تسلمه لمدوبٍ يوقع باسمك.

والذين يريدون من الناس أن يحبوا الله تعالى دون أن يسألوا عن صفاته، ويطيعوا الحاكم دون أن يسألوا عن شرعيته، ويتبنوا خطاباً دون أن يسألوا عن أصوله، إنما يحبون القطيع لا الإنسان، ويُقدسون الانقياد ولا يقدرسون الإيمان، ويُحاربون السؤال لأنه يفقدهم جمهورهم وليس لأنه يفقدهم الحق، فمن لا يسأل يعيش بعقل غيره، ومن عاش بعقل غيره، فإذا مات ذلك (الغير) مات هو معه دون أن يدفن.



## ⦿ رابعًا: السؤال يُحرّر من الاستعباد الرمزيّ.. في دور السؤال في تفكيك البنية الرمزية للسلطة

السلطة -على اختلاف أشكالها- في جوهرها ليست قمعًا ماديًا فحسب، ولا هي سطوة أجهزة أمنية أو أدوات قانونية أو أدوات الردع التقليدية كذلك؛ ولكنها -في أعماقها الأشد خطورة- هالة رمزية كبرى تُبنى في العقل الجمعيّ، وتتغلغل في اللاوعي الجمعيّ، وتُحوّل رموزًا بشرية إلى شبه مقدّسات، وتجعل من التاريخ أسطورةً لا يُمسّس، ومن الزعيم أيقونة لا تُسأل ولا تُحاكم، ومن الشعارات أبوابًا موصدة في وجه السؤال.

وفي هذا السياق الرمزيّ لا تخشى الأنظمة السلطوية من البنادق كما تخشى من السؤال؛ لأنّ البندقية تُهدّد الجسد لكن السؤال يهدّد الشرعية ويفكّك السردية، وينخر في البنية المقدسة التي صنعت لحراسة النسق.

فحين يسأل أحدهم بكل بساطة: (من كتب هذا التاريخ؟)، و(من قال إنّ هذه الحرب كانت نصرًا؟)، و(من منح هذا الزعيم لقب الحكيم؟)، و(من قال إنّنا بخير؟)، فإنه لا يطرح استفهامًا بريئًا، ولكنه يُقوّض الجدران المعنوية التي أقيمت لحماية السلطة، ويُعيد تعريف العلاقة بين الناس والحكم، بين الرمز والمساءلة، بين السرد الرسميّ وحقيقة الوجدان الشعبيّ.

والقرآن الكريم -وهو أصدق النصوص في فضح العطب الذاتي- يعبر عن هذا المأزق بلغة مذهلة حين يقول: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] في لحظة كان الجميع يبحث عن شائعةٍ للهزيمة، وعن تبرير يُعلّق عليه عجزه، جاء السؤال القرآنيّ لا ليواسي ويطبّط على الجراح وإنّما ليُحرر الفكرة: (أنّي



هذا؟) سؤال يشقّ الجدار، والجواب ليس في الخارج ولكنّه في الداخل: (هو من عند أنفسكم).

ليقول لنا: إنّ الهزيمة تبدأ من لحظة تعطيل السؤال، وإنّ الحرية لا تبدأ من رفض الطغاة ولكنّها تبدأ من مساءلة ذواتنا: كيف سكتنا؟ كيف عبدنا الرمز؟ كيف بلعنا الخدعة؟

تأمل معي هذا المثال الواقعيّ: في أحد البرامج الإذاعية الرسمية - حيث تُعرض (إنجازات الدولة) - اتّصل مستمع عاديّ وسأل بصوت هادئ: (إذا كنا نعيش في ظلّ إنجازات عظيمة كما تقولون، فلماذا يهاجر شبابنا؟ ولماذا تمتلئ قوارب الموت بمن يهرب من هذا المجد؟) لم يحتل النظام السؤال فُقطع البثّ، وأُغلق الخط، وانتهت الحلقة لكنّ السؤال لم يُقطع؛ بل بدأ يتردّد في العقول، ويتموضع في الضمائر، يتسلّل إلى القلوب كالماء، ويُربك خطاب (الإنجاز)، و(المجد)، و(الزعيم الملهم).

لأنّ السؤال - وإن بدا بسيطاً - فهو قبلة رمزية، تُفجّر اللّغة، وتُعيد توازن المعنى، وتُربك الزيف الذي بُني على وهم الإجماع.

وهذا هو جوهر الصراع دائماً بين الطغيان والسؤال؛ السؤال لا يحمل سلاحاً، لكنه يسحب السلاح المعنويّ من يد الطاغية؛ يُسقط عنه شرعية الصورة، ويُزيل طلاء المجد الكاذب، ويُجرّده من عباءة المعصوم، ويُعيده إلى حجمه الحقيقيّ؛ إنساناً يجوز عليه الخطأ، ويجوز للشعب أن يسأله: (لماذا؟ وكيف؟ ومن أنت؟).

ولهذا فإنّ السؤال هو أوّل خطوة في طريق التحرر من الاستعباد الرمزيّ، لأنّ الطغاة لا يُعبدون بقوة القهر وإنّما بقوة التصفيق والتبرير، وتكرار الجُمْل المُعلّبة، وتداول المقولات التي تحوّلت إلى مسلّمات، وحين يأتي السؤال يُصبح



العقل فجأة غير متواطئ، ويبدأ في مراجعة الأسماء؛ هل هذا انتصار؟ هل هذا بطل؟ هل هذا وطني؟ هل هذا هو الدين؟ هل هذا هو الحق أم زخرف القول؟ السؤال لا يقتل الطاغية لكنه يقتل صورة الطاغية، ولا يُقضي الاستعمار لكنه يُحطم رموزه داخل النفس، ولا يمنع الكذب لكنه يمنع أن يُكرّر الكذب على لساننا نحن.

فإذا أردت أن تكون حرّاً فاسأل، وإذا أردت أن تُحرّر غيرك فحرّضه على أن يسأل، وإذا رأيت مجتمعاً يحتفل بالأجوبة ولا يحتفل سؤلاً عن الزعيم أو التاريخ أو النصّ أو اللغة؛ فادفن فيه الحرية، لأنها قد ماتت منذ أول سؤالٍ قطع بثّه، وأول عقلٍ أُغلق فمه.



## ٥ خامسًا: السؤال أداة تنقيب الذات عن حقيقتها.. عن المسألة الداخلية وولادة الإيمان الحرّ

بعض الأسئلة لا تُقال ولا تُعلن ولا تُطرح ليسمعها الناس ولكنها تُنقش في جدار القلب، ولا تُخرج من الفم وإنما تتسرّب من صمت عميق ومن لحظة اختناق روحيّ، ومن ومضة خاطفة توقظ الإنسان من نومه المعرفيّ الطويل.

هذا هو (السؤال الدّاتي)، السؤال الذي لا تُطلب به معلومة، ولا يُتظر له جوابٌ خارجيّ، ولكنه رعدةٌ في داخل الوعي، يُطلّ بها الإنسان على ذاته، ولا يسأل فيها عن الأشياء وإنما يسأل عن (لماذا أنا هكذا؟ وما الذي فقدته وأنا أظن أنّي أربح؟) هو سؤال لا يُرفع على منبر، ولا يُدوّن في ورقة امتحان ولكنه يُهمس في جوف القلب، حيث تتشقق القشرة الصّلبة للطّمأنينة المزيفة، ويبدأ الانفصال عن السّطح، والغوص في أعماق الذات بحثًا عن حقيقتها المنسيّة.

ذلك أنّ الإنسان لا يُولد مرّة واحدة وإنما يولد من جديد كلما سأل نفسه سؤالاً يخلخل به ثوابته الوهميّة الموروثة، وكلما اهتزّ في داخله يقينٌ كان يظنه راسخًا، وكلما أدار عينيه إلى داخله بدل أن يسافر في خارج يُبعده عن نفسه.

تأمّل هذا المشهد المذهل: الأمير بشر بن الحارث، الذي كان منغمسًا في اللّهُو، فاجتاز بهم رجل من الصّالحين ودقّ الباب فخرجت إليه جارية فقال لها: (صاحب هذه الدار حرّ أو عبد؟ فقالت: بل حرّ!) فلم يكن في السؤال فتوى، ولا نصيحة، ولا موعظة، كان سؤالًا واحدًا - لا أكثر - زلزل به الله تعالى جبل الغفلة الذي تراكم في قلب بشر، فلم يحتمل أن يبقى كما هو، فخرج من قصره، حافيًا، باكيًا، يُفتش عن حرّيته، ولم يكن يفتش عنها في السوق ولكن في قلبه،



حتى لحقه فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم؛ قال: أعد علي الكلام؛ فأعاده عليه، فمرغ بشر خدييه على الأرض وقال: بل عبد! عبد!<sup>(١)</sup>.

ولم يكن الحفاء مظهرًا ولكنّه كان علامة على أنه قرر أن يخلع النعل الذي لبسه من هوى الناس، وأن يمشي إلى الله تعالى حافي القلب، حرّ العقل، سائلًا بإخلاص لا يعرف المواربة؛ فصار بعدها الإمام بشر الحافي.

وفي زمننا قد يُقال السّؤال بنفس الصوت لكن روحه تتكرر كل يوم في صورة فتاة تجلس في غرفتها، تكفّ عن القراءة، عن التلاوة، عن المجادلة، عن حضور الندوات؛ وتفتح دفترًا وتكتب سائلة: (هل أنا أعرف الله تعالى؟ أم أعرف صورة صاغها لي أبي وأمي؟ هل أحبه؟ أم أو من به لأنهم قالوا لي أن أفعل؟ هل صلاتي له أم لهم؟ هل حجاب روحي صادق؟ أم ورقة تقييم اجتماعي؟ هل أنا في طريقي إليه أم في طريق يشبهه؟).

ذاك السّؤال المدوّن بحبر الحيرة هو لحظة الولادة الكبرى، لأن الإنسان بدأ يدرك أنه لا يعرف، بدأ يُكفّ عن (تمثيل الإيمان)، وبدأ يريد الإيمان من داخله لا من جدران بيته، وهنا يبدأ التحوّل من الإيمان الوراثي إلى الإيمان الحرّ، من الدين العرقيّ إلى الدين الحيّ، من الطاعة الجماعية إلى العبودية القلبية.

إنّ أخطر أنواع الغفلة ليست تلك التي تغيب فيها المعرفة ولكنها تلك التي تغيب فيها الدّات تحت ركام من الصّور المفروضة، والطّقوس المكرورة، والشّعارات الموروثة التي تغدو قيدًا على الروح وليست جسورًا إليها، وفي لحظة السؤال الصادق يُقطع هذا الحبل الخفيّ، ويبدأ الإنسان ينقّب عن ذاته كما

(١) كتاب التوابين، ابن قدامة المقدسي: ١٢٩.



يُنقَّب عن الكنز، ويفتش عن الله تعالى في القلب وليس في الخطاب وأصوات  
الواعظين، وفي صدى السكون في الثلث الأخير من الليل الذي يتجلَّى فيه اللهُ  
تعالى على عباده.

وهكذا يصبح السؤال الذاتي أداة حفرٍ داخليٍّ في الروح، وكل من سأل نفسه  
سؤالاً واحداً صادقاً اقترب من الله تعالى أكثر من آلافٍ يُردِّدون الإجابات دون  
أن يسألوا أنفسهم يوماً: (هل أنا حقاً مؤمن؟).



## ٥ سادسًا: السؤال يحوّل القضايا من خارجية إلى وجودية

ثمة لحظة فارقة في حياة الإنسان لا تشبه غيرها، لحظة لا يُولد فيها السؤال من الكتب ولا من الحوارات ولا من الخطاب العام ولكنه يشتعل من احتكاك القلب بالعالم، ومن اصطدام الضمير بخير في الشارع أو مشهد على الشاشة أو جملة في شريط إخباري، فيولد سؤالًا داخليًا لا يهدأ، ولا يُروى، ولا يمكن الالتفاف عليه أو تأجيله.

في تلك اللحظة لا تكون القضية الخارجية مجرد (قضية) تُتناول في نشرات الأخبار، أو تُداول في الملتقيات والبيانات، ولكن القضية تصير وجودًا شخصيًا، ومحنة باطنية، ونداءً كونيًا يوقظ شيئًا خامدًا في عمق الذات.

فما كانت مأساة غزة -مثلًا- لمن سمع بها فقط عدوانًا صهيونيًا أو مجزرةً أو أزمة إنسانية ولكنها لمن سأل السؤال الحق امتحانًا للمعنى الشخصي؛ من أنا إن لم أتحرك؟ وما ديني إن لم أصرخ؟ لقد تحوّل الدم المسفوك من صورة على شاشة إلى صوت في القلب لا يسكت، وتحوّل الطفل المذبوح من رقم في تقرير إلى شهقة في الضمير لا تُسكتها فتاوى الحكمة ولا أعدار الانشغال.

حين رأيت ذاك المقاتل في غزة يزحف نحو الدبابة المحتلّة وفي يده عبوة ناسفة، لا يفكر كيف يخرج حيًّا وإنما كلّ همّه كيف يكون عبدًا لله تعالى لا لذاته؛ وحين رأيته يقبل العبوة كأنها رسالة، ويحتضن الحديد كأنه يحتضن الأمانة، ويقبل على الموت كأنه عرس للحياة، ثم سمعته يصرخ من عمق الوجدان: (اللهم استعملني ولا تستبدلني)؛ فلم يكن يعلن بطولته ولكنه كان يعلن خوفه، ولم يكن يُباهي بشجاعته ولكنه كان يرتجف من أن يسلبه الله تعالى شرف المشاركة.



فإذا كان هذا الذي يمتكّ بالموت وينغمس في الدّم، ويُطوّق الدّبابة من كل اتّجاه، اذا كان هذا هو الذي يخشى أن يُستبدل؛ فما الذي عليّ أن أخشاه أنا وقد لبست قميص الراحة وتوسّدت العافية وتلحّفت الصّمت باسم الحكمة وعلّقت عجز يدي على مشجب الدعاء؟!

ما الذي عليّ أن أخشاه أنا، إن لم أكن أخشى أن يُقال لي يوماً: (اذهب؛ فقد استبدلت)، وما الذي سيبقى من قيمتي إن تحوّلت إلى (زائد عن الحاجة) في معركة كانت تنتظر إقدامي وفعلي أو صوتي أو قلمي أو موقفي أو موقعي؛ لكنني آثرت الفرجة؟ أو عقلت المعنى حتى صارت اللّغة عذراً؟ أو سكتت عن المذبحة باسم الاتزان؟

ذاك السّؤال الذي تفجّر في صدره وهو على حافة الفداء والموت: (هل أنا مستعمل؟ أم أنا مستبدل؟) هو سؤال يُفجّر في صدري أنا ألف سؤال: إن لم أكن على ثغرة؛ فأين أفف؟

إن لم أكن في المعركة؛ فأين أكون؟ وإن لم يُسجّل اسمي في قافلة النّصرة؛ فهل يُكتب في دفتر الخذلان؟ إن لم أُستعمل لله تعالى فهل أُستعمل لغيره؟ وإن كنت أكتفي بالنظر فهل عيناى شاهدة لي أم شاهدة عليّ؟ وإن كنت أكثر الدعاء فهل كنت حقاً أَدعو أم أتهرّب من الفعل باسم التضرّع؟ هذه الأسئلة هي أسئلة كونيّة، فجزتها صرخة رجلٍ يُقاوم، ليستقرّ في قلوب الذين لم يذهبوا، ولم يتكلموا، ولم يتحرّكوا.

إنّ الاستبدال لا يقع فجأةً ولكنه يبدأ حين لا نرتجف من أن نستبدل، حين لا نغار أن يُؤخَذ غيرنا ونحن أحياء، حين نرضى أن يكون (فلان) على الخطّ الأماميّ، ونحن في الخلف نكتفي بالتعليق: ما شاء الله، ما أروع الرّجولة!



هنا بالضبط يفصل اللامبالون عن الصادقين، والذين يرون المجازر أخباراً عن الذين يرونها سؤالاً موجهاً إلى ضميرهم؛ ماذا سأفعل؟ ما دوري؟ هل سأبقى محللاً؟ محزناً؟ مُستنكراً؟ أم سأكون شيئاً فاعلاً في هذا العالم؟

ذلك أن السؤال حين يشتعل من الداخل لا يعود مطروحاً على الورق ولكنه يتحوّل إلى حركة واختيار ومسار، فلا يعود الإنسان بعدها هو ذاته لأنه رأى أن معاناة الآخرين ليست أزمة (الآخرين) ولكنه رآها جزءاً من امتحان هويته الشخصية؛ هل أنا من حزب الحق حقاً؟ هل أنا مؤمن أم مجرد مُعجَب بالله تعالى ومعينته لهم؟

والفارق بين هذا المستوى من السؤال وبين المستويات الخطائية أو المعلوماتية؛ أن الأول لا يبحث عن فهم وإنما يبحث عن وظيفة في الكون، أن الأول لا يقول: (ما الذي يحدث؟)، بل يقول: (ماذا أفعل؟ ومن أكون؟) وهنا يكمن عمق الرؤية الإسلامية للسؤال؛ أن الحق لا يُعرف ببيان ولكنه يُعرف بموقف، وأنك حين تسأل عن القضية فأنت تسأل عن نفسك.

المظلومون لا يُرسلون إليك أخبارهم ليستدرّوا تعاطفك، وإنما ليختبروك وليروا هل فيك بقية من إنسان؟ هل فيك بقية من نداء النبوة؟ هل فيك قلب ما زال ينبض إذا رأى ظلماً؟

السؤال إذن لا يُحوّل المأساة إلى مأساة شخصية ولكنه يحوّلها إلى إعلان بعثٍ داخليٍّ، يبدأ حين ندرك أن المعارك الكبرى لا تجري فقط في فلسطين في غزة والضفة الغربية أو بورما أو تركستان أو السودان أو سوريا؛ وإنما في داخلنا؛ فهل بقينا على قيد الضمير؟



## ٥ سابعًا: الجواب الذي لا يُنبِت سؤالًا قَبْرًا للفكر

لا يُقاس عمق الجواب ببلاغته ولا بجزالة ألفاظه ولا حتى بقوة منطقته وإنما بقدرته على أن يستدرج فيك سؤالًا جديدًا، يوقظك من وهم الاكتفاء، ويُلقِي بك مجددًا في لجة الدهشة؛ فكل جوابٍ لا يُخلف وراءه حركة فكرية، أو توترًا معرفيًا، أو خفقةً داخلية نحو معنى لم يُستكمل؛ هو جواب ميت، مجرد جملة حاسمة في نصٍّ لم يُكتَب بعد، خاتمةٌ وضعت قبل أن يبدأ السؤال.

إن الجواب الذي يُرضي فضولك فقط ويُنهِي قلقك ويُسكت صوت التساؤل في داخلك، قد يُريحك لحظة لكنه يُعطل فيك ذلك الجزء الذي يطلب الله تعالى ويُلاحق المعنى، ويرفض القوالب التي تُشبه الأجوبة أكثر مما تُشبه الحقيقة.

الإنسان لا يكتمل بالإجابات ولكنه يستديم وجوده بالتوتر بين المعلوم والمجهول، بين المعرفة والجهل، بين ما يملك من أدوات وما يدرك أنه لا يملكه، فالذي يطلب المعرفة ليُغلق بها باب التساؤل يُشبه من يجمع الخشب ليبنى حائطًا يُخفي به النور بدل أن يشعل منه قَبَسًا يستهدي به في العتمة.

القراءة الشريفة المثمرة حقًا لا صورةً ليست تلك التي تجلب الطمأنينة ولكنها التي تقلقك، وتخلخل ترتيب أفكارك، وتُشبه الصّاعقة الأولى التي أيقظت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار حين رأى جبريل لأول مرة؛ ذلك أن الوحي نفسه لم يكن جوابًا نهائيًا ولكنه كان بداية السؤال الكوني الأكبر: (اقرأ)، ولكن ماذا أقرأ؟ (باسم ربك)، ولكن من هو ربي؟ (الذي خلق)، ولكن لماذا خلقتني؟ وإلى أين أمضي؟ ومن أنا؟



كل وحي أصيل في حقيقته سؤال، وكل وعيٍ حيٍّ في باطنه دهشة، وكل فكرٍ صادقٍ في جوهره رحلة لا تنتهي نحو الحوافٍ ولكن نحو المركز، نحو ما لم يُفهم بعد، وليس نحو ما أُشبعَ فهمًا.

إنَّ الجواب الذي لا يُربكك ليس جوابًا نافعًا، والجواب الذي يُطمئنك دون أن يدفعك للبحث ليس من الحكمة في شيء، والجواب الذي يُتيقنك واقفًا مكانك فإنه لا يُحقِّق فيك عبودية السؤال ولا إخلاص الطلب، لأن العارف الصادق لا يطلب المعرفة ليتملكها وإنما ليزداد بها عطشًا.

لقد ظنَّ النَّاسُ أن نهاية السؤال تعني بلوغ الحقيقة، لكن الحقيقة الكبرى ليست مكانًا تصل إليه ولكنها مسارٌ لا تتوقف عن سلوكه، حيث كل جواب يولد سؤالًا، وكل سؤالٍ يكشف لك أنك كنت في ظلمة ظننتها نورًا.

فيا أيها الصديق المسك بتلابيب الصفحة: حين تسمع جوابًا جميلًا، بلاغيًا، مقنعًا؛ فلا تُسرِع إلى راحة التصفيق ولكن اسأل نفسك: (وهل بقي في شيء لم يُجِب بعد؟ وهل سكن السؤال أم استتر؟) فإن سكن فربما متَّ فكريًا وأنت تبسّم، وإن استتر فقد بدأت رحلة لا تنتهي، رحلة العقل حين يُحبَّ الله تعالى، ليس لأنه فهم كل شيء ولكن لأنه علم أن فوق كل ذي علمٍ عليم.



## ٥ ثامناً: السؤال معيار الحرّية لا مجرد أداة للمعرفة.. عن العلاقة بين جرأة السؤال وميلاد الذات المفكّرة

الحرّية لا تكون في أن تتكلم ما تريد فحسب ولكنها تتجلى حقاً في أن تجرؤ على أن تسأل، والجرأة لا تكون قبيحاً أن تصرخ وإنّما في أن تهمس بالسؤال في حضرة القيود المعنويّة، وتصرّ على أن تفهم وتتفكر قبل أن تردّد.

إنّ الفكر يبدأ بالسؤال الذي يهزّ صمّت العقل، والمعرفة تبدأ بالدهشة، والحرّية لا تبدأ من المنابر وإنّما من أعماق الذات حين تقرر أن تُعيد النظر فيما قيل لها إنه (ثابت)، أو (نهائي)، أو (قطعي)، أو (مُجمّع عليه)، فتسأل: لماذا؟ كيف؟ أليس هناك وجهٌ آخر؟ أليس في العمق شيء لم يُر بعد؟

في مشهدٍ عميقٍ يُشبه الإلهام الفطري في إحدى المدارس الثانوية، وأثناء درسٍ في (التربية الوطنية)، وقف فتى في الصف العاشر وسأل معلّمه بهدوء: (لماذا لا يُسمح لنا بانتقاد الحاكم؟ أليس إنساناً مثلنا؟).

لم تكن نبرة الفتى غاضبة ولا كانت متمرّدة بالمعنى الساذج ولكنها كانت نبرة مكتومةً بحيرةٍ ناضجة، تُشبه أول تنهيدة لطفل بدأ يرى الجدران بشكلٍ مختلف فلم يرها جدراناً ولكنه رآها قيوداً.

تجمّدت القاعة وارتبك المعلّم لأن السؤال استخرج شيئاً كان قد دفنه في قلبه مذ كان في مثل سنّ الفتى؛ متى آخر مرة خطر بباله أن يشكّ في (الواجب الوطني) حين يصبح صمّتا عن الظلم؟ ومتى مات فيه الطفل الذي كان يسأل؟ ومن الذي خيّطه بالصمّت ثم علّمه أن يعلم الصمّت للجيل الذي بعده؟

كان سؤال الفتى زلزلاً صغيراً لكنه أحدث شقاً في صخر الخضوع، فلم



يكن مجرد استفهام ولكنّه كان بداية تشكّل إنسانٍ جديد لا يقبل أن يُلقن الولاء ولكنّه يريد أن يفهمه.

وفي لحظة خاطفة أدرك الفتى أن العالم ليس كتابًا مغلقًا وأن السكون ليس دائمًا طمأنينة إنّما قد يكون قيدًا ناعمًا يَنحِق السؤال في مهده.

هذا السؤال لم يكن فعل تمرّد ولكنّه كان لحظة ميلاد؛ ميلاد مواطنٍ حقيقيّ وليس مجرد تابع؛ وميلاد عقلٍ لا ببغاء؛ وميلاد كائنٍ لم يعد يُريد أن يعيش مطمئنًا بجهله ولكنّه يريد أن يترعرع قلقًا بمعرفته.

وذلك هو جوهر الحرّيّة؛ أن تُتاح لك مساحة أن تسأل عمّا لم يجزؤ غيرك أن يسأل عنه، وأن تفتح دفاتر الدّين، والسياسة، والهوية، والتاريخ، والنصّ، وأن تقول: أريد أن أفهمه من جديد، وذلك ليس لأنّي أرفضه وإنّما لأنّي أقدره فلا أَرْضى أن أكون فيه نسخةً بلا روح.

والمجتمعات التي تمنع السؤال بحجة الفتنة، أو زعزعة الإيـان، هي في الحقيقة لا تحمي الإيـان وإنّما تسجنه، ولا تصون القيم ولكنها تُخنّطها، ولا تحمي الدّين وإنّما تُحوّله إلى وثنٍ سهل الانهيار.

وإذا كتمنا أسئلة أطفالنا خوفًا عليهم من (الانحراف)، فقد حكمنا عليهم أن ينحرفوا خفية، أو يكملوا حياتهم بأقنعةٍ من الجواب لم يختاروه، وإيـانٍ لم يعرفوا معناه، وطاعةٍ لم يُناقشوا أسبابها.

لكن السؤال حين يُسمَح له أن يُطرح فهو لا يُدسّر الثوابت وإنّما يُطهرها، ويُعيد إليها روحها، ويجعلها قائمة على الفهم وليس على الخوف، وعلى الوعي وليس التكرار، وعلى الإخلاص لا التواطؤ الجماعي.

وهكذا فإن السؤال - في جوهره - أعلى مراتب الحرّيّة، ومن يُخشى سؤاله يُخشى نوره، ومن يُحرّم عليه أن يسأل يُمنع من أن يكون.



## ٥ تاسعاً: السؤال تشكيل العلاقة مع المقدس.. السؤال لا يُمرّق الحجاب ولكنه يُوقظ الحضور

السؤال عن المقدس لا يمكن أن يكون رجساً وكذلك فإن طرق أبوابه ليست جُراًة على المقام وإنما ارتعاشة الروح وهي تتقدم حافيةً نحو المعنى، وارتجافاً العقل حين يستيقظ من سباته ويهمس في حضرة السماء؛ أريد أن أفهم لأنني أريد أن أحبك عن وعي لا وراثة وتقليد.

فالله تعالى لا يغضب من سؤال عبدٍ يُتمش عن وجهه بل يفرح به ويرضى عنه؛ فالسؤال في مقام التقديس ليس نزعاً للهيبة ولكنه طلبٌ قربٍ جديد، يُولد من رحم البعد، ورجفةً صدقٍ في قلبٍ سئم الطقوس الجافة واشتاق لوهج الحضور؛ إنه ارتحالٌ من الجسد إلى القلب، ومن التكرار إلى المعنى، ومن العادة إلى اللقاء.

وليس أصدق في التعبير عن هذه الرحلة من كلمة أبي حامد الغزالي، وهو العارف الذي هجر جاه المنابر إلى كهف القلق، وسلك درب النور من ظلمة الشك: (إن الشكوك هي الموصلة إلى الحقائق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر، ومن لم يُبصر بات في العمى والضلال)<sup>(١)</sup> فالسؤال هنا ليس حفرةً في جدار الإيمان ولكنه نافذةٌ منه تُطل على أفقٍ أوسع من التلقين.

تأمل ذلك الشاب الذي نشأ في بيتٍ يُصلّى فيه كل فرض، كبر والركوع جزء من جسده، والسجود تقليدٌ يُمارس قبل أن يفهم، حتى إذا ما استيقظ ذات ليلة ووجد قلبه ساكناً سأل: (هل الصلاة التي لا تهزني؛ تقربني؟ وهل إياك نعبُد

(١) ميزان العمل، أبو حامد الغزالي: ٤٠٩.



-وأنا غائب- تُرضي وجه الله تعالى؟ هل لقائي به مجرد أداء؟ أم أن ثمّة معنى لم ألمسه بعد؟).

حينها لم يكن يعترض على الصّلاة ولكنّه كان يطلبها من جديد بروحه لا بجسده، فقرأ عن الخشوع، وتأمّل في معاني الفاتحة بوصفها حواراً ونداء، وأعاد النظر إلى السجود باعتباره نقطة تلامس فيها جبهته تراب الأرض وقلبه عرش الرحمة، وهو بهذا السؤال لم يُضعف إيمانه بل أشعل جذوته، ولم يُشكك في ربه ولكنّه تلهّف أن يعرفه على وجهٍ أصدق؛ فالعلاقة مع الله تعالى لا تنضج فقط بتكرار الركعات وإنما حين نجرؤ أن نقول له: (يا رب، علّمني كيف أحبك حقاً، وكيف أصلي وأنا حاضر، وكيف يكون ديني لقاءً حياً، لا نشيداً محفوظاً).

السؤال إذن هو وَجَل المحبّ، وهو صلاةٌ من نوعٍ آخر تُرفع بلا صوت، ويُستجاب لها بلا كلام، والمقدّس في عمقه لا يخاف من النيش بل إنه يستدعيك أن تنقّب وتتفكّر، وتساءل، لتراه أبهى مما قالوه، وأقرب مما ظننت؛ ذلك أن الله تعالى واسع، وليس من وسع رحمته أن يضيق بسؤال عبده عطش.



## عاشراً: السكوت عن السؤال يُورث نفاقاً فكرياً

حين يُمنع السؤال لا تتوقف الأسئلة ولكنها تنتقل إلى تحت الجلد، تتسرب إلى الشرايين، تختبئ في الظلال، وتتكوّر هناك في الداخل، ولا تكون عندها إجابات مؤجلة بل قنابل موقوتة.

الإنسان لا يكفّ عن التساؤل لمجرّد أنه أُسكت ولكنه يبدأ بالتظاهر بالفهم وبالانتماء وبالإيمان بينما قلبه يتمزّق تحت سقف إجاباتٍ لم يخترها، وعقله يتآكل من شهوة الفهم التي صودرت منه باكراً، ووجدانه يرتجف لأنّه أُجبر أن يُردّد ما لم يُدرِك، وأن يُسلّم بما لم يتأمّل، وأن يتبنّى ما لم يسأل عنه يوماً.

وهكذا يُوكّد النفاق الفكريّ، فهو لا يولد من ضعف العقيدة وإنّما من قمع السؤال، ولا يتسرب من غلبة الشك ولكن من الاضطرار إلى الصمت باسم الطاعة والخوف من التفكير باسم الأدب، والترديد القهريّ باسم (العقيدة الصحيحة).

النفاق الذي نتحدّث عنه هنا ليس نفاق السلوك ولكن نفاق القناعات، حيث تنقسم النفس إلى ظاهرٍ مطمئن وباطنٍ يصرخ، ويغدو الإنسان مؤمناً في أعين الناس وممزقاً في داخله، يعيش بنصوص لا يُجِبّها، ويُلقي خطباً لا يؤمن بها، ويشرح متوناً لم يسمح له أحد أن يسأل يوماً عن أصلها أو معناها أو أفتها.

تأمّل هذا المشهد الذي يتكرّر في جامعاتنا ومدارسنا ومحافلنا الدينية: طالب في كلية الشريعة، ذكيّ، نابض، صادقٌ في باطنه، لكن قلبه يعجّ بالأسئلة الوجودية؛ عن الجبر والاختيار، عن الرحمة والعقاب، عن علّة التكليف، عن



الله تعالى ذاته، ولكنه يصمت فيخشى أن يُتهم بالزيغ وأن تُخصم درجاته وأن يُجرّم من التزكية وأن يُطرد من حضرة الطُّهر؛ فيكتم السؤال ويردّد ما يُطلب منه ويكتب ما يرضي لجان الامتحان.

لكنه في كل هذا يفقد شيئاً عميقاً؛ يفقد الحُبَّ المعرفيَّ للنصوص فلا يعود يشعر بالدفء في تلاوة القرآن، ولا بالخضوع في حضرة الفقه، ولا بالإجلال في أبواب العقيدة، ولكن يغدو كل شيء عنده (مادة دراسية) لها نموذجان؛ جواب وسؤال محفوظ.

ويكبر الطالب؛ فيتخرج، ويُدرّس، ويكتب، لكنّه يظلُّ يُطارِد ظلّه، ويُصَلِّي في حرابٍ لا يحضر فيه قلبه، ويخطب عن اليقين وهو لم يذقه، ويكتب عن التسليم وهو ما يزال يبكي سرّاً من سؤالٍ لم يُجبه أحد.

إنّ المأساة في أنه لم يُسَمَح له أن يسأل، وأنّ المؤسسة التي يُفترض أن تقود العقول إلى النور، أجبرته أن يُطْفئ مصباحه الداخلي، وتركته يعيش في صالة (النموذج المثالي) الذي لا يُخطئ ولا يتردّد ولا يقول: لا أفهم.

وهكذا فإنّ منع السؤال عبر رهاب الهيبة لا يُنقذ الإيمان، ولكنه يصنع طبقة من المنافقين فكرياً الذين يعيشون بين الناس كأنهم دُعاة، لكنهم في سرّهم لا يعلمون هل هم مؤمنون حقاً، أم أسرى لما قيل لهم إنّه الإيمان؟

لذلك فإنّ تحرير السؤال ليس ترفاً معرفياً ولكنّه واجبٌ أخلاقيّ، ومشروع نجاة، وطوق صدقٍ يُخرج النفس من شرك الازدواج، ويعيد للعلم نوره، وللإيمان دفئه، وللإنسان ملامحه التي سُرقت منه في زمن الصمت.



## ٥ حادي عشر: السؤال نواة الفقه المقاصدي وبوابة الحياة في النص

لم تكن المقاصد باباً يُطَرَّق بعد اكتمال الفقه بل هي نواته، وروحه، والمعنى الكامن خلف حروفه، والمحرك الذي يُنقذ النص من الجمود، والإنسان من الاختناق داخل قوالب حرفية.

والسؤال في هذا السياق ليس اعتراضاً على النص ولكنه فعل التفكير في علله، وارتقاء من ظاهر القول إلى باطن المعنى ومراد التكليف، ومن شكل الحكم إلى غايته التي أَرادها الله تعالى للناس رحمةً وعدلاً وتكريماً؛ فالنص دون سؤال يُحفظ لكنه لا يُفهم بالضرورة، ويكرّر لكنه لا يُبصر، ويؤدّي كما تُؤدّي الحركات لا كما تُستحضر الغايات.

إنّ الفقه المقاصدي لا يُبنى على الحفظ المجرد وإنّما على السؤال المُلقق: لماذا؟ كيف؟ فيم؟ أليس ثمة علة؟ أليس وراء كل حكم مقصود؟ أليس الدين ما شرع ليُحيي الإنسان؟ أليست الشريعة حملاً من الرحمة لا عبئاً من الأحكام؟ أليس الله تعالى أرحم الراحمين؟ أفيعقل أن تكون الأحكام مقطوعةً عن الواقع الذي تنزل فيه، والإنسان الذي تُوجّه إليه، والغاية التي تتجاوز ظاهر الأمر لتُلامس جوهر الحياة؟

تأمل معي مثلاً واحداً، من عشرات الأمثلة الصارخة: شابةٌ تدرس الاقتصاد تسأل أستاذها في كلية الشريعة: (لماذا يحرم الإسلام الربا؟ أليس الاقتراض بالفائدة وسيلة نافعة أحياناً لتمويل الفقراء أو تطوير المشاريع الصغيرة؟ ألا يمكن أن يكون الربا مفيداً في بعض السياقات؟).



لم يكن سؤالها طعنًا في النصّ ولكنّه كان بحثًا عن حكمته؛ فلم تُرد أن تحرق حرمة الحكم بل أن تدخل روحه، وبهذا السؤال بدأت رحلتها ليس في دراسة الربا فقط وإنما في فكّ شيفرة التصوّر الاقتصادي في الإسلام؛ فقرأت عن العدالة الاجتماعيّة، والكرامة الإنسانيّة، والتكافل الاقتصاديّ، وعرفت أن تحريم الربا ليس لأنّ (الزيادة على القرض ظلمٌ فقط) ولكن لأنّه نظام كامل يُنتج الاستغلال، ويحوّل الإنسان إلى ضحيّة مكرّسة في ماكينّة اقتصادية لا تعترف بحاجة، ولا ترفق بعجز، ولا تزن القرض بمعيار الرحمة وإنما بميزان الأرباح. وهكذا أدركت تلك الشابة - كما يدرك كل من سأل في رحاب المقاصد - أنّ الحكم ليس (كلمة توقيف الحياة)، ولكنّه (معنى يهبها اتجاهًا).

فمن سأل عن علّة الحكم سلك طريق الحبّ لا الخوف، ومن سأل عن مقصده لامس قلب الشريعة لا ظاهرها، ومن سأل بإخلاص لم يقف عند ظاهر (التحليل والتحريم)، وإنما صعد إلى أفق (الغاية والرحمة)، واكتشف أن الشريعة لا تُنزل الحكم على الإنسان لتثقله وإنما لتواكبه، وترافقه، وتدلّه، وتحيطه من جهاته كلّها بعلم ربّ عليمٍ خبيرٍ لا يأمر إلا بما يُصلح.

إنّ أعظم ما قدّمه الفقه المقاصدي ليس استنباط العلل فحسب، وإنما فتح باب السؤال المشروع في رحاب النصّ المقدّس، ولم يكن ذلك بوصفه خروجًا عليه بل تعمقًا فيه.

ذلك أن النصّ لا يُفهم إلا في سياقه، ولا تُسحب أحكامه على الوجوه كلّها قبل أن تسأل: ما الغرض؟ من المستفيد؟ من المتضرر؟ هل تحققت الكرامة؟ هل فُتحت أبواب الرحمة؟ هل اقترب الإنسان من مقصود الخالق فيه؟

ولولا السؤال لما كانت المقاصد، ولولا المقاصد لتحوّلت الشريعة إلى نظام من الأحكام الباردة التي لا تزرع الحياة ولكنها تُصنّع الطاعة الميّتة.



## ٥ ثاني عشر: السؤال هو ما يجعل الدين حيًا في التاريخ

الدين الذي لا يحاكم الواقع ولا يسمح بأن يُسأل ليس دينًا حيًا ولكنه أثر منقوش في متحفٍ مغلق، تُعلِّقه الأجيال كما تُعلِّق الصور القديمة؛ تُبجِّله ولكنها لا تعيشه.

والنصّ الذي يمنع أن يسأل يغدو صنمًا من كلام لا روحًا من وحي؛ فتراه يتضحّ في الوجدان شكليًا لكنه يتآكل من الداخل لأنه لا يتنفّس أسئلة الناس، ولا يُجيب عن قلقهم، ولا يتفاعل مع التحولات التي يعبرونها.

فما الذي يُقي الدين حيًا؟ إنه السؤال؛ السؤال الذي لا يضع النصّ في فقص الاتهام ولكنه يجعله مرجعًا للإجابة عن كل سؤال والطمأنينة من كل قلق والهداية من كل تيه، إنه السؤال الذي لا يُطالب بإسقاط الوحي ولكنه يُطالب أن يفهم في زمانٍ اختلفت تضاريسه، وتبدّلت شخوصه، وتغيّرت أوزان الأشياء فيه؛ فالسؤال هو الحبل السري الذي يربط بين النصّ والحياة، كلما قُطع ضمير النصّ، وتحوّل إلى حروف لا تضيء وأوامر لا تُلهم وشرائع لا يُبتدى بها.

ولنا في التاريخ القريب أمثلة صارخة على كيفية تحوّل الدين إلى طقسٍ أجوف وأداة تناقض الدين ذاته؛ فحين يُعظّم مفهوم (طاعة ولي الأمر) دون أن يُسأل: من هو (الوليّ)؟ وما هو (الأمر)؟ وهل الطاعة تُستمدّ من العدل أم من القوّة؟ وحين تُحرّس أصوات العقلاء بدعوى (درء الفتنة)، دون أن يُسأل: أليس السكوت عن الظلم هو الفتنة؟ وحين يُرفع شعار (الاستقرار) بوصفه قيمة مطلقة دون أن يُسأل: استقرار من؟ الظالم أم المظلوم؟ واستقرار على ماذا؟ على الكرامة أم على الدلّ؟ وحين تُوظّف مفاهيم دينية أصيلة كـ(الصبر) و(القدر)



لتبرير البؤس المزمّن والانهيار الأخلاقي لأنظمةٍ فاسدة دون أن يُسأل: أليس تغيير الظلم من أقدار الله تعالى أيضًا؟ وحين تُستدعى نصوص البيعة لتُجرّم بها المعارضة السياسية، وتُسكّت بها الشعوب دون أن يُسأل: أيُّ بيعة تلك التي تُؤخذ تحت فوهة السلاح، أو في غياب الشورى؟

إنّ كل هذا ليس انحرافًا في توظيف النصّ فحسب ولكنه انطفاءٌ للسؤال، وتعطيلٌ للعقل، واستقالةٌ من قراءة الواقع بأدوات النصّ، ومن تسييل النصّ على واقع لا يشبه النصّ ولا يقبله النصّ ابتداءً.

فحين يُمنع الناس من السؤال تُعبد السلطة، ويُقدّس الظلم باسم النظام، وتتحوّل مفاهيم الدين من محرّكاتٍ للنهضة إلى أقفالٍ على أبواب التغيير.

والذين يُجرّسون السؤال بدعوى الحفاظ على (الثوابت) لا يحمون الدين ولكنهم يحنّطونه؛ ولا يثبتون العقيدة بل يفرغونها من فاعليتها التاريخية؛ لأنّ الدين إذا لم يُسأل يُستعمل أداة للباطل، وإذا لم يُفكّر فيه يُتلاعب به.

إنّ أعظم ما أهداه إلينا القرآن ليس فقط (البيان)، وإنّما (دعوة البيان إلى التبيّن)، وليس فقط (الحُكم) وإنّما (دعوة القلب والعقل إلى إدراك علّة الحُكم) وليس فقط (العقيدة) ولكن (سعة الأسئلة التي تبني العقيدة وتُنضجها وتطهّرها من الوراثة الجاهلة).

ومن تأمّل خطاب القرآن وجده يضحّج بالأسئلة (أفلا تعقلون؟ أفلا يتدبرون؟ أين تذهبون؟ هل يستوي الأعمى والبصير؟ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟) وهذه ليست زخارف بلاغية ولكنها تدريبات معرفية على إحياء النصّ عبر السؤال.



أما القراءة التاريخية الجامدة فهي التي تفصل النصّ عن زمانه الأول، وتمنع عنه زمانه الحاضر، وتُحَنِّطُه في قوالب العصور الماضية ثم تقول: هذا هو الدين! فتحوّل الدين إلى أثرٍ منقوش لا ينبع رِقراق؛ وهكذا تُقتل حياة النصّ باسم حفظه، وتُمنَع عنه الأسئلة باسم حمايته، فيُدفن حيًّا في كتب الشروح والحواشي والمختصرات.

ولكن حين يُستعاد السؤال يعود النص إلى الحياة، وتُصبح آية (الربا) خطابًا لمجتمع يعاني من الفقر والاستغلال، وتُصبح آية (القتال) خطابًا للتحرّر من الظلم لا للعدوان، وتُصبح آية (الحجاب) بحثًا عن الكرامة وليست سجلاً في أطوال القماش، وتُصبح آية (العبودية) نداءً للتحرير لا تبريرًا للاسترقاق. إنَّ السؤال هو روح الوحي؛ ومن قتل السؤال أحال الدين إلى صنمٍ من الحُكْم وليس رسالة من الحياة.



## ◉ ثالث عشر: في السؤال جمال لأنه اعتراف بأن الحقيقة لا تملك

ثمة لحظة يعبر فيها الإنسان من ضفة الظن إلى ضفة التواضع، من وهم التملك إلى يقين الافتقار، وهناك على جسرٍ من الأسئلة المرتجفة يُولد الجمال؛ لا الجمال الذي يُعلّق على جدران اللفظ، وإنما الجمال الذي ينبع من شعورٍ داخليٍّ عميق بأن الحقيقة أكبر من أن تُحاط، وأعظم من أن تُحتزل، وأجلّ من أن تُدرك بعينٍ واحدة أو عقلٍ منفرد.

في السؤال جمال؛ لأنه ينفي الغرور المعرفي، ويعترف أن الفكر البشري مهما علا يبقى على حافة الغيب لا في مركزه.

في السؤال جمال؛ لأنه لا يأتي من الترف الذهني ولكن من حاجة الوجدان إلى معنى، ومن خفقة القلب أمام لغز الوجود، ومن وقفة الروح عند أسئلة لا يُجاب عنها إلا بالصمت.

إن السؤال حين يخرج من قلب صادق لا يكون تطاولاً على الحقيقة ولكنه يغدو توجّهاً نحوها، ولا يكون جرأة بل خشوعاً، ولا يكون تحدياً ولكنه يصبح اعترافاً أن الطريق طويل، وأن ما نملكه من العلم قطرة في بحر كما قال العليم الخبير: ﴿وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

سُئل مفكّر مسلم وقد بلغ من الحكمة عتياً: (ما هي ماهية الله؟)، فأطرق طويلاً، ثم قال:

(كلّما عرفته أكثر سكت أكثر، وكلّما اقتربت أدركت أنني ما زلت بعيداً، الله تعالى لا يُدرك بالعقل وحده بل يسجد له القلب حين يعجز العقل).



ثم أغمض عينيه وسجد؛ تلك السجدة لم تكن خضوعاً لجهل ولكنها كانت خضوعاً لعظمة الحقيقة، ولم تكن يأساً من المعرفة وإنما بلوغاً لأقصى درجاتها؛ أن تعرف أنك لا تملكها ولكنك مأمورٌ بالبحث عنها، وأن تطلبها لتعيشها في طهر القلب، وصدق السلوك، وشفافية السؤال، ومن جميل ما قيل:

العَجْزُ عَنِ الدَّرِكِ الإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ.  
وَالْبُحْثُ عَنِ سِرِّ ذَاتِ السِّرِّ إِشْرَاكٌ.

فكم من متكلم ادعى أنه يملك الحقيقة، فكان جافاً، صاخباً، عنيفاً، وكم من سائل فقير لم يدع شيئاً لكنه كان أقرب إلى النور لأنه سأل من حيث الحاجة وليس من حيث السيطرة.

إنّ الجمال في السؤال أنه يرفض العجلة، وينبذ الغرور، ويعيش الدهشة، أنه يُعيد الإنسان طفلاً بين يدي الله تعالى يسأل ليقرب وليبعد.



# النبي المتسائل

## تجليات النبوة في هيئة سؤال



حين نفتح سيرة إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** فإننا لا نتناول وقائع نبوية ماضية ولكننا نقف بين يدي نموذج معرفي خالد، فهو اتصال بين نبوة نازلة من السماء في لحظة مكتملة وسؤالٍ يضحج من الأرض إلى السماء، لقد كانت نبوته **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** من مهدها رحلةً في الظلام نحو النور فلم يكن إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** حافظاً يردد ولكنّه كان متسائلاً يتأمل؛ وي طرح الشك على السامعين ليهدم باطلاً ثم يبنى حقاً.

وفي زمنٍ مُحرق فيه الأسئلة باسم الإيمان تبدو سيرة الخليل إعلاناً إلهياً عن شرعية السؤال في طريق الوحي، وتأكيداً أنّ النبوة ليست نقيض العقل ولكنها تجلّيه الأصفى حين يُروى بهاء الإخلاص.

لقد علمنا إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أنّ الشك الذي يُولد من صدقٍ هو درب الطمأنينة، وأنّ السؤال ليس اعتراضاً على الله تعالى ولكنّه اقترابٌ منه؛ وأنّ القلب الذي لا يسأل لا يرى.

وهكذا فإننا لا نقرأ قصة إبراهيم في هذا الفصل بوصفها ماضياً مقدّساً طواه الزمن وإنّا باعتبارها منهجاً للوعي وبوصلةً للشباب الحائر؛ أنّك إن أردت اليقين فابدأ بسؤال، وأنك إن كنت صادقاً في سؤالك فستهدى إلى الجواب؛ ولن تجده في كتاب وإنّا في القلب.



## ٥ أولاً: العبور من الظاهر إلى المعنى الوجودي؛ حين سأل إبراهيم عليه السلام عن الإحياء

لم يكن سؤال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن كيفية إحياء الموتى سؤالاً معرفياً فيزيائياً، يُراد منه الإطلاع على بنية الخلق أو على المراحل البيولوجية لتخلُّق الروح في الجسد الميت ولكنه كان سؤالاً وجودياً صرفاً ينفذ من ظاهر الحياة إلى لبّها، ومن مشهد الموت إلى حقيقة البعث ولم يكن ذلك بوصفه حادثاً مستقبلياً تنتظره بل قدرةً حاضرةً تتخلَّل الوجود كله.

لقد سأل إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهو الموقن الذي لا يشكُّ في قدرة ربه تعالى لكنه كمن بلغ الذروة أراد أن يطلَّ من أعلاها على المعنى لا على المنظر؛ فكان سؤاله عبوراً من الإيمان الغيبي إلى المعيشة القلبية، ومن التصديق الذهني إلى التجربة الوجودية.

يقول الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير): (إنَّ إبراهيم لفرط محبَّته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رامَّ الانتقال من العلم النظري البرهاني إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس)<sup>(١)</sup>.

هذا السؤال لا يفهم إلا إذا أدركنا أن المعرفة التي لا تفيض إلى القلب تطلَّ معلّقة في سطح الإدراك، وأنَّ النبوة عبورٌ دائم نحو الحضور الحي للمعنى حتى يصبح الغيب جزءاً من الوعي وليس مجرد معلومة في الذهن.

ولذلك لم يطلب إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُقال له (كيف) بل أن يُريه، لأنَّ

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: ٣٩/٣.



الرؤية هنا ليست بصرية فقط ولكنها رؤية وجودية وطمأنينة شهودية يكتمل بها المعنى، ويستوي بها الإيمان على ساقيه.

لم يكن يريد برهاناً يؤكد القدرة بل نافذة يرى من خلالها كيف يسري سرّ الحياة في العدم، وكيف ينبض الجسد بعدما كان تراباً.

وإنّ في هذا السؤال العظيم تربية للمؤمنين على ألاّ يكتفوا بيقين الوراثة ولا بإيمان التلقين وإنّما أن يتحوّل الإيمان فيهم إلى سفرٍ داخلي، وإلى اشتياقٍ إلى الله تعالى لا يروى إلا بالتجليّ، وأنّ سؤالهم لله تعالى حين يخرج من صدق المحبة لا يُعدّ اعتراضاً بل رغبةً في مزيد من القرب.

لقد أراد إبراهيم أن يرى البعث وذلك ليس من أجل أن يراه حادثه وإنّما ليفهمه قانوناً إلهياً يحكم الزمن والمصير، وطاقه غيبية تسري في كلّ حياة منسيّة، وكلّ شجرة نبتت من رماد، وكل قلب عائد من ذنبه؛ فالذين يظنون البعث وعداً بعيداً يؤجلونه لم يفهموا أنّ السؤال عنه هو سؤال عن معنى الحياة الآن، وعن قيامة القيم، وعن المعجزة التي قد تتجدد كل فجرٍ في صدر العائدين إلى الله تعالى من مواتهم.

وإن كان إبراهيم قد سأل وهو الخليل، فلأنّ النبوة إرشادٌ تطبيقي للحائرين تُحيل حيرتهم إلى طريق، وتحوّل سؤالهم إلى سلّم؛ ولم يكن ذلك للخروج من الإيمان وإنّما للغوص فيه.

وقد أجاب الله تعالى سؤاله تشریفاً، وأراه المشهد لا من أجل أن يريه كيف تُركّب الجوارح ولكن كيف تُنفخ الروح؛ فكان الجواب فعلاً لا قولاً، وكان التجليّ إعلاناً أن الله تعالى يُحبّ من يسأله من عمق الحبّ وليس من سطح الفضول.



إنّ هذا المشهد بكل ما فيه من دهشة وسموّ ما يزال يتكرر في أرواح الصادقين حين يسألون الله تعالى كيف يحييهم بعد الدّنب، وكيف يبعث فيهم الأمل بعد يأس طويل، وكيف يردّ أرواحهم بعدما أماتها التّيّه، وكل من سأل هذا السؤال يوماً، ذاق شيئاً من النّور الإبراهيمي الذي يجعل من الإيمان تجربة حيّة وليس محض حروف محنّطة في الذاكرة.



## ٥ ثانيًا: التحرر من وثنية المألوف بميزان النقد الفطري.. قراءة في سؤال إبراهيم عليه السلام الكوني

لم يكن إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** يحدِّق في السماء بوصفه ناظرًا مندهشًا ولكن بوصفه ناقدًا فطريًا، يُمعن النظر وليس هدفه أن يؤمن بما يرى وإنما أن يفكِّك سلطته الرمزية على قوم اعتادوا أن يقدِّسوا المألوف، وأن يسجدوا لما يبهر البصر ولو كان خاليًا من المعنى.

لم تكن الكواكب في عينه إلا تمثيلًا للتّمويه البصري الذي يُلبس الزيف حُلة الجلال ويمنح المضيء سلطة الألوهية في عقولٍ لم تتدرب على النقد، ولهذا فإن لحظة تأمله في الكوكب ثم القمر ثم الشمس لم تكن لحظة حيرة ولكنها كانت لحظة تمرينٍ عقليٍّ ونقدٍ وجدانيٍّ في أرقى تظاهراته.

لقد خاطبهم إبراهيم بلغتهم لكنه جرّد الأشياء من هالاتها المزيفة؛ فلم يقل (هذا ربي) بوصفه تقريرًا العقيدة بل محاكاةً نقديةً لمسلّمات العقل الجمعي، ثم سرعان ما يعقّب كل مرة بنفيٍ صارخٍ يخرق نسيج اليقين الزائف: (لا أحب الأفلين)، وما أعمق هذه العبارة فهي ليست مجرد رفضٍ لغروب كوكب ولكنها نقدٌ لمفهوم الألوهية المشوّه الذي يقيس القداسة بسطوع الضوء وليس بديمومة الحضور، ويربط الإلهيِّ بالحجم واللّمعان لا بالخلق والهداية.

هذه الرحلة لم تكن هروبًا من المألوف وإنما كانت تفكيكًا لأوهامه، وهي تُشكّل أحد أعظم تمارين التحرر العقلي في تاريخ الإنسان حيث يُوظف السؤال لكسر الوثن ولطلب المعرفة، وتُستعمل الحواس بعيدًا عن الانقياد للمشهد بغية اختباره وتجاوزه.



هنا يولد الإيمان من الوعي وليس من الخضوع، ويُعاد بناء العقيدة غير مستند إلى التكرار وإنما إلى النقص التدريجي لتماثيل العقل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ليس مجرد إطلالة على المشهد الكوني، ولكنه إعلان عن نقلة في نمط الإدراك؛ من الملك إلى الملكوت، من الظاهر إلى الباطن، من السطح إلى الجوهر، ومن الإيمان المتوارث إلى التوحيد المشتعل من داخله.

هذه الإراءة الإلهية لم تكن لإقناعه وإنما لتمكينه من استعمال ملكة النظر في سياق الوعي حتى يخرج من مأزق التقليد إلى فجر التوحيد، ولذلك فإن وقوف إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أمام الكواكب ليس لحظة تيه أو تحبّط كما قد يتوهم بعض المفسرين، ولكنها دراما رمزية عظيمة يُعلّمنا فيها القرآن كيف تتكوّن العقيدة على مهل عبر خلخلة الرموز وتشكيك الأنساق ومساءلة اللغة نفسها.

إنّ كل (هذا ربي) في لسانه هي مرآة عاكسة لأصوات من حوله، وكل (أفل) هو ضربة فكرية تهوي على صنمٍ معلق في السماء.

وفي النهاية حين بلغ اليقين مبلغه لم يكن بحاجة إلى شمس ولا قمر، ولكنه وجهه وجهه إلى الذي فطر السماوات والأرض، وذلك ليس بوصفه اختياراً منطقيّاً فحسب وإنما بوصفه تحرّراً وجودياً كاملاً من كلّ وساطة حسية، ومن كل وسيلة تستعبد العقل عبر سطوتها البصرية.

وتأمل معي قول الفخر الرّازي في تفسيره (مفاتيح الغيب): (ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نزيه ملكوت السماوات والأرض، وههنا دقيقة عقلية، وهي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل البتة، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا



الاشتغال بغير الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي<sup>(١)</sup>.

هكذا علّمنا إبراهيم أنّ التحرّر من الشرك لا يبدأ بكسر الأصنام الحجرية وإنما بتفكيك الأصنام الفكرية، وأنّ أخطر الشرك ما كان ناعماً يمرّ عبر الضوء ويخدر الإحساس بالحقيقة؛ فحين نُعيد قراءة هذا المشهد ندرك أنّ السؤال هو معول التوحيد في وجه الوثنية الناعمة التي تنزّي بلباس الثقافة أو العرف أو السلطة.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: ٣٥/١٣.



## ٥ ثالثاً: مواجهة السلطة بسؤال يكشف لا يُجامل.. نقد الأب والنسق والملك

حين نقرأ حوار إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أبيه فإننا لا نقرأ قصة نزاع بين جيلين، ولكننا نشهد إحدى أعمق لحظات التمرد النبوي على منظومة السلطة الثلاثية؛ سلطة الأب الضال، وسلطة الجماعة المنحرفة، وسلطة الحاكم المتسلط. لم يكن سؤاله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأَنْعَام: ٧٤]، مجرد استفهام عن معلومة غائبة ولكنه كان طلقة فكرية في وجه الصمت الموروث، ونقضة هادئة ولكنه جاء حاسماً لهيبة مزيفة استقرت في لاوعي الناس.

إن سؤاله في جوهره لحظة إعلان عن أن الأب مهما علت منزلته العاطفية لا يعلو على العقل، وأن القرابة لا تصنع الحقيقة، وأن احترام النسب لا يعني الخضوع له إذا استبد.

يقول صاحب الظلال: (كلمة يقولها إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبيه، وهو الأواه الحليم الرضي الخلق السمع اللين كما ترد أوصافه في القرآن الكريم، ولكنها العقيدة هنا؛ والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة، وفوق مشاعر الحلم والسماحة، وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها، والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالاً)<sup>(١)</sup>.

لقد مزق إبراهيم بهذا السؤال الوشاح الذي كانت تُغطى به الأصنام؛ فلم يكن الصنم مجرد تمثال ولكنه كان منظومة كاملة من التبجيل الرمزي، والمسلمات الاجتماعية، والنقل بلا تمحيص، وحين مزق الحجاب اللفظي بسؤال صغير

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١١٣٩/٢.



ارتجبت كل بنية السلطنة لأنه أعاد تعريف الولاء بتحريره من وصفه طاعةً للقرابة وجعله انتهاءً للحق.

وما كان سؤال إبراهيم لأبيه مجرد نقدٍ لفعل شخصي ولكنه فضح لنظام قيميّ كامل حيث يتهاهى الدين بالعرف، ويتقدّس الخطأ لأنه (قديم)، ويُقمع العقل لأنه (خارج السياق).

ولم يكن عبثاً أن يتّجه إبراهيم بالسؤال إلى قلب هذه المنظومة العائلية لأنّ السلطنة في أعتى صورها تبدأ من البيت حين يُمنع الابن من السؤال، وحين يُفهم الاحترام بوصفه سكوتاً عن الخطأ، وقد اختار إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرقى أسلوبٍ للمواجهة؛ بلا صراخ وبلا إهانة، وإنّما هو سؤالٌ واحد يكشف دون أن يصرخ، ويهدم دون أن يهين.

وحين واجه مجتمعه لم يرفع شعاراً صاخباً، ولكنه سألهم بهدوءٍ ساخرٍ قاتل: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ [الصافات: ٩٢]، وكأنه يقول لهم: إنّ صمت الصنم مرآة لصمت عقولكم، وإنّ العيب ليس في الحجر ولكنه في الذي سجد له دون أن يسأل.

وكان في هذه السخرية الجليلة ما يهدم ألف خطبة، وفي هذا التعريض المهدب ما يسقط التماثيل دون أن يرفع سيفاً.

لقد أراد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يعلمنا أنّ التغيير يبدأ حين تنتزع من الأسئلة سلطتها التحريمية، وتعيدها إلى مكانها الطبيعي أدوات كشفٍ وليس فخاخ فتنة.



وحتى حين وقف أمام الملك المتأله لم يجادله بمنطقٍ لاهوتيٍّ، ولكنه جرّه إلى ملعب السؤال البسيط الذي لا يصمد أمامه الطغيان؛ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلما تلاعب الملك بالألفاظ لم يصرخ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في وجهه بل قفز إلى سؤالٍ يختبر الفعل لا القول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لقد ألقمه سؤالاً لا يحتمل التأويل، وأخرجه من مقام الربوبية المزيقة إلى مقام العجز الفاضح.

يقول أبو زهرة في (زهرة التفاسير): (إذا كنت تدعي الألوهية أو الربوبية فأظهر أمارات قدرتك وسلطانك على الكون بأن تأتي بالشمس من جهة غروبها الآن بدل أن تخرج من جهة شروقها، والمعنى أن ذلك الكون قد خلق على نظام محكم وأحكم تنسيقه بنظم قدرها منشئه، وأمارة قدرتك أن تغير هذه النظم فافعل إن كنت قديراً، فليست القدرة في أن تدعي إنشاء نظام وجد قبل أن توجد أنت وأشباهك من الطّغاة، إنما القدرة تكون في تغييره فافعل هذا التغيير وما كان ذلك في قدرته لأنه ضال مضل، ولذا حكى الله سبحانه وتعالى حاله في قوله: فبهت الذي كفر؛ أي تحير واضطرب ولم يجد جواباً ولم يستطع أن يتكلم قليلاً أو كثيراً، وقد عبر عنه بقوله: الذي كفر للإشارة إلى أن سبب الحيرة هو كفره، إذ لو كان طالب هداية لكانت الحجّة القاطعة الملزمة هادية بدل أن تكون محيرة، ولكنه صمّم على الكفر وأصر عليه، فكانت نفسه حائرة بين حقّ ظهرت بيناته وباطل قد عض عليه بالنواجذ، وكذلك شأن كل من أضله الله على علم) (١).

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة: ٩٥٩/٢.



وهكذا تتكشف عبقرية السؤال الإبراهيمي بوصفه وسيلة لتفكيك السلطة، وخلخلة الأصنام التي تتزيًا بهالة القداسة سواء أكانت في الأب أو في الجماعة أو في عرش السلطان.

وما أحرانا اليوم أن نستلهم هذا المنهج في مواجهة السلطة دون الصراخ الفارغ أو المجاملة المزيّفة وإنما بسؤالٍ واحد يُقال في اللحظة المناسبة فيقلب الطاولة، ويفضح الزيف، ويعيد ترتيب سلّم الولاء لله وحده لا لسلطة عمياء ولا لعرفٍ مستبدّ.

يقول سيّد قطب في الظلال: (فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير، ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل؛ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ويمضي هذا الجدل الذي عرضه الله على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى الجماعة المسلمة مثلا للضلال والعناد وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين)<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٣٩٩/١.



## ٥ رابعًا: الانسجام العميق بين القلب والعقل؛ السؤال بوصفه لغة الحب بين العبد وربّه

في لحظة مشرقة من سيرة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نفث أمام سؤالٍ قد يبدو - في ظاهره - استفهامًا عقليًا عن الكيف، لكنه في جوهره أعظم من كل مقولات المنطق؛ إنه سؤال الطمأنينة، السؤال الذي يصدر عن قلبٍ مؤمن لا ليقينٍ ناقص بل ليقينٍ متشوق يسعى إلى أن يرى بعينه ما آمن به بروحه، وليس ذلك رغبة في البرهان وإنما شوقًا إلى الحضور.

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ هذه عبارة لا تحصر في درس لاهوتي، ولا تعدّ مدخلًا إلى جدل عقلي، ولكنها رجاءٌ حيّ ينبض في قلب عبدٍ أحبّ ربّه حتى أراد أن يبصر بعيونه ما كان يراه ببصيرته، وما أعظم ردّ الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُنَّ قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذا الحوار ليس فيه أيّ تشكيك ولكنه احتضان سماوي لقلق الأرض، وتلبية إلهية لحنين القلب، وكأنّ الربّ الكريم يعلمنا أن الحبّ لا يكذب العقل، وأن الطمأنينة لا تناقض اليقين بل تعمّقه وتغذيّه.

يقول صاحب المنار: (وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان قلقا مضطربا في اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من إبراهيم؛ أي أننا نقطع بعدم شكّه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعًا، نعم ليس في الكلام ما يشعر بالشك، فإنه ما من أحدٍ إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانًا يقينيًا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها، فهذا التلغراف



الذي ينقل الخبر من المشرق إلى الغرب في دقيقة واحدة يوقن به كل الناس في كل بلد يوجد فيه، ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذا السرعة، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية إنه شك بوجود التلغراف؟ طلب المزيد في العلم والرغبة في استكناه الحقائق والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان، وأكمل الناس علمًا وفهمًا أشدهم للعلم طلبًا، وللووقوف على المجهولات تشوفًا، ولن يصل أحد من الخلق إلى الإحاطة بكل شيء علمًا، وقتل كل موجود فقهاً وفهمًا، وقد كان طلب الخليل **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل، فهو طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية؛ لا طلب في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان<sup>(١)</sup>.

لقد التقى في هذه الآية جناحا الإنسان؛ العقل الباحث، والقلب العاشق، وهنا تبرز عظمة إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، لأنه سأل مازجًا بين العقلانية والوجدانية في أصفى صورهما.

لم يكن السؤال حيلةً جدليةً لانتزاع حجة ولكنه كان صلاة خفية بلغة الفكر، رجاءً رقيقاً أن يرى تجليات القدرة بعينيه، وليس ذلك لأن القلب مهزوز وإنما لأن الإيمان الحي لا يشبع من آيات الله تعالى أبداً، وكل يقين لا يتجدد يُخشى عليه أن يتيسر في قوالب العادة.

(لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)؛ ما أعذبها من عبارة، وما أعمقها من اعتراف بشري بأن اليقين العقلي وحده لا يكفي إذا لم يُغذَّ بطمأنينة القلب، وكما يحتاج الطفل إلى حضن الأم مع معرفته بوجودها يحتاج المؤمن إلى أن يلامس آثار الإحياء

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٤٦/٣.



بوجدانه، وليس ذلك ليعرف أن الله تعالى يحبي الموتى وإنّا ليبتهج بهذا الإحياء كأنه يحدث في قلبه كل لحظة؛ إنّا لحظة يريد فيها العقل أن يشهد لا من أجل أن يقتنع أكثر، وإنّا يريدنا القلب من أجل أن يحبّ أكثر.

ومن هنا؛ ندرك أن السؤال ليس دائماً صنيعة شك ولكنّه قد يكون -في مرات كثيرة- لغة الشوق الإيمانيّ، كما يُحبّ العاشق أن يسمع كلمة الحبّ رغم يقينه بها، وكما يتوق الحبيب أن يرى وجه محبوبه، ولا يبتغي بذلك أن يتيقّن أنه موجود، وإنّا مراده أن يملأ عينيه من الجمال الذي يعلم أنه هناك.

وهكذا نعيد فهم العلاقة بين السؤال والإيمان، بين العقل والقلب، بين البرهان والحين، ولسنا أمام جدل بين متخاصمين، ولكننا أمام رقصة داخلية بين جناحي الإنسان، حين يسأل ربه لأنه يوقن، ويزداد حباً كلما زاد يقينه.

وهذا هو الإيمان الذي يتنفس؛ الذي لا يُدفن في العبارات المجففة، ولا يتخشّب في الصيغ الجاهزة، ولكنّه يستيقظ كل يوم بسؤالٍ جديد، ولا يهدف إلى الكفر بما مضى وإنّا يريد أن يكتشف فيه أفقاً لم يره من قبل.



## ◉ خامساً: من الطبيعة إلى التوحيد.. رحلة استخلاص المفهوم من صمت الكواكب

ما من أحدٍ قبل إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** جعل من السماء كتاباً مفتوحاً بهذا العمق، وما من نبيٍّ قبله قرأ حركة الكواكب بوصفها فصولاً في منهج التوحيد وليس ذلك من أجل الفلك وإنما من أجل معرفة الله تعالى.

لم تكن رحلته في ملكوت السماوات والأرض نزهة عقلٍ معجَّبٍ بعجائب الكون ولكنها كانت عبوراً فكرياً واعياً من الظاهر المتغيّر إلى الثابت المتعالي، من الجمال الفاتن إلى الأصل الذي أودعه، من الخلق إلى الخالق.

حين وقف إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أمام الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، لم يكن يتقلّب بين آلهة، ولكنه كان يُجري عملية نقد صامتة لما يؤلّه في ذهن الناس، وما يفرضه المؤلف بوصفه (مقدساً).

لقد جعل من كل جرم سماويّ مرآة تُظهر نقصه، وليس مراده أن يرفضه بلسان الغضب وإنما أن يتركه بلسان التأمل؛ هذا يغيب، وذاك يتبدّل، والآخر يخضع لقانون لم يضعه؛ فكيف يُبعد من يخضع؟ كيف يكون ربّاً من يدور في فلك غيره؟ لقد استخلص من كلّ ظاهرة (حقيقة نافية)، تفكك وثنية المؤلف وتنقض شرعية التقديس المساق وراء البصر.

إنّ تأمل إبراهيم في السماء لم يكن سجّالاً مع خصومه، ولكنه كان حواراً داخلياً عميقاً مع الفطرة؛ فقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥] يرشدنا إلى أنّه لم يكن يراقب الكواكب بعينه فقط ولكنه كان يرى ما وراءها، في الملكوت الذي لا



يُرى، وما كان نظره إلى الأعلى إلا لكي يصعد بوعيه نحو الأعلى، ليس من أجل أن يبقى سجين المدار وإنما ليتصل بمن يُسيره.

وعندما قال عن الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ثم تراجع بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، لم يكن يُجرب إيماناً، ولكنه كان يُحطم أصناماً؛ ولم يكن يتردد بين خيارات، ولكنه كان يبني منهجاً في التوحيد قائماً على نفي التأليه عمّا لا يملك الكمال، لأن كل ناقص لا يستحق العبادة، وكل متغيّر لا يتخذ مرجعاً مطلقاً.

يقول الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير): (وهذا قد جرينا فيه على أن قول إبراهيم لما رأى النيرات " هذا ربي " هو مناظرة لقومه واستدراج لهم، وأنه كان موقناً بنفي إلهيتها، وهو المناسب لصفة النبوة أن يكون أوحى إليه ببطلان الإشراف وبالجمج التي احتج بها على قومه)<sup>(١)</sup>.

غياب القمر لم يكن حدثاً فلكياً ولكنه كان حدثاً إيمانياً، لحظة مفصلية في بناء تصور التوحيد؛ إذا غاب القمر مرة فإن وجوده غير مطلق؛ وإذا كانت ربوبية الإله مشروطة بالحضور فإن كل غائب لا يمكن أن يكون رباً، ومن هنا خرج إبراهيم من أسر الحسّ إلى أفق المفهوم، ومن عبادة الشمس إلى نور المعنى، ومن تقديس الظاهر إلى عبودية المطلق الذي لا يغيب ولا يُغيب.

هكذا يُعلّمنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن التوحيد ليس قراراً عاطفياً ولكنه خلاصة تأمل في النقصان، وتمرد على كل حضورٍ ماديّ يمدح البصر ولا يصمد أمام سؤال: (هل يغيب؟) فإن غاب فهو مخلوق، وإن تغيّر فهو محكوم، وإن أفل فلا يستحق سجدة واحدة.

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: ٢٣٤/٧.



## ٥ سادساً: التجريب مدخلاً إلى التثبيت المعرفي.. من تفكيرك التصوّر إلى مشاهدة المعنى

في مشهدٍ مهيب من السيرة الإبراهيمية يأخذنا الوحي إلى منعطفٍ مختلف في رحلة الإيمان، حيث يُطلب من النبيّ الخليل ألاّ يكتفي بالإيمان المجرد وإنّما أن يُجري تجربة عينيّة تجعله يُعاين الحقيقة ولا يسمعها فقط، ويُباشر البرهان ولا يكتفي بتلقّيه.

هذه ليست قصة في كتاب عجيب وإنّما هي بيان ربّاني عظيم عن أن الله تعالى لا يكتفي أن يؤمن به المؤمن وإنّما يريد أن يرى أثر هذا الإيمان وهو يتشكّل أمام عينيه، لكي لا يكون اليقين قالباً جامداً بل ولادةً دائمة في ضمير المؤمن.

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

هكذا يبدأ درس اليقين.

لم يكن المطلوب درساً في الجغرافيا ولا عرضاً مسرحياً في ساحات الوعظ، ولكنّه تجربة يجري فيها تفكيرك الحياة بيد النبيّ، ثم تُعاد الحياة بيد الله تعالى.

لقد أمسك إبراهيم الطيور؛ قطعها بيده وفرق أجزاءها على الجبال ثم وقف يُناديها؛ ما الذي يحدث هنا؟ ولماذا كل هذا التفصيل؟

في ظاهر الأمر نحن أمام اختبارٍ لإثبات البعث، لكن في الحقيقة ما يجري هو عملية تربوية شاملة لتحطيم التصوّرات السطحية، وتجريب الإيمان في معمل الوجود.



إن الله تعالى لا يريد من إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يؤمن بالمفهوم المجرد للبعث ولكن أن يرى تشكُّله من العدم، أن يُبصر المعنى وهو يُبعث من رماد التَّصوُّر البشري الذي مزَّقه الشك، ثم يُعاد خَلْقُه من جديد على عين الله تعالى. ففي تقطيع الطير وتوزيعها على الجبال رمزية عميقة؛ إنَّها رمزية تفكيك الإنسان لمفاهيمه المألوفة، لتوزيع أجزائه الذَّهنية على قمم متباعدة، ثم لمشاهدة جمعها مرة أخرى بإرادة من لا تحدّه قوانيننا ولا يُقاس على منطقنا.

ما أَراده الله تعالى من إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس إقناعاً بل إشراقاً؛ أن لا يرى المعجزة بوصفها خرقاً لقانون الطبيعة وإنَّما إعادة تعريف للطبيعة نفسها بوصفها تجلياً لإرادة الخالق.

وهكذا يصبح التَّجريب أداة لتجاوز حدود التجريد؛ فبدل أن يُطلب من إبراهيم التَّصديق الأعمى، يُطلب منه أن يرى الحقيقة تتجلى من خلال الفعل، وهذه نقلة جذريّة في مفهوم الإيمان نفسه؛ إذ لا يُبنى على الحفظ، ولا على التلقين ولكن على التذوق والمشاهدة والممارسة؛ تماماً كما لا يكفي للمرء أن يحفظ تعريف الحبّ ولكن عليه أن يحبّ ليفهمه، كذلك لا يُكتفى من المؤمن أن يعرف البعث بل عليه أن يشهده في أعماق يقينه.

والحق أن هذا المشهد لا نجبرنا فقط عن قدرة الله تعالى على الإحياء ولكنّه نجبرنا عن عمق العلاقة بين الإنسان وربّه؛ علاقة لا يُطلب فيها من العبد الطاعة الميكانيكية وإنَّما يُدعى فيها إلى الاشتراك في التجربة، إلى التعلّم من خلال التفكيك، والمعاينة من خلال إعادة التكوين؛ هنا يصبح البرهان إكسبيراً يتغلغل في الكيان الدّاتي والنفسيّ يتجاوز حدود التجربة المادّية على التعامل مع الدّات وليس مجرد معلومة تُدرّس على الهامش.



يقول البيضاوي في (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): (وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها، فيطأوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع، وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيُؤْمِنُ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه)<sup>(١)</sup>.

وهكذا نتعلم من إبراهيم أن اليقين لا يُمنَح مرةً واحدة وإنما يُعاد بناؤه مع كل تجربة، وأن كل شكٍ نبيلٍ يُراد به الطمأنينة لا الهدم يجد في التجريب طريقاً لترسيخ إيمانه؛ فالله جلّ جلاله حين يختبر عبده فإنه لا يغضب أن يسأله عبده؛ لأن الصدق في السؤال يقود دومًا إلى صدق في الرؤية، والبرهان الحق لا يولد إلا من رحم الحاجة الروحية إلى الاطمئنان.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ١/٥٦٤.



## ٥ سابعاً: تفكيك الرموز لا كسرهما؛ هندسة العقل الإصلاحِي في مشروع إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

لم يكن مشروع إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الإصلاح النبويّ ثورة انفعالية تتلذذ بتحطيم الأصنام من الخارج ولكنّه كان تفكيكاً مدروساً للرموز من داخل النفس البشرية أولاً قبل أن تتحطّم المجسمات الحجرية في السوق والمعبد. لم يكن الهدف أن يُرضي ذاته الغاضبة بضربة فأس ولكن كان هدفه أن يززع بنية التّصور الذي جعل من الصنم إلهًا، ومن الحجر مرجعًا، ومن الجماد شريكًا في الخلق والتدبير.

لقد أراد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تعليم النَّاس أن الأصنام لا تقف في الساحات إلا لأن صنمًا آخر قد استقرّ في داخل النفوس؛ صنم الخوف، وصنم العادة، وصنم السلطة، وصنم الخضوع لما اعتاده الآباء.

ولذلك فإن خطوته الأولى لم تكن الهدم ولكنها كانت السؤال؛ السؤال بوصفه فأساً معرفياً ينقض تماثل المعنى لا تماثل المادة، فحين وقف أمام قومه وسألهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، لم يكن يبحث عن معلومة ولكنّه كان يُعري هشاشة الفكر الذي ألهمها، فلم يقل لهم: هذه تماثيل باطلة فاسدة بل دفعهم بلطفٍ قاسٍ أن يجيبواهم، أن يستحضروا الحجج بأنفسهم، وحين عجزوا اكتشفوا أن سكوتهم أبلغ تفكيك لرمزهم من أي هدم خارجي.

يقول أبو زهرة في (زهرة التفاسير): (والاستفهام منصبّ على سؤاله عن هذه الأصنام التي عكفوا عليها يعظمونها، ويعبدونها، وهو يتضمن أولاً الاستهانة



بها وتحقيرها بالإشارة، لأن الإشارة تتضمن أنها حجارة محسوسة لا تضر ولا تنفع، ويتضمن ثانياً استنكار العكوف عليها وعبادتها، والاستفهام ليس عن الماهية، بل عن أوصافها، وتنبه إلى أنها لا تضر ولا مسوغ لعبادتها لأنها ليس فيها صفات الألوهية التي توجب العبادة<sup>(١)</sup>.

إنَّ صنمًا يُعبد لا لأنه ينطق أو يسمع أو يَصْرُّ أو يَنْفَع ولكن لأنه مألوف فحسب، هو صنم أقوى من الحجر لأنه صنمٌ يضرب جذوره في بنية الوعي المشروخ، ولذلك سأهّم إبراهيم في قوله الخالد ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُتُونَ﴾ [الصّافات: ٩٥]؛ وهذا ليس فيه الاعتراض على الصنعة ولكنّه اعتراض على التسليم بها ربًّا، على الانتقال من صانع لتمثالٍ إلى خاضع له، والسؤال هنا يهدم التسلسل المنطقي للألوهية، ويعيد تعريف العلاقة بين الإنسان والمقدس؛ هل نخلق آلهتنا ثم نسجد لها؟ أم نبحت عمّن خلقنا؟

ولم تكن هذه الجدلية متروكة في الهواء ولكنها أتبعَت بمنطقٍ أكثر حدّة، حين قرّر إبراهيم أن يترك التماثيل في المعبد، ويكسرها جميعًا -إلا كبيرهم- ويضع الفأس على كتفه؛ لم يكن المشهد انتقامًا طفوليًّا ولكنّه كان ذروة البناء الجدلي الذي بدأه منذ أسابيع أو شهور، وحين عاد القوم غاضبين وسألوه عن الفاعل، قال كلمته المشيرة: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، لقد دفعهم نحو التناقض الذاتي بأبسط الأساليب وأكثرها فتكًا؛ إن كانوا لا ينطقون فكيف يكونون آلهة؟ وإن كانوا لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم فكيف يمنحون الناس العطاء والرزق والنصر؟

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة: ٤٨٨٢/٩.



الهدم الجسدي إذن لم يكن إلا تعبيراً أخيراً عن هدم رمزي سبقه سؤال، وتدرّج، وفضح لمنظومة الفكر المعبد للباطل، وهذه هي النبوة التي تجلّت فيها عبقرية إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** الإصلاحية؛ فلم يكن ساعياً لتكسير الأصنام فحسب لكنّه كان ساعياً لإعادة بناء الإنسان بعد أن يُزاح عنها ركام التقديس الزائف.

إنه لم يُدِن الأصنام قبل أن يُحرّر عقول أصحابها من معناها، ولم يرفع الفأس إلا بعد أن تكون الأرض قد تهيأت لاستقبال ضربة اليقين، وهذا هو الفرق بين هدم الغاضب وهدم النبي؛ فالأول يُسقط الحجر ويُبقي الوهم، والثاني يُسقط الوهم قبل أن يُسقط الحجر.



## ◉ ثامناً: الحجاج العقلي بوصفه بديلاً للهيمنة؛ حين تكون الكلمة أقوى من عرش الطاغية

في لحظة تاريخية فارقة يقف إبراهيم النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** المجرد من كل سلاح في حضرة ملكٍ طاغيةٍ متربّع على عرش القوّة، لا يتهدده سيف ولا يراجعه أحد، ولا يتقدّم نحوه بجيشٍ أو بانقلابٍ وإنما بجملته واحدة حُفرت في سجلّ العقل البشري بوصفها درساً خالداً في انتصار الحجّة على الهيبة، وفي تغلب السؤال الصادق على الاستعلاء الكاذب.

لم يقل إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** (أنا نبيٌّ يجب أن تؤمن بي)، ولم يلجأ إلى معجزة تبتهت الأبصار ونُحرس الألسنة، ولكنه اختار أرقى وسائل الاشتباك مع الاستكبار؛ الحجاج العقلي، فحين تبجّع الملك قائلاً: **﴿أَنَا أَحْيَاءٌ وَأُمُوتُ﴾** [البقرة: ٢٥٨]، وردّ بوقاحة الجهلاء على معجزة الحياة والموت، لم يضجر إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** ولم يسخر ولكنه انتقل بالجدال من ساحة التلاعب اللفظي إلى ميدان الحقيقة العارية، وقال كلمته العظيمة **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾** [البقرة: ٢٥٨].

بهذا السؤال البسيط في ألفاظه العميق في منطقه؛ أسقط إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** بُنيان الادّعاء من أساسه؛ فلقد جرّد السلطة من وهمها، ولم يكن ذلك بتمرد عسكري وإنما بإظهار قصورها أمام ناموس كونيٍّ لا تملكه، قانون لا يخضع لمراسيم البلاط ولا لأوهام الألوهية البشرية، فقد كشف هشاشة عرشٍ لا يستطيع أن يُغيّر اتجاه شروق الشمس ولو لبُرهة، وهنا تتجلّى عظمة الحجاج في يد نبيٍّ يفهم أن انتصار الفكرة أرسخ من مجرد ارتعاش العرش.



الآية لا تصف حوارًا فحسب ولكنها تصف انقلابًا معرفيًا ﴿فَبَهَّتِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلم يكن الانبهاث مجرد صدمة نفسية ولكنه كان انبهاثًا داخليًا لصنم الهيمنة المعرفية؛ فحين يُهزم الطاغية أمام سؤال لا أمام سيف ينهار رمزه، ويبدأ الناس في التساؤل: كيف لمن لا يُجيب عن هذا أن يُلزمننا بمفاهيمه؟ كيف لمن يعجز عن تفسير الشمس أن يُحدّد لنا من نعبده؟

وهكذا قدّم إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** درسًا خالدًا؛ أن الحجّة أداة الأنبياء في وجه الطغاة، وأن الكلمة - إذا خرجت من عقلٍ مستنير وإيمانٍ عميق - أشدُّ أثرًا من جيوشٍ جرّارة، فقد استنبت فكرًا لا ينتصر بالغلبة الماديّة وإنّما بالوضوح، ولا يُسقط الخضم بالجبر ولكنه يسقطه بتعريته منطقته أمام ذاته.

في هذا المشهد لا يعلن النبيّ التوحيد بوصفه أمرًا مفروضًا من فوق وإنما بوصفه إضاءةً للعقل من الداخل، وهو بهذا يُعيد تعريف النبوة نفسها؛ فهي ليست فرضًا للإيمان بالقهر ولكنها دعوة إلى الإيمان وإلى الحقيقة بالحجة.

ولعلّ أبلغ ما في هذا الموقف أن إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** لم يُكرّر الجدل بعد أن بهت خصمه، لأنه يعلم أن من سقط أمام برهانٍ مثل هذا لا يُجادل ولكنه يُترك ليراجع ذاته؛ فالحوار النبويّ لم يكن للاستعراض وإنّما للاستنقاذ.

وهكذا، تتجلّى النبوة - في أبهى صورها - وذلك ليس بوصفها سلطة تنازع سلطات الأرض وإنّما باعتبارها سلطة العقل والقلب في مواجهة زيف الرموز الجوفاء؛ فالسؤال هنا ليس فقط أداة للبيان ولكنه مطرقة تنقر على جدران الكبر، حتى تُحدث في بنيان السلطان صدعًا لا تردمه جنوده.



## ٥ تاسعًا: استبصار الأجيال القادمة من خلال وعي اللحظة؛ حين يكون السؤال نبوءةً تربّي الغد

ليس من قبيل الدعاء العابر ولا من هامش الرجاء الشخصي أن يقف إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قلب الصراع التوحيدي، ليرفع بصره وسؤاله إلى الزمان الآتي قائلاً: ﴿وَأَجْبُنِي وَبَيِّنْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ففي هذه الآية لا يتحدث النبي عن واقعه الآتي ولكنه يستنطق المستقبل، ويغرس في قلب الزمن بذرة التوحيد الحيّ كيلا يُصاب بالغفلة بعد أن يغادر النبي المكان.

لقد فهم إبراهيم أن الأصنام ليست تماثيل فقط ولكنها رموزٌ قابلةٌ للتجدد والتغير تتخفى في كل عصر بصورة جديدة؛ مرةً على هيئة حجر، ومرةً على هيئة (وهم التقدم)، أو (قدسية السوق)، أو (إله الدولة الحديثة) الذي يُشرع ويمنع ويمنح بلا مرجعية إلهية، ولذلك لم يكن سؤاله عن بنيه سؤال عاطفة أبوية فحسب ولكنه سؤال رؤية استراتيجية، يريد به أن يُقيم سدًا على نهر الوثنية المتجددة كيلا يجرف وعي الأجيال القادمة في تيار الزيف مهما تغيرت ملامحه.

فالنبي هنا لا ينظر إلى ذريته بوصفهم امتدادًا بيولوجيًا وإنما بوصفهم امتدادًا لرسالته المعرفية، فيسأل عنهم لأنه يعلم أن عدو الإنسان ليس الجهل بالمعلومة ولكنه الجهل بالمعنى، وأن الأصنام في عمقها الرمزي لا تُعبد لأنها تستحق وإنما لأن الناس تنقطع عن السؤال فتملاً فراغ المعنى بأي رمز يُسكت حيرتهم، ولذلك فإن سؤاله لم يكن: (أرنا كيف نعبدك)، بل: ﴿وَأَجْبُنِي وَبَيِّنْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، لأن الخطر الأكبر ليس في فقدان الدين ولكنه في استبدال الوهم بالحق، والرمز الفارغ بالتوحيد.



ولعلّ في هذا السؤال ما يُعلّم الدعاة والمربّين أنّ بناء الأجيال لا يبدأ من تلقين الأجوبة وإنّما من تأسيس بوصلة السؤال في عقولهم؛ أن يتعلّموا التمييز بين الألوهية الحقيقية والرمزية، وبين المعبود الحقّ والمعبود المصنوع، وبين الحرية التي تتأسّس على السؤال والعبودية التي تتغذى من الصمت.

لقد علم إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** بوحى النبوة وبصيرة الرسالة أن كل لحظة من لحظاته يجب أن تُزرع في تربة المستقبل، وأنّ التربة ليست لحظة تلقين ولكنها عملية تحصيل طويلة ضد انبعاث الوثنية في صور خادعة؛ فكان سؤاله هذا (حصانة فكرية مبكرة) تُزرع في ضمير الذرية قبل أن تُزرع في أفعالهم، وكأنّه يقول: (اجعلني وإياهم ممن لا يركعون لغيرك، لا في ظاهر السجود بل في أعماق الولاء).

وهكذا يُعيد إبراهيم تعريف المسؤولية التاريخية للنبيّ على أنّه ليس مرسلًا لجيله فحسب وإنّما باعتباره مهندسًا لوعي الأجيال الآتية؛ يحفر في ذاكرتهم الفكرية مسارات النجاة من صنمية العصر مهما تلتئم بلغة الحضارة.



## ○ خاتمة تأملية؛ حين صار السؤال طريقاً إلى الله تعالى

لم يكن سؤال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هائلاً وراء إجابة تُرضي فضولاً أو تُسكت حيرة، ولكنه كان سيراً نبوياً في شعاب الوجود، يحمل في كفِّ مصباح العقل وفي الأخرى خفقة القلب، وفي باطنه شوقٌ لا يهدأ إلى المعنى الذي لا يُدرك إلا بخرق الظاهر واقتحام الغيب ومجاهدة النفس كي تبصر ما وراء الحجاب.

لقد سأل ولم يكن هدفه أن يحصل على جواب ولكن أن يقترب من الله تعالى؛ لأنَّه في كل سؤال يطرحه كان يخلع عن قلبه بقية العادة، ويصعد في مدارج التوحيد حتى يغدو توحيده كاشفاً وموظفاً وحرّاً وليس مقيداً بأصنام الآباء أو أسوار المجتمع أو جاذبية السلطة.

لم يكن وحي النبوة عند إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلقيناً جامداً ولكنه كان تفاعلاً حاراً بين عقلٍ يُراجع وقلبٍ يُحبُّ وروحٍ تسير في المدى بلا ارتياب، فلم يكن يخشى السؤال وإنَّها كان يرى فيه محرِّك الرسالة وموقد الطريق ووقود النهوض من سبات العقل البشري.

وهكذا لم يكن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبياً فحسب ولكنه كان أمةً تمشي على قدمين؛ لأنَّ (الأمة) ليست الكثرة العددية ولكنها القدرة على حمل النور في وجه الظلام، وبناء المعنى في زمن الفراغ، وإيقاظ السؤال في زمن الخنوع؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [التَّحْلِ: ١٢٠]، لأنه أحيأ في الناس السؤال حين مات، وعلمهم أن الله تعالى لا يُعبد على جهل، ولا يُتقرب إليه إلا بعقلٍ يسجد وقلبٍ يتأمل.



يقول صاحب الظلال: (والقرآن الكريم يرسم إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نموذجًا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله، ويقول عنه هنا: إنه كان أمة، واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بها فيها من خير وطاعة وبركة، ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به في الخير، وورد في التفسير المأثور هذا المعنى وذلك؛ وهما قريبان، فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد)<sup>(١)</sup>.

فيا من تمشي في درب الإيمان: لا تخش السؤال؛ فإن الله تعالى يحبّ الباحثين عن وجهه، واسلك درب إبراهيم؛ فكل خطوة فيه سؤال، وكل سؤال فيه سبيل، وكل سبيل فيه موصل إلى الله تعالى.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٢٠١/٤.

# المنهج النبوي في صناعة السؤال

حين يصبح الاستفهام وحيًا يُرَبِّي ووعيًا يُوقظ



حين نتأمل في سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإننا لا نجد فقط إجاباتٍ تنزل من السماء، ولكننا نجد أسئلةً تصعد من الأرض يُطلقها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُرَبِّي؛ أسئلةٌ تخرج من فم المعلم لحكمته في دفع العقول إلى التفاعل والقلوب إلى الحضور والنفوس إلى البناء.

لقد كانت الأسئلة النبوية طريقًا إلى العقل دون أن تكون على حساب الإيمان، وجسرًا إلى الإيمان دون أن تكون على حساب العقل، فيها من البلاغة التربوية ما يفتح العقول، ومن الحنان الوجودي ما يلامس الأرواح.

في زمنٍ يُظن فيه أن المعلم الحقّ هو من (يجيب دائمًا)، نطلّ على مدرسة النبوة لتتعلّم كيف أن السؤال أداة بناء، وكيف أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد علّمنا بالسؤال أن نرى، وأن نستحيي، وأن نحاسب أنفسنا، وأن نُفكّر في ضوء النور لا في ظلال الجهل.

فالسؤال في المنهج النبوي لم يكن تمرينًا ذهنيًا ولكنه كان صناعة إنسان، ولم يكن استعراضًا لبلاغة ولكنه كان تفجيرًا لوعي؛ ومن هنا يبدأ هذا الفصل.



## ٥ أولاً: السؤال أداة لفك قيود الصمت وتحرير النفوس من حرج البوح

الصمت ليس دليلاً على الرضى في أحواله كلها، كما أن السكوت ليس علامة على الوضوح؛ فكم من صدورٍ تحتقن بها لا يُقال، وكم من أفواهٍ لا تصمت بسبب العجز عن البيان ولكنها تصمت حياءً أو مهابةً أو وجعاً لا يُحتمل التعبير عنه، وهنا تتجلى عبقرية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قراءة اللحظة الشعورية بإيقاع النفس؛ وفي التقاط الصمت وذلك ليس بوصفه غياباً للكلام وإنما حضوراً متأماً.

في لحظة مثل هذه حين التقى بكعب بن عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم ينتظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتكلم الرجل ولكنه نظر إليه ببصيرة المربي الذي يدرك أن الألم يُسكيت، وأن المبتلى قد لا يجد الشجاعة ليسأل عن حاله؛ فقال له بلغة من يشق جدار الصمت برحمة: «لعلك آذاك هو أمك؟»<sup>(١)</sup>.

إن في (لعلك) هذه كل معاني العطف النبوي، وكل مراتب الاحتواء النفسي، فلم يكن سؤالاً استقصائياً، ولكنه كان مفتاحاً لتحرير نفسٍ مترددة ورفع الحرج عنها، وتمكينها من البوح دون أن تطلب.

يعلمنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن السؤال أحياناً لا يُطرح لطلب جواب وإنما لتمهيد أرض النفس كي تبوح بما تخجل من قوله أو تتردد في التصريح به، وهنا يتحوّل السؤال من أداة معرفية إلى أداة تحريرية، تفكّ أسر النفوس من سجن الكتان، وتمنحها شرف الكلام دون أن تُجبرها على المبادرة.

(١) أخرجه البخاري ومسلم ومالك واللفظ له..



فالسؤال النبوي لم يكن شكلياً ولكنه كان فناً في قراءة الإنسان، لقد رأى النبي الهامة في رأس كعب لكنه لم يُجرجه بوصفٍ مباشر ولكنه لفّ السؤال بوشاح الحنان حتى أقرّ كعب بألمه كمن يتنفس بعد اختناق طويل؛ ثم لم يكتفِ النبي بالإقرار وإنما فتح له أفق الاختيار بين الفدية والصيام والإطعام والنسك؛ إذ قال له **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «احلِقْ رَأْسَكَ وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ أَوْ انْسُكْ بِشَاةٍ»، كما يفتح الطبيب أمام مريضه خيارات العلاج ليشعره بالسيادة على مصيره.

إنه درسٌ عظيم في أن التربية لا تكون بالإملاء وإنما بالاحتواء؛ وأن المعلم الحقيقي هو من يطرح السؤال حين يعجز المتعلم عن البوح، ويُقدّم الجواب حين تضيق النفس ذرعاً بالحيرة، ويمنح الاختيار حين يتحول الحكم إلى عبء. فهل وعينا هذا البعد النبوي في خطابنا؟ وهل نطرح السؤال في وجوه أبنائنا وتلامذتنا حين نرى الحزن في أعينهم؟ هل نقول لهم: (لعلك تتألم؟)، كما قالها سيّد المعلمين لا لنسمع الجواب وإنما لنفتح لهم باباً للرحمة؟



## ٥ ثانيًا: السؤال لتفجير طاقات الفكر، وإشراك العقول في صناعة الجواب

لم تكن أعظم وظيفة للسؤال أن يُفصح عن نقص في المعرفة وإنما أن يُطلق شرارة الفكر في أفق العقل، وأن يُشرك السامع في بناء المعنى لا في تلقي الجواب، وفي المدرسة النبوية لم يكن السؤال وسيلة لاختبار التلميذ ولكنه كان وسيلة لإخراج الفكرة من رحم التأمل وليس من جيب الجاهز المملّب.

حين قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المؤمن، حدثوني ما هي؟»<sup>(١)</sup>، لم يكن يريد من هذا السؤال بيان معلومة زراعية ولكنه كان يُدرّب أرواحهم على أن تُشبه الأشياء وترتبط بين الظواهر والمعاني، وأن ترى في النخلة الصامته صورة للمؤمن الثابت لا تهزمه الفصول ولا تعريه العواصف.

كان يمكن للنبي ﷺ أن يقول ببساطة: (المؤمن كالنخلة) وينتهي الأمر، لكنه اختار أن يجعل الجواب مولودًا في أذهانهم لا مرسلًا إليهم؛ اختار أن يبني الجواب في عقولهم لبنة لبنة لا أن يُسلمه جاهزًا في يده، ولهذا وقع الصحابة - كما يروي عبد الله بن عمر - في أشجار البوادي، يقبلونها في عقولهم كما يقبّل المتأمل صفحات الحياة، بينما كان هو - عبد الله - يلمح النخلة في داخله لكنه سكت حياءً.

إن النبي ﷺ هنا لا يعلمهم عن النخلة ولكن عن طريقة في التفكير، عن مدرسة في طرح السؤال تجعل الجواب رحلة ممتدة لا محطة قاصرة،

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له.



ولهذا لم يوبّخ من أخطأ ولم يُثنِ على من أصاب ولكنه جعل اللحظة كلها لحظة (إنتاج مشترك للمعنى)، لحظة يصنع فيها المجتمع النبوي إدراكه من الداخل لا من الخارج.

وتأمل كيف روى عبد الله بن عمر الموقف لأبيه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكيف أجابه الأب الخبير: (لأن تكون قلتها أحبُّ إليّ من كذا وكذا)؛ لأنَّ عمّر أدرك أن الإجابة في حضرة النبي ليست فقط تعبيراً عن الذكاء ولكنها مشاركة في بناء الوعي، واختبار لحضور القلب وليس للذاكرة فحسب عند لحظة السؤال.

إنّما لحظة تربوية باهرة تعلّمنا أن السؤال حين يكون ذكياً يصبح العقل شريكاً وليس مجرد متلقٍ، وتحوّل المعرفة من خطاب خارجي إلى قناعة داخلية تبقى وتثمر وتقاوم النسيان.

فهل نتقن نحن هذا الفنّ؟ وهل نعلّم أبناءنا وطلابنا كيف يبحثون في داخلهم عن النخلة؟ أم نفرض عليهم النخيل جملة واحدة؛ فيحفظون دون أن يثمروا؟



## ٥ ثالثاً: السؤال أداة لتقويم المفاهيم المغلوطة وبناء وعي قيمي جديد

ما أخطر المفاهيم حين ترسخ في النفوس بلا مراجعة، وتغدو حقائق مقدسة لأنها شاعت وليس لأنها صحّت، وكم من باطلٍ اكتسب شرعيته من كثرة ترديده لا من صواب منطقته!

وهنا تتجلى عظمة المنهج النبويّ في عدم مواجهة تلك المفاهيم بالتصادم أو السخرية أو الإلغاء القسري، وإنما بطرح تربويّ ذكيّ يجعل الخطأ يتعرّى من تلقاء نفسه أمام سؤال واحد.

سأل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه: «ما تعدون فيكم الصرعة؟»<sup>(١)</sup>؛ سؤال يبدو للوهلة الأولى عادياً واستكشافياً لا يحمل موقفاً ظاهراً، لكنه في عمقه سؤالٌ يُستدرج به الوعي ليكتشف زيف المعيار بنفسه قبل أن يُستبدل به معيار جديد. أجاب الصحابة كما أجاهم تراثهم الجاهلي: (الذي لا تصرّعه الرّجال)؛ فالرجل في منطق القبيلة هو العضلات والهيبة والصوت العالي، هو من يسقط الآخرين أرضاً لا من يسقط معهم على الأرض.

لكنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعلم الأعظم؛ لم يُعنفهم ولم يوبّخهم ولكنه أراح الغبار عن صورة الإنسان الكامل كما يراها الوحي: «لا؛ ولكنّ الذي يملك نفسه عند الغضب».

هنا يتقلب المعيار من الخارج إلى الداخل، من القوة الجسدية إلى السيطرة الوجدانية، ومن إسقاط الآخرين إلى الانتصار على الذات ساعة الانفعال.

(١) أخرجه البخاري ومسلم.



إنه سؤالٌ يعيد تعريف البطولة، ويخلع عن الوعي لباس العنف ويفصّل له ثوباً من الرصانة والضببط والسيادة على المشاعر.

في لحظةٍ واحدةٍ يتحوّل المفهوم من (الصّرعَة) بوصفها غلبةً على الآخر، إلى (الصّرعَة) بوصفها إمساكاً بزمام النفس، وانتصاراً على وحش الغضب الذي يسكن فينا جميعاً.

وفي هذا النموذج يتجلى عمق البلاغة التربوية في السّؤال النبوي؛ إذ لا يكتفي بإبلاغ قيمة ولكنه يخلق لحظة اكتشاف تجعل السامع يُراجع نفسه وذلك ليس لأنه أمرٌ وإنما لأنه أبصر.

وها نحن اليوم في زمن تُعاد فيه صناعة (النجومية) في صورة المغلوب والغالب، و(القوة) في هيئة الجسد والمال والانفعال، وإننا أحوح ما نكون إلى أن نعيد تربية مفاهيمنا ولا يكون ذلك بالخطب الانفعالية فحسب وإنما بالأسئلة التي تُربك المألوف وتُهندس البديل.

فهل نسأل أبناءنا: من هو البطل في عينيك؟ وهل ندفعهم ليُجيبوا من داخلهم لا من صفحات مواقع التّواصل؟ وهل نملك نحن شجاعة أن نراجع مفهوم (الصّرعَة) فينا؛ فنرى كم من معاركنا كانت مجرد هزائم مقنّعة في ميدان الغضب بعيداً عن مظاهر الانتصار؟!



## ٥ رابعًا: السؤال جسرٌ بين المواقف اليومية ورسائل التوحيد الكبرى

لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الناس التوحيد من وراء منبرٍ معزولٍ عن مجرى الحياة، ولا كانت دروسه تمرينات عقلية تُلقى في المجالس ثم تُنسى في الأسواق؛ ولكنها كانت في كل لحظة من لحظات الزمن وكل مشهد من مشاهد الطبيعة؛ فرصةً ذهبيةً لبناء وعيٍ توحديٍّ صلب يغرس الإيمان في صميم الوجدان وليس في العقول وحدها.

لقد كان السؤال النبويّ جسرًا بين الواقع والاعتقاد، وبين الظاهر الطبيعي والمغزى الغيبي، وبين حادثة المطر العادية، ورسالة التوحيد العظمى.

ففي صباحٍ غائمٍ على مشارف الحديبية؛ صلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الفجر، وعلى الأرض قطرات المطر المتبقية من ليلة ممطرة، وربما تساقطت على رؤوسهم تلك اللحظة، ثم التفت إليهم وهو لا يريد أن يُقرّر حقيقة فقهية، أو يفتح نقاشًا سياسيًا، ولكن ليسألهم سؤالًا يهز الأعماق:

«هل تدرون ماذا قال ربكم؟»<sup>(١)</sup> سؤالٌ لا ينتظر معلومة ولكنه يُفتش في الضمائر عن حقيقة التوحيد التي تتجلى في أبسط المواقف، في انسياب الماء، وفي تفتح الأرض، وفي شكر اللسان، وفي تفسير الناس لأبسط ظواهر الطبيعة.

حين أجاب الصحابة: (الله ورسوله أعلم) لم يكتفِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصيغة تقريرية بل فجر المفارقة المذهلة: «أصبح من عبّادي مؤمنٌ بي وكافرٌ!» من أين تأتي هذه القسمة العظيمة؟ هل من معركة؟ من فتنةٍ أو امتحانٍ عظيم؟ كلا؛ بل من كلمةٍ عابرة قيلت عن سبب المطر!

(١) أخرجه البخاري ومسلم.



فمن قال: (مُطْرِنًا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ)، فقد اخترق الظاهر إلى الباطن وتجاوز الأسباب ليصل إلى المُسَبَّب، وأما من قال: (مُطْرِنًا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا) فقد خضع للطبيعة من حيث لا يشعر واستبدل بالخالق قانونًا أعمى؛ فأخطأ الباب وإن لم يُنكر الله تعالى جهارًا.

إنَّها دربة التوحيد في اللحظة العابرة وصناعة الإيمان في حُضن التفاصيل اليومية؛ فالسؤال هنا لا يزرع الريبة في قلوب الناس ولكنه يوقظ بصيرتهم لتفكيك المفاهيم العفوية التي قد فتتك بالتوحيد في غفلةٍ من العقل واللسان.

إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُعلِّمهم أنَّ المطر (نعمة) فحسب ولكنه علَّمهم كيف يُفكِّر المؤمن حين يرى المطر، فالمؤمن لا يكتفي بملاحظة ما نزل من السماء ولكنه يسأل: من الذي أنزله؟ ولم أنزله؟ وماذا أقول إذا سُئلت عنه؟

وهذا هو الفرق الجوهرى بين العلم والإيمان، بين التفسير الطبيعي والتأويل التوحيدي، وبين قراءة الظاهرة بوصفها حدثًا وقراءتها بوصفها نداءً من الله تعالى إلى عبده: (هل ترى قدرتي؟ هل ترى رحمتي؟ هل تشكرني أم تنسبها لغيري؟).

إن السؤال النبوي لا يصنع جوابًا ذهنيًا فقط ولكنه يصنع موقفًا إيمانيًا يتغلغل في نسيج الحياة، فيجعل كل قطرة مطر وكل نسمة هواء وكل غيمة في الأفق درسًا عميقًا في التوحيد.

فهل نربِّي أبناءنا اليوم على هذه الدقة التوحيدية؟ هل نعلِّمهم أن لا يُفكِّروا بالمطر وحده بل يفكِّروا بالله تعالى في المطر؟ وهل ندرك أن العبارة التي نقولها عفويًا في وصف ظاهرة كونية قد تكون -في ميزان السماء- شعار ولاءٍ فكريٍّ نكتبه على صفحة الإيمان أو الشرك؟



## ٥ خامسًا: السؤال الاستنكاري لاجتثاث بقايا الجاهلية الأخلاقية

ليس بالضرورة أن يكون كل سؤالٍ في لسان النبوة دعوة إلى تفكيرٍ هادئ، أو مشاركة وجدانية في صنع الجواب؛ فقد يكون السؤال في موضعه شيئًا قاطعًا يكشف عن جرحٍ خفيٍّ في بنية المجتمع، ويضرب على موضع الداء بقوة النبوة التي لا تُجامل ليطهر القيم من آثار الجاهلية العالقة في النفوس.

فحين تفوح من أحد الصحابة رائحة التمييز العرقي، ويزل لسانه بلفظة تحقر الآخر استنادًا إلى نسب أو لون أو أصل فلا يتركها النبي صلى الله عليه وسلم تمر مرور العتاب العابر ولكنه يُطلق سؤالًا استنكاريًا تهتز له الروح: «أتعيّره بأُمّه؟!»<sup>(١)</sup>.

ما هذا السؤال؟! إنه صفة تربوية تحمل في طياتها أكثر مما تصرح به ألف خطبة، إنه سؤال لا ينتظر جوابًا ولكنه يُنزل الحكم مباشرة في شقه الثاني: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

هذا الاستفهام القصير فتح النبي صلى الله عليه وسلم جبهة أخلاقية على الجاهلية التي تتسلل من الشقوق الخفية في الثقافة حتى بعد أن أسلمت الألسن وانقادت الجباه للسجود.

لم يكن أبو ذر منافقًا ولا عدوًا ولكنه كان من كبار الصحابة ولكن النبوة لا تسامح في العدالة الإنسانية؛ فإن بقيت ذرة من الغرور العرقي أو الاستعلاء الطبقي في القلب؛ فإن الجاهلية لم تُقتل بعد ولكنها تسكن في أطراف النفس وتنتظر أن تجد لسانًا يجرّكها.

(١) أخرجه البخاري ومسلم.



فالسؤال هنا ليس تساؤلاً بلاغياً فحسب ولكنه مشرطٌ جراحِيٌّ روحيٌّ يستخرج داء التعصّب من الأعماق ويُلقِي به في ساحة الوعي لِيشهر أمام الناس. إنه إعلانٌ بأن الكرامة في ميزان الإسلام لا تُوزن بالأصل وإنما بالعمل، ولا تُقاس باللون ولكن بالتقوى، وأن من تجرأ على هتك ستر الأخوة بهذا الشكل فهو لم يفهم روح الإسلام بعد.

فمن ذلك الموقف نتعلّم أن الخطاب التربوي لا يُهادن حين تكون الكرامة البشرية هي المستهدفة، وأن صيغة الاستفهام قد تكون سلاحاً لفُضح الباطن وليست أداة لفهم الظاهر فقط.

فهل نستخدم هذا المنهج في بيوتنا ومدارسنا ومجتمعاتنا؟ وهل نربي أبناءنا على سؤالٍ مثل هذا إن رأيناهم يضحكون على لهجة زميل، أو يسخرون من لون بشرته، أو يحتقرون أصله؟ وهل نجرؤ أن نقول لأحدكم: (إنك امرؤٌ فيك جاهلية)؟ لا شامة وإنما رجاءٌ في تطهير الروح قبل أن تُعبد الأصنام من جديد في هيئة الهوية والانتها.



## ٥ سادساً: السؤال للتأكد والإنصاف، ثم ترسيخ قواعد العدل الاجتماعي

في مدرسة النبوة لا يكون الحكم رد فعل عجولاً، ولا تُبنى المواقف على ظاهر القول أو مجرد المشاعر ولكنها تُؤسس على تحقّق دقيق واستيضاح صادق، ثم بناءً تربويٍّ يُحوّل الواقعة الجزئية إلى قاعدةٍ شاملةٍ في ميزان العدل.

فحين جاء والد النعمان بن بشير، يريد أن يشهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هبة خصّ بها ابنه دون بقية إخوته لم يبادر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإنكار أو الاستهجان ولكنه التفت إلى لبّ المسألة بسؤال هادئٍ ظاهره استعلام وباطنه فحصٌ أخلاقيٌّ دقيق: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟»<sup>(١)</sup> وهو سؤالٌ لا يُطلب فيه الجواب إلا ليُكشف به عن العدسة الأخلاقية التي ينظر بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كل واقعة مهما بدت بسيطة.

فلما أجابه الرجل بالنفي لم يكن ردّ النبي موقفاً شخصياً ولكنه كان تأسيساً لمبدأ تربويٍّ خالدٍ في الأخلاق الإسلامية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ».

هكذا يُحوّل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حادثةً أسريةً إلى قاعدةٍ في العدالة المجتمعية؛ فإنّ (العدل) في ميزانه لا يبدأ من قاعات القضاء وإنما من قلب الأسرة، من تقاسم الحلوى بين الأطفال، ومن الإنصاف في القبلات قبل القوانين.

تأمل كيف ابتدأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستفهام ليفتح للنفس باب التراجع الطوعي عن الخطأ ثم كيف نقل الموقف من الخاص إلى العام فلم يقل (لا تُفَضِّلْ هَذَا الابن) ولكنه وجّه الأمر إلى كل والد وكل راعٍ وكل مربٍّ: «اتقوا الله، واعدلوا».

(١) أخرجه البخاري ومسلم.



إنه درس في صناعة العدل من داخل الحياة اليومية حيث لا تُفصل المشاعر عن القيم، ولا تُقصى العلاقات الخاصة عن المعايير العليا.

في هذا السؤال النبوي تنكشف لنا وظيفة السؤال بوصفه أداة للتمييز بين ما يُشبهه الإحسان لكنه في حقيقته جورٌ مستتر؛ فما ظنّه الأب كرمًا لابنه فضحه ميزان النبوة بأنّه ظلم لغيره.

وكأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: التمييز في العطاء ليس حُبًّا ولكنه جرحٌ في ثقة الأبناء ونقض لعقد الأبوة العادل.

وهكذا يتحوّل هذا السؤال البسيط إلى نصّ تربويّ شامل يُرسي في الضمير الجمعي أنّ العدل لا يُجزأ، وأنّ صغائر الانحرافات التربوية اليوم هي بذور الظلم الاجتماعي غدًا.

فهل وعينا اليوم هذا المبدأ النبوي في مدارسنا، في تقسيم الفرص بين أبنائنا، وفي توزيع الاهتمام بين الطلبة، وفي اختيار العاملين في مؤسساتنا؟ أم أنّنا ما نزال نُكرّر مأساة التمييز في صورة (حبّ خاص) أو (حالة استثنائية) دون أن نسأل أنفسنا: (أعطينا الجميع مثل هذا؟).



## ٥ سابعاً: السؤال الحاني في مواطن الألم.. من وصف العلة إلى تأويل الرحمة

لم يكن السؤال النبوي مجرد استفسار عن حالٍ عابرٍ ولكنه كان اختراقاً لطيات الألم في النفس، وإعادة تشكيل معنى البلاء في الوجدان، وترقية للحس الإيماني من شكوى الجسد إلى رجاء الروح؛ فحين دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أم السائب، ووجدها تزفرف - أي تضطرب من الحمى - لم يلق موعظة علوية ولم يُصدر حكماً تأديبياً، ولكنه بدأ بسؤالٍ حانٍ: «مالك تزفرفين؟»<sup>(١)</sup>.

سؤال بسيط في ظاهره لكنه يخترق التعبير الجسدي ليقراً ما وراءه من ضيقٍ باطنيٍّ وانفعالٍ وجدانيٍّ؛ سؤالٌ يمنح المريض حقَّ التعبير ويفتح له باب البوح، ويجرّه من عقدة الإنكار أو الشعور بالضعف.

وحيث أجابت المرأة وقد أخذ منها الوجدع مأخذاً: (الحمى، لا بَارَكَ اللهُ فِيهَا) لم يُبادر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوبيخ، ولكنه نقل المعنى من عالم الضيق إلى أفق العبودية الرحيم إذ قال: «لا تُسبِّي الحمى؛ فَإِنَّهَا تُدْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُدْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ».

ففي هذا الجواب انقلاب في المفهوم لا في الشعور؛ إذ لم يُلغ النبي الألم لكنه منحه تأويلاً جديداً؛ فالحمى التي كانت عندها لعنة صارت في فقه النبوة كيراً إلهياً يُنقى الروح ويجرق أدرانها الخفية ويصهر خطاياها كما يصهر الكبر خبث الحديد.

إنه درس عميق في التربية الوجدانية يُحيل الأسمى إلى معنى، والوجدع إلى ترقٍّ، ويُحرّر الإنسان من التذمّر عبر استبصار الرحمة الكامنة في قسوة الظاهر.

(١) أخرجه مسلم .



السؤال النبويّ هنا لا يُزيل الألم ولكنه يعيد تعريفه؛ فلا يُطفئ الحمى ولكنه يُنبت في حرارتها رجاءً، لا يُسكت الجوع وإنّما يرفعه إلى مقامٍ يسمو فيه الحرمان على الشكوى وتغدو الآهة تسيبًا في محراب البلاء.

فهل نملك اليوم هذا الحسّ النبويّ؟ هل نسأل مرضانا عن وجدانهم وليس عن أعراضهم فقط؟ هل نعلّم أبناءنا أن الألم ليس عدوًّا دائمًا ولكنه قد يكون رسولَ بقطة من غفلة، أو مفتاحًا لرحمةٍ نازلة؟ ذلك هو السؤال الذي لا يُطرح على المريض فقط وإنّما على الطبيب والمربيّ والخطيب وكل من وُهب لسائناً في حضرة العابرين من نار الابتلاء.

وفي طريق العودة من غزوة (ذات الرقاع)، لم يكن الزمن هو الزمن، ولا الرفقة مجرد مسير جماعيّ صوب المدينة ولكنها كانت مدرسة نبوية مفتوحة تحت ظلال الشجر، وعلى صهوات الجمال، وفي زفرات التعب التي تخرج من صدور الجنود المتعبين.

يتخلف جابر بن عبد الله رضي الله عنهما على جملٍ هزيل لا يقوى على مجارة الركب، فلا يتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلفية المشهد، ولا يُرسل أحد الصحابة ليواسيه، ولكنه يعود إليه بنفسه؛ إنها المحبة التي لا تعترف بهرم القيادة الفوقية، ولكنها تنزل حيث يتعثّر الإنسان لتقول له: لست وحدك.

يسأله النبي صلى الله عليه وسلم السؤال الأبوي البليغ في بساطته: «مالك يا جابر؟»<sup>(١)</sup> وهذا ليس سؤال تفتيش ولكنه سؤال تلطّف، يسبق الإصلاح بالإنصات، ويثبت للمخاطب أن مشكلته ليست صغيرة في عين النبوة، وأنه مهما بدا خارج السياق فإنّ في صدر الرسول متسعاً لهمّه.

(١) أخرجه البخاري ومسلم.



يقول جابر: (يا رسولَ الله، أبطأ بي جملي هذا)، فيطلب منه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُنيخَ الجمَل ويطلب منه عودًا لا ليصلحَ الجمَل فقط وإنما ليشعر جابر بأنه مشارك في الحل وأنه ليس محض محلٍّ للإحسان.

ثم يلمس النبي البعير لمسات خفيفة كمن يُرَبِّت على جرح حيٍّ، فيتحوّل الجمَل الضعيف إلى منافسٍ لناقة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى (والذي بعثه بالحقّ يُواهِقُ ناقته مُواهِقَةً) سابقها وتسبقه؛ إنها كرامةٌ لكن ليس للجمَل بل لصاحبه الذي ظنَّ أنه في الهامش فصار في الصدارة.

والأعجب أن النبي لا يترك جابر ليعيش نشوة الانتصار فحسب ولكنه يدخل معه في حديثٍ روحيٍّ عذب؛ حديث الإنسان للإنسان لا الأمير للجندي؛ فيسأله: «أتبيعي جملك هذا يا جابر؟» وفي هذا السؤال منطق جديد للعطاء؛ فالنبي لا يأخذ إلا بشراءٍ وحين يهّم جابر أن يهبه الجمَل يردّ عليه النبي بلطف قاطع: (لا، ولكنّ بعني)، ثم يفاضه كما يُساوم التاجر في السوق لا النبي مع التلميذ؛ فيرفع السعر من درهم إلى درهين ثم إلى أوقية.

إنها مدرسة في العدالة النبوية؛ أن لا يُستغل الحب، وأن لا يُشوّه الكرم بنزعة الاستغلال المقنّع، ثمّ وقد انتهى البيع فلا ينصرف النبي إلى ركبته ولكنه يبدأ حديثاً أشد رقةً، وأعمق إنسانيةً.

يسأله: «يا جابر، هل تزوّجت بعد؟» ويحييه جابر ببساطة: (نعم)، فيتابع النبي بأسئلته: «بكرًا أم ثيبًا؟» وحين يعلم أنها ثيب يتعجب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمن يسأل من زاوية الحبّ والمرح: «أفلا جاريةٌ تُلاعِبُها، وتُلاعِبُكَ» وهنا تخرج الحكمة من قلب جابر لتكشف عن إنسانية عظيمة مغروسة في التربة النبوية، إذ يقول: (يا رسولَ الله، إنّ أبي أُصيبَ يومَ أُحدٍ، وتركَ بناتٍ له سبعا، فنكحتُ



امرأة جامعة تجمع رؤوسهنّ، وتقوم عليهنّ)، فرددّ عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَرَّراً بحكمة الاختيار: «أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

إنّها لحظة نادرة تتجلّى فيها كلّ معاني النبوة الإنسانية؛ نبيّ يسير في آخر القافلة لا ليتفقد الجمال وإنّما ليواسي القلوب، نبيّ يشتري ما أهدى إليه ليحفظ للناس كرامتهم، نبيّ يسأل عن الزواج لا من باب الفضول ولكن من باب الرحمة التي ترى في الحياة كلها منظومة قيم، نبيّ لا يعلم فقط ولكنّه يُنصت أيضاً ويبارك خيارات أصحابه ولا يفرض عليهم اختياراته.

في هذا المشهد الطويل يتحوّل السؤال من أداة معرفية إلى مرآة للرحمة، ومن وسيلة تعلّم إلى رفقة تُغني عن كثير من الدروس.

ويا ليت أهل السّلطة اليوم يتعلّمون من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لا يتعلّمون كيف يقودون القوافل فحسب ولكن كيف يعودون إلى المتخلفين في آخرها، ويسألونهم ولا يكون هدفهم أن يفتشوا عن تقصيرهم بل ليرمّوا جراحهم، ويُسرّعوا خطاهم، ويرفعوا قدرهم بالسؤال لا بالتوبيخ.

وهكذا يحفر السؤال النبويّ في قلوب المنهكين مساراً نحو الإشراق، فلا يمرّ على الألم مرور الواعظ المجرد ولكنّه يدخل إلى صميمه ويعيد بناءه بلغة الرّحمة، ويستخرج من قسوته نوراً يُضيء للناس طريق الإيثار الراشد.



## ٥ ثامناً: السؤال لتبديل مقاييس الفلاح والفشل نحو الآخرة، نقد المفاهيم الشائعة وتحرير العقل من أسر المعايير الدنيوية

في قاعة الهدى النبوي لبناء الوعي لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكتفي بأن يُعلم ما هو الصواب ولكنه كان يبدأ بهدم ما نظنه كذلك، وكانت مهمته الأولى في التربية هي هدم المعايير الزائفة التي رسختها العادات وغلفها الإجماع المجتمعي حتى صارت تبدو وكأنها الحق المطلق.

ولأن المفاهيم إذا لم تُحَاكَم تحوَّلت إلى أصنام غير مرئية فقد جعل النبي السؤال أداة لاكتشاف هذه الأصنام وكشف الغطاء عن تضليلها، وكان من أعجب أمثله في ذلك سؤاله البليغ: «تَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»<sup>(١)</sup>، سؤال ظاهره عادي لكنه يُضمّر زلزلة كاملة لمقاييس الناس؛ فالمفلس في لغة السوق وفي عرف المجتمع هو من لا مال له ولا متاع، لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يرضى بتعريف يُقضي الآخرة، أو يُقرّم الإنسان إلى جيب فارغ؛ لذا أعاد رسم المفهوم بمقياس الآخرة لا الدنيا، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَدَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَيِّتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

هذا الجواب ليس بياناً عابراً ولكنه انقلاب معرفي جذري في تصور الإنسان عن النجاح والفشل، فالمفلس ليس من لم يملك ولكنه من لم يحسن إدارة رصيده

(١) أخرجه مسلم.



الأخلاقي، والمفلح ليس من صام وصلّى فقط وإنّما من حمى عباداته من التهام الغضب والغيبة والظلم.

هذا السؤال يحرّر النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الوعي من قيد الطقوس المجزأة التي يُظنّ أنها تكفي وحدها للنجاة ويؤسّس معيارًا مركّبًا للفلاح؛ عبادة تُرضي الله تعالى وخلق يرضي خلق الله تعالى إلى وخلق يستوعب خلق الله تعالى.

إنها لحظة فاصلة بين دين يُتجزّل في مناسك ودين يُترجم إلى سلوك، وهي اللّحظة التي يُعاد فيها تعريف الخسارة؛ ليست قلة المال ولكنها كثرة الخصومات، ويُعاد فيها تعريف الربح؛ ليس بالأرصدة وإنّما بنظافة السجّل الأخلاقي.

لقد كان هذا السؤال النبوي ككلّ أسئلته؛ مفتاحًا لنقل الأمة من حساب السوق إلى حساب القيامة، من فقه الجيوب إلى فقه القلوب، ومن ثقافة (ما أملك) إلى ثقافة (ما أديتُ من حقّ الناس).

في مدرسة النبوة لا يُكتفى بأن تكون عابدًا ولكن يجب أن تكون أمينًا، نزيهًا، رفيقًا، صادقًا، لأن العبادات التي لا تحجزك عن الأذى تُحذف من رصيدك في ساعة الحساب.



## ٥ خلاصة: السّؤال النبوي؛ جذوة العقل ونبض الرّوح

لم تكن أسئلة النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كلماتٍ عابرة في سياق تعليمي وإنما كانت ضوءاً يُنار به الطريق، ومرآة يُبصر بها الناس أنفسهم، ومِعولاً يهدم أصنام المعنى الزائف في العقول.

كان يسأل وليس الهدف أن يملأ الفراغ بالجواب وإنما أن يفجّر في القلوب شرارة التفكير، ويوقظ في الأرواح حيناً إلى الحقيقة، ويُخرج الناس من صمت التلقي إلى فضاء المشاكسة المعرفيّة.

كانت كل لحظة يسأل فيها **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لحظة بعثٍ لعقلٍ كاد أن يُخدر، أو قلبٍ كاد أن يُطفأ، أو وعيٍ كاد أن يُحتزل في ظاهر الطقوس دون جوهر القيم.

لقد ربط النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالسؤال بين الظاهرة اليومية والحقيقة الوجودية، وبين الموقف العارض والرسالة الخالدة، وبين الجسد المتألم والروح المتطهرة، وبين الغضب العابر والأخلاق الراسخة، وبين ألفاظٍ مألوفة ومفاهيم يُعاد بناؤها بمنطق الآخرة.

فالسؤال النبوي لم يكن مجرد أسلوب ولكنه كان مذهباً في التربية، ومنهجاً في إصلاح الإنسان، ووسيلةً لبناء الذات على أسس ربانية عقلية أخلاقية.

وفي زمنٍ تتكدّس فيه المعلومات وتضمّر فيه الحكمة، وتنتفخ فيه الإجابات الجاهزة وتذبل فيه ملكة التساؤل نحن في أمسّ الحاجة إلى استرداد هذا المنهج النبوي لنصوغ به مشروعاً حضارياً يوقظ الإنسان ولا يلقنه، ويفكر معه لا عنه.

فمن ذا الذي يملك ترف الغفلة عن هذا الميراث في زمنٍ أصبح الجواب فيه سلعة والسؤال رجساً من عمل التفكير؟



لقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزرع في كل موقف بذرة سؤال لأنه كان يُريد للحق أن يُفهم لا أن يُتبع تبعية عمياء، وكان يُريد للقلوب أن تُحَبَّ ما آمنت به لا أن ترثه من غير وعي.

هكذا يُصنع الإنسان الرباني فإنه لا يبني بنص جامد ولكن بسؤال حي، ولا يصاغ بوعظٍ يحدّر وإنما بسؤال يُفكّك ليعيد البناء على عينٍ وبصيرة، ومن لا يسأل لا يستطيع أن يؤمن إيماناً يُقيم الدنيا على ساقها بل سيبقى تابعاً في موكبٍ لا يعرف إلى أين يسير.

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

# سؤال الماهية وسؤال الجمالية

## حين تُضيء الدهشةُ جوهر الكينونة



ما الإنسان؟ وما الجمال؟

سؤالان قد يبدوان في ظاهر الأمر منفصلين، أحدهما وجوديٌّ جوهري، والآخر انطباعيٌّ ذوقي، غير أن الحقيقة الأعمق التي يدركها من سار في دروب الحكمة هي أن الماهية لا تُدرك إلا بالجمال، والجمال لا يُعاش إلا بوعي الماهية.

إن سؤال الماهية يبحث عن جوهر الكينونة، عن الحقيقة التي تبرّر الوجود، عن معنى أن تكون لا مجرد أن توجد، لكنّ هذا السؤال إذا ما سلك وحده بعقلٍ تحليليٍّ جافٍّ، تحوّل إلى أنفاق فكرية مظلمة لا يعبرها النور ولا تسكنها الدهشة.

وهنا يأتي سؤال الجمالية ليس بصفته ترفاً أو زخرفاً وإنما بصفته مرآة للوجود وعدسةً شفيفة تبصر الكنه بما لا تراه العيون المجردة.

من هنا نفهم الجمالية شرطاً باطنياً لاستنطاق الوجود، والدهشة ليست مجرد انفعال شعوري ولكنّها الاستجابة الأولى للكينونة حين تشرق في الوعي، فالإنسان لا يعرف نفسه لأنه قرأ كتباً عن الإنسان، وإنما حين يباغته الجمال في مشهدٍ بسيط، أو في نصٍّ صادق، أو في لحظة صمتٍ تهتف فيه الحياة.



وقد تنبّه المفكرون المسلمون المعاصرون إلى هذا التلاقي العميق؛ فالشيخ محمد الغزالي حين حارب الجفاف الفقهي لم يكن يرفض الفقه أو يخاصم المنظومة الفقهية العظيمة، ولكنه كان يستعيده بمعناه الجمالي المتذوق، وكان يراه دعوةً تُعاش وليس طقوساً تُردد.

والشيخ فريد الأنصاري حين كان يتحدث عن بلاغ الجمال والفن القرآني كان يُوقظ فينا فكرةً جوهرية؛ أنّ القرآن لا يكتفي بأن يقول ما هو الحق ولكنه يقوله كما يحبّ القلب أن يُقال؛ وأنّ الدعوة ليست وعظاً أجوف ولكنها فنٌّ يُغذي الروح ويهزّ المعنى.

في هذا الفصل نحاول أن نعيد الاعتبار لهذا التداخل الحيوي بين السؤالين: كيف تُثمر الدهشة فكرًا؟ وكيف يولد الذوق سؤالًا؟ وكيف تُربي أجيالاً ترى في الجمال مدخلًا للمعنى، وفي المعنى سرّ الجمال؟ ذلك أن أزمنا ليست فقط في جهل الماهية وإنما في الابتعاد عن اللغة التي تكشفها، واللغة التي تُكشف بها الماهية ليست دائمًا منطقتًا صارمًا ولكنها قد تكون قصيدة، صورة، همسة، أو ركعة يبكي فيها القلب قبل العين.



## ٥ الدهشة.. الشرارة الأولى في إشعال السؤال

ما من سؤالٍ أصيلٍ وُلد عن سبق تصميم، وما من رحلة معرفةٍ حقيقيةٍ بدأت بنيةٍ باردة، إنَّ أصل كلِّ تحوُّلٍ معرفيٍّ عميقٍ هو لحظةٌ دهشة؛ لحظةٌ تخلع فيها الحياة أفتعتها الرتبية، ويحدث شيءٌ - أي شيءٍ - يجعل الكائن يقف على حافة وجوده، لا يسأل (ما الجواب؟) ولكنه ينفجر فيه السؤال ذاته تجلياً من خارج المنطق، وصوتاً داخلياً يوقظ القلب قبل العقل.

الدهشة لا تُدرِّس ولا تُكتسب من خارج الذات ولا تُحاكى كما تُحاكى المناهج، إنها ترتعش في عمق الكينونة حين يتقاطع الحس بالمعنى، ويشتبك الإدراك بالبصيرة، فيولد السؤال كما يولد النور في عتمةٍ دامسة؛ لا يرى في حد ذاته ولكن به يرى كل شيءٍ.

تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان أنَّ ما حوله لم يعد مفهوماً كما كان، وأنَّ المسلّمات التي سار بها قد تكون أوهاماً منسوجة من تكرار، وأنَّ ما حسبه (معلوماً) لم يكن يوماً مفهوماً؛ تلك هي لحظة الميلاد الحقيقي للفكر، لحظة التصدّع الأولى التي تنكسر فيها هندسة الركود فينبثق سؤالٌ لا يُجاب عليه ولكنه يُعاش.

الدهشة ليست حالة نفسية عابرة ولكنها بنية وجودية تأسيسية تُقيم الجسر بين الماهية والجمالية، بين ما يُدرك بالعقل وما يُبصر بالقلب؛ إذ ما جدوى السؤال عن (الحقيقة) إذا كان القلب قد تحجّر والعين قد خمد فيها البريق؟ وما معنى أن نطلب ماهية الأشياء إن لم نعد نُبصر فنتتها ولا نرتجف أمام عظمتها؟



ليس ثمة سؤال كبيرٌ بلا دهشة، ولا دهشة صادقةٍ لا تُحرِّك السؤال، ومن هنا، فإنَّ التربية على السؤال لا تبدأ من مناهج التفكير ولكن من تربية الحواس على التذوق، وتربية القلب على التوق، وكل مشروع معرفي لا يسكنه التعجب من الوجود، ولا يرتجف فيه الوعي من فرط المجهول، سينتج أجوبةً منطفئةً، وعلومًا بلا حياة.

إنَّنا لا نعرف حين نتعود، ولا نفكر حين نُكرِّر، ولا نُبدع حين نطمئن، ولكننا نبدأ المسير حين نهتزّ ونكسر الاعتقاد وندهش من أنفسنا والعالم والوجود. وحين يُرَبِّي الجيل على أن يرى الجمال في وردة، والعظمة في آية، والغموض في سؤالٍ لم يُطرح بعد يبدأ الإنسان فيهم بوصفه كائنًا يسكنه العطش، وتُضيء دربه الشرارة الأولى؛ الدهشة.



## ○ الجمالية ليست ترفاً؛ إنها شمس الروح حين تضيء جواهر السؤال

الجمال ليس زينة تُعلّق على جدار المعرفة ولا لونا يُضاف إلى لوحة الإدراك ولكنه النور الخفي الذي يكشف للإنسان سرّ وجوده، ويحرّك في داخله السؤال: من أنا؟ وماذا أفعل في هذا العالم؟

إنّ الجمال في جوهره هو شوق إلى الكمال، وإنّ سؤال الجمال ليس سؤالاً عن الشكل وإنّما عن المعنى؛ لماذا نتأثّر بصورة طفلٍ يتسم في خضمّ الحرب؟ لماذا تبكىنا كلمةٌ قيلت بصدق، أو مشهد طبيعيّ يلوّح لنا عند الغروب؟ لأنها توقظ فينا جزءاً من الحقيقة، وتُشعل جذوة السؤال في عمق كينونتنا.

ولعلّ من أكبر آفات عصرنا أن تُفصل الجمالية عن المعرفة، ويُنظر إلى السؤال الجمالي على أنّه سؤال ثانوي أو ترف فكري لا يليق بالمجتهدين في أمور العقيدة أو السياسة أو الاقتصاد؛ لكنّ الحقيقة أنّ المعرفة التي لا تُروى بالجمال تجفّ وتتحجّر وتتحوّل إلى منظومات جامدة تُلقّن وتحفظ ولا تُلهِم.

تأمّل حال التعليم حين ينفصل عن الحُسن؛ تُقرأ المتون ولا تُفهم، وتُحفظ الآيات دون أن تُتذوّق، ويُدرّس الحديث النبوي بلغة جامدة لا تحاكي الوجدان، فتغيب الدهشة ويغيب معها السؤال ويموت النصّ بين أيدينا، ليس لأنّه ميت ولكن لأنّنا قرأناه بلا شغف، وتناولناه بلا حبّ.

وفي المقابل، انظر كيف تحدّث الإمام أبو حامد الغزالي عن الجمال فقال: (واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يجب الجمال ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة، وصفاء اللون، أدرك بحاسة البصر، وإن



كان الجمال بالجلال والعظمة، وعلو الرتبة، وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق، وإفاضتها عليهم على الدوام، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب<sup>(١)</sup>، فكان الجمال عنده طريقاً إلى معرفة الله تعالى لا طريقاً إلى الترف.

ومن الواقع نرى هذا في الفرق بين مسجد بُني بإتقان وروعة هندسية تُراعي البهاء والسكينة دون إغراق في ترف وزخرفة وآخر بُني كصندوق خرساني لا روح فيه؛ الأوّل يُلهِمك أن تُصلي، والثاني يذكرّك بيروقراطية التصاريح والإسمنت! الجمال هنا ليس إضافةً خارجيّةً ولكنّه نافذة تُشرع القلب على الرحمة.

فحين نربّي أبناءنا على الجفاف الفكري، ونغرس فيهم الحفظ دون التدوّق، ونأمرهم أن يتعلّموا دون أن يفرحوا، ونُدّرّسهم (التجويد) دون أن نُسمعهم حلاوة التلاوة، ونعلّمهم (الفقه) دون أن نُذوّقهم طمأنينة الطاعة؛ فإننا نقتل الجمال فيهم، ونختق السؤال في مهده.

إنّ الجمالية لا تُقصي الماهية بل تُضيئها، لأنّ السؤال عن (ما هو) لا ينفصل عن (لماذا بدا بهذا الشكل؟) و(لماذا أثر فيّ هكذا؟)؛ فحين تسأل عن الكون بعين المتأمل فإنك لا تسأل عن تركيبه الكيميائي فقط ولكن عن معناه، عن أثره فيك، عن تلك الرعدة الخفية التي تغمر روحك حين تنظر إلى سماءٍ مرصّعة بالنجوم.

بهذا المعنى؛ فإنّ سؤال الجمالية ليس مجرد ذوق ولكنّه سؤال في جوهر الإنسان، وجوابٌ عن الحاجة إلى اكتمال الرؤية، لأنّ القلب إذا لم يتذوّق الحقيقة فلن يطلبها، وإذا لم يتألّم من نقص الجمال فلن يسعى للكمال.

(١) إحياء علوم الدين ١٥٦/٦.



## ◉ من العقل التحليلي إلى القلب المتذوق؛ مسارات تكامل الوعي

الوعي لا يُبنى في غرفةٍ واحدة ولا ينمو في جهةٍ واحدة من الكائن الإنساني، فهو ليس عمليةً عقليةً صرفة ولا انفعالاً وجدائياً مجرداً ولكنه انبثاقٌ مشترك من تناغم العقل والقلب، من تألف البرهان مع الذوق، من اجتماع التحليل مع الحدس، ومن التحام السؤال المنطقي مع الشعور الجمالي.

فالعقل التحليلي يُشبه المِشرط الذي يفتح الأسئلة ويُفكِّكها إلى عناصرها الأولى، يزن الأدلة، وقيس الاحتمالات، ويبحث عن النظام وسط الفوضى، وهو أداة ضرورية في عالم المعرفة ولكنه حين يستقل عن القلب يبرد ويجفّ ويتحوّل إلى آلة تشغل دون حبّ، تُنتج اليقين دون دهشة وتفكّك الحياة دون أن تراها.

أما القلب المتذوق فهو العين التي ترى النور في ما وراء الظاهر، والإصغاء الذي يسمع المعنى في صمت المعادلات، وهو الذي لا يكفي بأن يفهم (بل يُبصر)، ولا يرضى بأن (يعرف) وإنما أن (يخضع)؛ فمنه ينبع توقّد الذائقة الجمالية، والشعور بروعة الانسجام، والتفاعل مع عمق السؤال كما لو كان صلاةً تُؤدّى وليس تمريناً يُجلى.

في التاريخ لم يكن الأنبياء فلاسفةً عقليين ولكنهم كانوا أصحاب قلوبٍ ملتهبة تتلقّى الوحي بذوقٍ عميق، وتشتبك مع الواقع ببصيرةٍ تُبصر بنور الله تعالى، وسيدنا إبراهيم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** لم يُقدّم مجرد استدلالٍ على بطلان عبادة الكواكب ولكنه رآها - كما في القرآن - بهاءً يخطف الأنظار، ثم شهد أفولها



بوجدانٍ يتقصّى المعنى، وهكذا أتحدت في خطابه نبرة التحليل مع لحن الذوق ليُولد التوحيد يقيناً عابراً للعقل إلى القلب وليس محض فرضية.

وفي حياة الشعوب لا تنشأ النهضة حين تملأ العقول بالمعلومات ولكن حين تُضاء القلوب بالشغف، والمجتمع الذي يُنتج علماء بلا خيال، ومهندسين بلا حلم، وفقهاء بلا تذوق لا يبني حضارةً ولكنه يُقيم مصنعاً كبيراً يخلو من الروح.

فمن العقل التحليلي ينطلق السؤال: (كيف تعمل الأشياء؟) ومن القلب المتذوّق ينبثق السؤال الأعمق: (لماذا تثيرني؟ ماذا تعني لي؟ ما قيمتها في وجودي؟)، وحين تلتقي هاتان الضفتان في لحظةٍ واحدة تُولد الأسئلة التي تُحيي، ويُولد الإنسان الذي لا يكتفي بأن ينجو ولكنه يسعى ليُضيء.

إنّ المعرفة التي تُفكّر بعقلٍ وتتحسّس بقلب هي التي تقود إلى بصيرة، والإنسان الذي يرى بالعقل وحده يُدقق في الألوان ولكنه لا يرى الصورة، والإنسان الذي يُحسّ بالقلب وحده يُعجب بالصورة لكنه لا يفهم النور، أما الإنسان الذي يسير بعينين: عين العقل وعين الذوق فهو الذي يرى الصورة والنور ويكتشف المعنى في كليهما معاً.



## ٥ حين يُولد المعنى من رحم الجمال؛ قصة الإنسان بين الوجود والتذوق

الإنسان لا يُقيم في العالم بوصفه كائنًا واعيًا فحسب وإنما بوصفه كائنًا يتذوق، فالحياة لا تُعاش بالمعادلات وحدها ولا تُفهم بالمفاهيم المجردة فقط ولكنها تُعاش حين يتحد الإدراك مع الإحساس، وحين يولد المعنى من رحم الجمال لا من صرامة التعريف.

ذلك لأن الوجود الإنساني لا يتجلّى فقط في الأسئلة الكبرى عن الأصل والمصير، ولكنه يتجلّى في الدهشة الصغيرة أمام زهرة تتفتح، أو نعمة ترتجف في عصب القلب، أو مشهد يُحدث في الروح ما لا تُحدثه كتب الفلسفة؛ هنا تُولد لحظة نادرة؛ لحظة تتلاقى فيها الجمالية مع الماهية وينكشف جوهر الكائن ليس في صيغته إنما في نوره.

وليس غريباً أن يكون أول خطابٍ إلهي للإنسان في القرآن مشحوناً بالجمال الصوتي والبصري: (أقرأ) ولا يأتي فعلاً عقلياً بارداً ولكنه يأتي نعمةً تهز أركان القلب يتبعها وصف الخلق من (علقة)، في تداخلٍ بين المعجزة البيولوجية والمعنى الرمزي؛ فكأن الله تعالى أراد أن يُعلّم الإنسان أنّ الفهم يبدأ من دهشة الخلق وليس من برود التعريف.

الماهية حين تُفهم بوصفها سؤالاً عن (ما أنا؟)، لا تكتمل دون أن تُلامس سؤال (ما الذي يُحرّكني؟ ما الذي يهزني؟ ما الذي يجعلني أذوب وأنتشي وأدمع وأصمت؟)، وحين يجيب الإنسان عن ذاته بلغة جافة فكأنه يصف الماء بحروفٍ ويمنع عن نفسه الشرب، أمّا حين يتذوق نفسه باعتباره كائنًا مشدوداً بين المعنى



والجمال فإنه يكتشف أنّ وجوده يُقاس بعذوبته، وتُوزن روحه بكم اهتزاز حين عرف.

المصلحون الكبار لم يكونوا حملة فكرٍ فقط ولكنهم كانوا حملة ذوق، ومن هنا كانت كلمتهم مؤثرة وسيرتهم حاضرة؛ محمد إقبال لم يكن مجرد فيلسوف ولكنه شاعرٌ يرى الكون كما يرى اللحن ويُنشِد الحياة كما يرتل الوحي، والغزالي حين كتب عن (إحياء علوم الدين) لم يُرد أن يُعيد ترتيب المعلومات، ولكنه أراد أن يُوقظ الذائقة ليعود الإنسان فيتذوق العبادة لا أن يؤدّيها ويشعر بالحكمة لا أن يكرّرها.

وفي هذا الالتقاء بين الماهية والجمالية تظهر التربية الحقّة؛ التربية التي تُحرّك العقل ولكنها أيضًا تُثير القلب فحين نُربي أبناءنا على أن يفهموا الكون كما يفهم المهندس البناء دون أن يروه كما يرى العاشق حبيبته نكون قد قدمنا لهم أدوات التحليل وحرّمناهم مفاتيح الاندهاش.

هكذا يكون الإنسان الكامل من جمع بين الفهم والذوق، بين منطق العقل وعاطفة الجمال، بين الشكّ الذي يُفتّش والتذوق الذي يُنير.

ذلك الإنسان لا يقف أمام الكون باعتباره عالمًا يبحث عن قوانين، ولا مستهلكًا يبحث عن نفع، وإنما باعتباره محبًا يبحث عن معنى، وكأنّ الحياة كلها لوحة تنتظر من يُبصرها بعينٍ مشتعلة، ولسانٍ يُنشِد: ما أجملك أيّها السرّ العظيم!



## ◉ تمظهرات الأزمة؛ حين غابت الجمالية ففقدنا الماهية

حين أُقصيت الجمالية من البناء الحضاري لم نخسر الزينة ولكننا فقدنا البوصلة، ولم نفقد الألوان ولكن انطفأت المعاني؛ لأنّ الجمال ليس ترفاً تُرفّه به أنفسنا بعد أن نُنجز (الضروريات) بل هو الضرورة نفسها، هو المعنى الذي يُبهج الكينونة ويُعطي الوجود نكهته ويجعل الحقيقة مرئية وليست موصوفة.

إنّ الإنسان لا يعرف نفسه في مرآة الأفكار المجردة وحدها ولكنه يعرفها حين يرى انعكاسها في جمالٍ يهزّ كيانه، ومنذ أن تجرّدت ثقافتنا من الجمالية تحوّل (الوعي) إلى آلة تحليل باردة تحاكم الأشياء ولكن لا تحبّها، تنقد المفاهيم ولكن لا تُضيئها، فغابت الحميمية من الفهم وغدت المعرفة طقساً جافاً لا يُثمر إلاّ جدلاً دون انفعالٍ وجودي.

ومن تمظهرات هذا الغياب أنّ الشاب المعاصر بات يتعامل مع المفاهيم الكبرى - كالإيمان، والانتماء، والوطن، والرسالة، والحرية - بوصفها ملفاتٍ ذهنيةً متراكمة وليست نوافذ تطلّ على أسرار الروح؛ فلم يعد يستشعر في التوحيد دهشة التفرد، ولا في الصلاة سموّ العروج، ولا في القرآن سحرَ التجلي، بل صار كلّ ذلك دروساً محفوظة، وأحكاماً مفصّلة، وفروضاً تُؤدّى بآلية لا تُشعل القلب، كأنّه يقف أمام قصيدة عظيمة لكنه يقرأها بعين المحاسب وليس بعين العاشق.

وغاب الجمال عن السياسة كذلك؛ فصارت السلطة قمعاً، والشورى صراعاً، والحرية صراعاً، فلم يعد الحاكم يُنظر إليه بوصفه راعياً للجمال في حياة الناس، ولكن باعتباره مديراً للسيطرة، وصار ينظر إلى الدولة على أنّها مؤسسة ترابية



للردع والجبابة ولبست حالة فن لصناعة التوازن العام، وفقدت السباسة بعبها الجمالي ففقدت معناها؛ لأن كل سباسة لا تُنتج جمالاً لا تُنتج إنساناً.

وفي المعمار حين تحوّلت المدينة إلى مربعات إسمنتية خانقة فقدت أرواح الناس القدرة على الانتماء، وصار البيت مكاناً للنوم وليس وطناً، والشارع ممراً منسلخاً عن الذاكرة، والمسجد قاعة للمواعظ لا حديقة أرواح؛ لأن الجمال حين يُغيب من تخطيط العمران يُغيب من شعور الإنسان.

وفي التعليم لم تعد المناهج تُصاغ لتُحبب المعرفة إلى القلب وإنما لتُدجن الفكر وتُغلق السؤال، فغدا الطالب متلقياً مرهقاً وليس مكتشفاً متحمساً، وصار المتعلم مجرد جسدٍ يجلس على مقعد وليس روحاً تحلق فوق الكتب فمات الدهشة في القاعات وصار (النجاح) هو الحفظ لا التذوق.

إن الجمال لا يكون في الزخارف ولا في الترف ولكنه يتجلى في أن تُنير الكلمة الصادقة القلب، وأن يكون الفعل منسجماً مع القيم، وأن يُعبر الشكل عن الروح؛ وحين تغيب هذه الوحدة يفقد الإنسان صلته بباهيته ويغدو غريباً حتى عن نفسه كأنه يعيش حياةً مُستعارة لا ذاتاً تُولد وتنبض.



## ○ نحو فلسفة سؤال متكاملة؛ تتأمل وتتلذذ، تعقل وتُبصر، تبحث وتتذوق

كما أسلفنا لم يكن السؤال في حقيقته فعلاً معرفياً فقط إنما هو فعلٌ وجودي يُعيد تشكيل الإنسان من الداخل؛ لأنَّ من يسأل لا يطلب معلومة ولكنه ينادي على نفسه لتقوم، وعلى قلبه ليستيقظ، وعلى وعيه ليتحرّر.

والسؤال حين يُحتزل في مجرّد وظيفة ذهنية تحليلية يغدو أداةً لتفكيك الواقع دون فهمه، آلةٌ لتشريح الحقيقة دون ملاقاتها، غير أنّه حين يُعاد إلى مقامه الفلسفي العميق يُصبح أفقاً للتكوين، ورحلةً للبحث عن الجمال في المعنى، والنور في الإدراك، والحياة في الفهم.

فلسفة السؤال ليست أن نسأل فحسب ولكن أن نُحسن كيف نسأل، ومتى، ولماذا؛ أن نربّي في أرواحنا قدرةً على التأمل العميق، كما نُنمّي في عقولنا مهارة التحليل الصارم.

إنّها فلسفة لا تفصل بين (العقل المفكّر) و(القلب المتذوّق)، لأنّ الإنسان الكامل لا يفهم الأشياء فقط ولكنه يُبصرها، يراها بعين البصيرة لا بعين الجارحة، يرى في السؤال مقاماً روحياً قبل أن يكون أداة عقلية.

وليس من سؤالٍ حقيقيٍّ إلا وفيه حنينٌ إلى معنى ما ولو كان دفيناً؛ إذ في عمق كلّ سؤال أصيل يوجد قلق وجودي، وتوق إلى الفهم، وجوع إلى الطمأنينة، وجمالٌ يتوارى خلف الحُجُب ينتظر من يكشفه.

فحين يسأل الشاب عن (معنى الحياة) فهو لا يُجري اختباراً فلسفياً ولكنه يئنّ من الداخل ويطلب يقيناً يستقرّ فيه قلبه، وحين تسأل الفتاة عن (الهوية) فهي



لا تؤدي واجباً معرفياً ولكنها تحاول أن تلمّ شتات ذاتها في عالم يطحن النساء بمكائن الحداثة المفرغة.

السؤال بهذا المعنى ليس مشروفاً أكاديمياً فقط ولكنه مسارٌ عيش، وسلوكٌ روحي، وخطوة في طريق التذوق؛ فالمؤمن الحقيقي يسأل ليقرب من الله تعالى وليكون في كل سؤال له قلبٌ خاشع، ونيةٌ صادقة، وطلبٌ للحق كما هو لا كما تُريده الأهواء.

إن فلسفة السؤال المتكاملة تنبع من وحدة الوعي لا من ازدواجيته؛ من عقلٍ يُفكّر، وروحٍ تُحبّ، وعينٍ تُبصر، وذوقٍ يتلذذ؛ وهي لا تنفصل عن الجمال، ولا تفرّ من المعاناة، ولا تخجل من الدهشة، ولا تسخر من السكون، ولكنها تُدرك أن التوحيد في أسمى معانيه هو توحيد مسارات الإدراك داخل النفس الواحدة؛ أن يكون السؤال توحيدياً في جوهره فلا يقسم الإنسان على ذاته بين ذهنٍ وعاطفة، بين عقلٍ وإيمان، بين فكرةٍ وذوقٍ.

إن السؤال الذي لا يُوقظ فينا الذائقة الجمالية، ولا يُضيء شمعةً في عمقنا، ولا يدفعنا لأن نبكي من شدة الفهم، أو نبتسم من شدة التجلي؛ ليس سؤالاً حياً ولكنه ظلّ سؤالٍ، أو محض شكل فارغ من المعنى.

فيا من يكتب، ويا من يطلب، ويا من يسأل: اجعل سؤالك فعلاً كاملاً، فيه الشوق، وفيه العقل، وفيه الدهشة، وفيه الذوق.

اجعله طريقاً إلى الله تعالى لا ورقة امتحان، واجعله ورداً يومياً وليس طقساً ظرفياً، واجعله حبلاً بينك وبينك، يُعيد إليك ذاتك التي تناثرت بين المعلومات، والتي تشتاق أن تعود إليك، نقيّة؛ حائرة؛ متبتلة؛ تسأل، لا من أجل أن تنتصر ولكن لتنصهر.



ويا من يسأل عن الماهية: لا تفتش عنها في المختبر وحده، فتش عنها في القصيدة، في المئذنة، في حنان الأم، في ارتعاشة القلب وهو يحدق في لوحة، أو يبكي أمام سجدة، أو يرتجف من كلمة، أو يبتسم حين يرى العدالة تتجسد في سلوك إنسان.

حين يعود الجمال إلى الأسئلة، يعود الإنسان إلى نفسه، بوصفه كينونة عاشقة، تسأل لتفهم، وتفهم لتذوق، وتلذذ لتتقرب من الحقيقة.

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

# تجليات وتمظهرات أزمة السؤال عند الشباب



أزمة الشباب اليوم ليست في انعدام المعرفة وإنما في عجزهم عن التوجّه نحوها بسؤالٍ أصيلٍ يخرج من أعماقهم وليس من فوهات المنصّات. الوعي المعاصر مشبعٌ بالأجوبة حدّ التورّم؛ لكنّه جائع إلى السؤال النابع من قلقٍ حقيقيٍّ، من مواجهة الذات في مرآة الوجود لا من مراوغة لغويّة في دوامة الأفكار.

لقد غدا الشابُّ محاطًا بكلّ ما يُقال، ولا يكاد يعرف ما يجب أن يُسأل؛ لأنّه نُزع من مركزه الوجودي، ولم يُربَّ على التوتّر المعرفي الذي يجعل من الإنسان كائنًا باحثًا لا متلقّيًا؛ فمات فيه لحظة الدهشة الأولى، تلك التي تجعل من النظرة إلى وردةٍ أو مقبرةٍ أو إلى صلاةٍ أو صفحةٍ شرارةً لتكوّن سؤالاً يُشعل وجوده كله.

وفي زمنٍ اختلطت فيه الأصوات بالصدى، وتكاثرت المنصّات وتناقصت البصائر، تمظهرت أزمة السؤال عند الشباب بأشكالٍ خفيّةٍ وموحشةٍ، وإنّ دراسة هذه التجليات ليست رصدًا اجتماعيًا لظاهرة، ولكنها نداءٌ لإيقاظ الشعلة المطفأة في الداخل؛ إنها محاولة لاكتشاف الفراغات التي تُعيق المعرفة،



وتسمم الروح ببطء دون أن تظهر، وهي تفكيكٌ لمكانن الخرس الفكريّ الذي يشلّ حركة النضج ويجعل الشابَّ سهلَ الانقياد لأيّ فكرة صاخبة أو جماعة متشدّدة أو تفاهةٍ جماهيرية.

إنّنا لا ندرس تمظهرات أزمة السّؤال لمجرد تشخيصها، وإنّما لنستعيد (السؤال) بوصفه حقاً وجودياً، وكرامةً عقلية، وبوصلةً أخلاقية، نعيد الشابَّ إلى مركز ذاته ليبدأ رحلته باستكشاف الطريق والسؤال عنه لا السير فيه تقليداً للسائرين فيه.



## ○ أولاً: انكفاء العقل عن المعنى وانشغاله بسطح الأشياء

حين تنطفئ جذوة السؤال الوجودي في النفس لا تترك فراغاً محاييداً وإنما تفتح الباب لفيض من الأسئلة السطحية، واللّهات خلف الصور المتقلّبة؛ فيعيش الإنسان مأخوذاً بما يلمع لا بما يضيء، وبما يُسلي لا بما يُنبه، وبما يملأ الوقت وليس بما يملأ المعنى، وهكذا ينكفئ العقل عن وظيفته العظمى في التفكير والسبر والتنقيب، ويغرق في سكر التفاصيل التافهة حتى ينسى أنه خلُق للبحث عن الحقيقة وليس لاجترار الفتات.

يقول الفيلسوف الكندي سورين كيركغور الذي يعدّ أول فيلسوف وجودي: (ما أحتاجه حقاً هو أن أكون واضحاً بشأن ما يجب أن أفعله، وليس ما يجب أن أعرفه، إلا فيما يتعلق بالمعرفة التي تسبق كل فعل؛ ما يهم هو إيجاد غاية، لمعرفة ما الذي يريد مني الله حقاً أن أفعله؛ الشيء المهم هو العثور على الحقيقة التي هي حقيقة بالنسبة لي، لإيجاد الفكرة التي أنا على استعداد للعيش والموت من أجلها)<sup>(١)</sup>.

لم يعد الشباب اليوم يهرب من السؤال ولكنّه غدا يهرب من وجوده بوصفه سائلاً؛ إنهم لا يرفضون الإجابة عن (من أنا؟) أو (لماذا أنا هنا؟)، بل إنهم لا يجروون على فتح الباب الذي تأتي منه هذه الأسئلة، فيملؤونه بكل ما يغنيهم عن سماع طرقه، وفي مقدمة هذه الملهيات (الريلز).

إذ تُعدّ (الريلز)؛ تلك المقاطع القصيرة المتتابعة التي تُمطر كالكسيل مرآة دقيقة لأزمة السؤال؛ فليس الخطر فيها أنها مضيعة للوقت فحسب ولكن في أنها

(١) يوميات ومذكرات سورين كيركغور، بتاريخ ١ أغسطس ١٨٣٥م.



تُعيد برمجة العقل ليكره الطول، ويضيق بالعمق، وينفر من التساؤل؛ فبين كل لقطة ولقطة، وبين كل صوت وضحكة ورقصة ونصيحة ونكتة يفتت الوعي والعقل وتنشطى النفس في مئة اتجاه ولا تكتمل في واحد.

الريلز لا تقتل الفكر لأنها تقدّم محتوى تافهاً فقط وإنّما لأنّها تمنح العقل وهم الاكتفاء، وتُحدّر القلق المعرفي، وتُشبع الجوع المعنوي بوجبات بصرية سريعة تُغلق شهية السؤال؛ فهي تُشبه الكافيين النفسي؛ ترفعك للحظة لتسقط بعدها في دوخة الخواء.

والأخطر من ذلك أنها تعلّمك الزهد في العمق، فما لم يُقل في عشر ثوانٍ لا يستحق الاستماع، وما لا يُضحك أو يُبهر فوراً لا يُحتمل، وما لا يحفز المشاعر اللحظية يُرمى في بحر النسيان، وهكذا يُعاد تشكيل بنية الدماغ لتتظر الإثارة القادمة وليس لأجل أن تُنتج سؤالاً عميقاً.

وكذلك متابعة التافهين التي تمثّل احتلال العرش الرمزي للفكر؛ ففي قلب هذه الأزمة يظهر نموذج جديد من (القدوة الجماهيرية)؛ التافه، الفارغ، الذي لا يقدر معنى ولا ينير درباً لكنه يُغري بالمشاهدات، ويُبهج بالضحكات، ويُرضي نزعة التشوّف والاستهلاك، وهنا تنتقل من أزمة الفكر إلى احتلال التافهين لعرش الوعي.

الأمر ليس ناتجاً عن خلل أخلاقي فقط ولكنه ناتجٌ عن انسحاب السؤال من موقع القيادة في حياة الشاب، وعن الانقلاب القيمي الذي يجعل من (المثري) أهم من (المعقول)، ومن (المشهور) أهم من (المُحترم)، ومن (المُثير) أهم من (الصادق).



وحين يتقدّم التافهون إلى منصة التأثير لا يصبحون مجرد رموز للضحالة ولكنهم يُرسّخون نظاماً قيمياً جديداً يتم فيه تسفيه كل سؤال جاد، والسخرية من كل انشغال بالحقيقة، وتهميش كل من يحاول أن يُنقّب في نفسه عن معنى .

إنّ أعمق ما في المأساة المعاصرة هو أن يتحوّل غياب السؤال إلى أسلوب حياة وأن يستيقظ الشاب كل صباح ليرى ماذا فاتته من (الريلز)، ويُخلّق بضحكاته فوق هاوية روحه الخاوية، وينام كل ليلة متخدرًا بوهم المعنى وقد ماتت فيه تلك الارتعاشة التي كانت تسأله في صمته: (من أنت؟ وماذا تصنع بحياتك؟).

إنّ الشيطان لا يهيمه أن تُخطئ بقدر ما يهيمه أن (لا تسأل) أصلاً، لأن من لا يسأل لا يهتدي، ومن لا يهتدي لا يعيش ولكنه يستهلك ما يُعرض عليه حتى يفقد ذاته .



## ٥ ثانيًا: اغتراب السؤال عن جذره الحضاري وتمزّقه في هواء الثقافة الوافدة

لا يمكننا اعتبار كل سؤال يُطرح منتجًا للوعي بالضرورة؛ فثمة أسئلة تُقال بأفواهنا ولكنها لا تخرج من أعماقنا وإنّما من أفواه ثقافات أخرى تسكن الشاشات وتبني ذائقتنا دون أن نشعر، وهكذا يصبح السؤال غريبًا عن بيئته، نابتًا في هواءٍ لا يُنبت، ومفتقدًا لجذرٍ حضاريٍّ يمدّه بالحياة.

إنّ أخطر ما في الاستعمار الثقافي أنه لا يفرض علينا أن نُجيب عن أسئلته ولكنه يُعري عقولنا أن نطرحها ويصوّرنا لنا على أنها قضايا وجودية مُلحّة، بينما هي في كثير من الأحيان قفازات فكرية مستوردة لا تُناسب أيدينا، والنتيجة؛ سؤال تائه لا يجد جوابًا ليس لأنه صعب وإنّما لأنه غريب.

وكما يقول مالك بن نبي في (شروط النهضة): (الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النّفس ذاتها التي تقبل ذلّ الاستعمار والتي تمكّن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذلّ مستعمر، وتخلّصت من تلك الرّوح التي تؤهلها للاستعمار) ثمّ يضيف: (الحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كلّ منتجاتها ومصنوعاتها، لأنّ الحضارة إبداع وليست تقليدًا أو استسلامًا وتبعية كما يظنّ الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى؛ فبعض القيم لا تباع ولا تشتري ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة جهد متواصل أو هبه تهبها السماء كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة ويضع الخير في قلوب الأبرار)<sup>(١)</sup>.

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي: ٣١.



والسؤال حين يُقتطع من تاريخه الحضاري ويُستزعر في تربة لا يفهمها يكون كالشجرة المنقولة من أرضها؛ قد تملك شكلاً لكنّها لا تثمر ولا تظل ولا تعيش؛ تماماً كمن يسأل عن (المساكنة) من منطلق الحرية الفردية المطلقة في مجتمعٍ تشكّلت أعماقه على تصورٍ منبثق من التوحيد للعلاقات الإنسانية، فهو يربط بين الغريزة والمقصد، بين الفطرة والحدّ، بين الجسد والروح.

رأينا ذات مرّة في أحد البرامج التلفزيونية شاباً يسأله المذيع في الشارع: (ما رأيك في المساكنة؟)، فيجيب بثقة غير نابعة من فكرٍ بل من استهلاكٍ بصريٍّ: (شيء عادي، طالما هناك رضی متبادل) هنا لا نتحدث عن (حرية رأي) ولكننا نتحدث عن غربة السؤال عن وجدان أمةٍ وتحوّله إلى صدى لما يُقال في ثقافات أخرى وذلك ليس لأنه نابع من حاجة داخلية وإنّما لأنه يبدو (عصرياً)، (تحرّرياً)، (متقدّماً).

ومثلها؛ طالبة جامعية تسأل أستاذها في ندوة فكرية: (لماذا لا يُسمح لنا بالعلاقات المفتوحة طالما أنها برضى الطرفين؟)، وهي في ظاهرها تسأل لكن في باطن السؤال اغترابٌ مزدوج، اغتراب عن اللغة الفقهية التي تربط العلاقة بمقصدتها ومآلها، واغتراب عن مفهوم الحرية الإسلامية بوصفها تحرّراً من هوى النفس وليس استجابة له.

المفارقة هنا أن السؤال ليس خاطئاً لأنه (محرم) وإنّما لأنه منبثٌّ فهو يتساءل عن بنية لا تشبه بنية المجتمع الذي يُلقى فيه، ولأنه يُفكّر بمفاهيم مستوردة دون أن يعيد تفكيكها وقياسها على منظومته القيمية؛ ف(الحرية) في الغرب تقوم على استقلال الفرد عن أيّة مرجعية عليا بينما في الإسلام تقوم على تحرّره من هواه وتعبّده لله تعالى، فكيف نطرح نفس الأسئلة ونحن ننطلق من أصليين مختلفين؟



إنَّ السؤال الذي لا يمرّ من القلب والضمير والتاريخ لا يُضيء ولكنّه يُربك، فالسؤال ليس استيراداً ولكنّه استيعاب، وهو وعيٌ بالسياق والمأل، ولا يصير السؤال حقيقةً إلا إذا كان نتاج قلق حضاري داخلي وليس مجرد صدئٍ لقلق الآخرين.

وهنا يكون دور المفكر والداعية والمعلّم أن لا يقوم بإدانة هذه الأسئلة ولكن أن يقوم بتفكيك بُناها، والعودة بها إلى جذورها، ومحكمة المفاهيم التي انبثقت منها ليعيد ربطها بسياقها الصحيح فيفهم السائل حينها لماذا يبدو له الحق (قيداً) والباطل (تحرّراً).

فالسؤال الوافد إذا لم يُستقبل بنقد واع يتحوّل إلى حصان طروادة ويبدو بريئاً لكنه يحمل في طيّاته تفكيكاً تدريجياً لمنظومة القيم ليس بالإقناع وإنما بالتكرار الموصل إلى الترويض.



## ٥ ثالثاً: الرّكون إلى سطح السؤال دون الغوص في لبّه الوجودي؛ ليست كل الأسئلة العظيمة عظيمة حقاً

ثمة أسئلة تُطرح فتبدو في ظاهرها عميقة، متمرّدة، واعية، لكنها في حقيقتها ليست سوى زبّد معرفي يتكاثر على شاطئ الثقافة مع كل موجة جديدة دون أن ينطلق من بنية مفهومية صلبة أو يشقّ طريقه إلى جوهر الأشياء؛ إنه سؤال يصرخ لكنه لا يُنقّب، يهزّ السطح لكنه لا يزلزل الأعماق.

لقد استهلكنا زمناً طويلاً ونحن نُردّد أسئلة الآخرين بصيغنا ولم نكن نبحث عن حقيقتنا فيها ولكنّا كنا نمنح أنفسنا وهم الحضور في معركة لا نخوضها أصلاً، وهكذا تحوّلنا إلى كائنات تسأل خارج التاريخ، تدور في فلك الأحداث دون أن تصنعها، وتصرخ في المسارح التي تُدار من خلف الستار.

نحن مع من؟ ضد من؟؛ أسئلة تُطرح كلما اشتعلت معركة في عالم مُربك؛ معركة بين طرفين كلاهما عدوٌّ لنا، فنهبّ نصرخ: (مع من نقف؟! )، وكأنّ وجودنا لا يتحدد إلا بتحديد انحيازاتنا داخل معركة غيرنا، وكأنّنا لا نوجد إلا في النفسي لا في الإثبات، في رد الفعل وليس في الفعل، وفي الاستجابة ولا حضور لنا في المبادرة.

وهنا مكمّن الخطورة؛ أن يكون سؤالنا عن الذات مشتقاً من موقع الآخر وليس من رؤية الذات، أن نكون (ضميرًا مستتراً) يُفسّر دائماً بالفعل الذي يقوم به الغير، لا (مبتدأً مرفوعاً) يُؤسّس معناه ويستقلّ بدوره، ويكتب الفعل ولا يتنظر أن يُنسب إليه.



المفترض ألا نبدأ بالسؤال: (نحن مع مَنْ؟) بل أن نبدأ: (أين نحن؟)، و(لماذا لسنا فاعلين؟)، و(متى نصبح طرفاً في صناعة المعنى لا في استهلاكه؟).

فالسؤال الجذري لا يتوقف عند اصطفاٍ سياسي عابر، ولكنه يُسائل ويحاكم أصل تموضعنا في بنية الحضارة؛ هل نحن أمة شاهدة أم مفعولٌ بها؟ هل نملك أدواتنا المعرفية والاقتصادية العسكرية أم أننا مجرد رُقعة تتقاذفها الرياح؟

كثيرٌ من الأسئلة السياسية والثقافية المتداولة ليست سوى إعادة إنتاج لأزمة وجودية أعمق؛ فقدان القدرة على أن نبدأ من الذات، إننا لا نسأل عن الإنسان ولكن عن موقفه من الآخر، ولا نسأل عن القيم وإنما عن الاصطفاف، ولا نسأل عن المشروع ولكن عن الموقع، وهكذا نظل ندور على سطح السؤال دون أن ندرك أنه يجب أن يُعاد تأسيسه لا تكراره.

السؤال الحقيقي لا يربطك بما حولك فقط ولكنه يربطك بما فيك؛ يجعلك ترى موقعك من خارطة الحق لا من خارطة التحالفات، وحين لا تملك سؤالاً من هذا النوع تصبح تابعاً حتى وإن صرخت احتجاجاً؛ لأن صوتك يصدر داخل دائرة مغلقة صاغها غيرك.



## ٥ رابعًا: انفصام السؤال عن لحم الواقع الحيّ.. إحياء السؤال المشتبك

السؤال حين لا ينبع من المعاناة يغدو تمرينًا ذهنيًا باردًا، أشبه بريشة ترسم على سطح الماء.

إنّ السؤال الذي يتغذى على المجالات الفلسفية لا على وجع الناس، وعلى حلقات النقاش الأكاديمي وليس على صرخات الأمهات المنسيات خلف الأبواب المغلقة، وحين يفقد الفكر جذره في التربة يتحول إلى زينة في صالونات النخبة ولا يغدو محرّكًا للواقع، ولا رافعًا للوعي، ولا باعثًا للحياة.

إنّ أزمة كثير من الأسئلة المطروحة بين الشباب اليوم ليست في شكلها ولكن في موضعها؛ فهي تُطرح في غير وقتها، وتُصاغ في غير بيئتها، وتُوجّه إلى غير سياقها؛ فبدل أن تكون قناديل في دروب العتمة تتحول إلى أنوار مزيفة فوق رفوف الصالونات.

ما معنى أن ينشغل شاب بمفهوم (ميتافيزيقيا العصور الوسطى)، وهو لم يسأل نفسه يومًا: لماذا لا يجد غرفة يسكن فيها؟ أو كيف تتحول الأسرة في بلده إلى جزر معزولة؟ أو لماذا صار الدين طقوسًا بلا دفء؟

ما فائدة كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه التي تناقش في كليات الشريعة والآداب والعلوم الإنسانية وهي لا تشتبك مع الواقع ولا تناقش مسائل تُورق الناس أو توجد حلولًا لنوازل ضاقت بها مساحات الواقع دون إجابات؟

ما فائدة أن يتقن الشاب لغة المدارس الفلسفية الغربية بينما يعجز عن فكّ طلاسم الجهل والبطالة والغربة الروحية التي تحاصر أهله وجيرانه؟ فما قيمة الفكر إن لم يتحوّل إلى ضوءٍ في زقاق، أو ماءٍ في جذب، أو سندٍ في وحدة؟



فالسؤال الفارغة هي الوجه الآخر للنفق المعرفي، فكّل فكر لا يرى الناس ولا يسمع الجوع، ولا يشعر بالتشظي الأسري، ولا يحس بالاغتراب، وكلّ فكر لا يحاكم الواقع ولا يُربكه ولا يُوقظه؛ هو فكر منفصم عن الوجود وعن الحياة وعن الحقيقة؛ كأنه يُمارس التفلسف كما يُمارس الأرستقراطي هواية الصيد؛ فيركض بلا هدف، ويُطلق أسهمه على طريدة متخيلة، ثم يعود إلى صالونه دون أن يغيّر في البراري شيئاً.

حين تتشقق التجربة وتصرخ الحياة في وجه الإنسان لا ينبثق السؤال الحقيقي من الكتب وإنما من الدموع، ومن الحيرة، ومن الاصطدام، وكل سؤال لم يُروّ بدمعة، أو يُشحذ بصراع، أو يُروّض في حقل الواقع هو سؤال ناقص.

السؤال لا يُطرح على الورق فقط ولكن على الجدار الذي يسقط على العائلة، وعلى الخبز الذي لا يأتي، وعلى الدين الذي يتحول إلى صمت.

وإن المثقف الذي ينأى بعقله عن جراح أمته، ويتحصن بأسئلته في أبراج العزلة النظرية ليس مفكراً حراً ولكنه شاهد زورٍ في لحظة احتضار الحقيقة؛ فالفكر الذي لا يشتبك مع الدم المسفوك، والجوع المحاصر، والظلم المتربّص ليس فكراً؛ إنه ترف هش لا يقدر على حمل همّ ولا يُوقظ ضميراً.

وإن المثقف الذي لا يشتبك ليس مثقفاً ولكنه أرشيف مؤجّل الصلاحية؛ فالمعرفة التي لا تتورط في جراح الأمة تتحوّل إلى سلعة معقمة تُعرض في صالونات النخبة ولا تصنع أثراً في الزمان.

وحده السؤال المشتبك هو الذي يصنع التاريخ؛ السؤال الذي لا يُطرح من برج عاجي وإنما من قلب الحي الشعبي، من وجع الأم الثكلي، من فم الأسير، ومن دمعة المسحوق في طابور الخبز.



فالمثقف الحقّ ليس من يسأل عن (العدالة) في ندوة أكاديمية ولكنه من يجعل سؤاله عن العدالة طعنًا في بنية الظلم، واستنهاضًا للمقهورين، ومحكمةً للجلاد في وضوح النهار، وليس من يسأل (ما الحرية؟) على ورق أبيض بل هو من يجعل جسده حبرًا لهذا السؤال، ويرتجف به في ساحة القمع، كما فعل الشهيد باسل الأعرج حين قال: (بدّك تكون مثقف؟ بدّك تكون مشتبك؟ ما بدّك تكون مشتبك؟ لا منك ولا من ثقافتك).

كأنه يلقي بالثقافة في الميزان، فهي لا توزن بما قرأت وإنما بمقدار ما اشتبكت؛ ولا تقاس بما حفظت ولكن بما حرّكت؛ لا يُبنى السؤال بمعزل عن النار ولكنه يولد منها؛ فالمثقف في زمن الانهيار هو الكائن الذي يكتب بحبر الغضب، ويفكّر تحت القصف، ويصرخ بأسئلته في وجه الآلة لا في صدى ذاته.

لهذا، فإنّ دراسة السؤال المشتبك ليست ترفًا ولكنها ضرورة؛ لأنها تكشف لنا كيف يمكن أن يتحوّل الفكر إلى فعل، والقلق إلى مشروع، والمعرفة إلى مقاومة؛ إنها اللحظة التي يصبح فيها العقل سلاحًا، والفكر خندقًا، والسؤال طلقة.

المثقف المشتبك هو ذلك الذي يرى في السؤال جسرًا لا جدارًا، وفي العقل أداة للتحرير لا للمراوغة، وفي الكلمة سهمًا في قلب الباطل لا مجرد زخرفة لغوية، ولا يخجل من أن يتسخ وعيه بغبار الطريق ما دام ذلك من أجل أن يتقدّم الناس خطوة نحو العدل أو الكرامة أو النور؛ إنه لا يفصل بين الفلسفة والشارع، ولا بين التجريد والحياة، ولا بين قلق الفكر وصرخة المقهور.

فالسؤال حين ينفصل عن الواقع يُصاب بالدوار؛ يدور حول نفسه ويعجز عن أن يلمس شيئًا، والسؤال إذا لم يكن له أنياب تُمزّق الأتقنة وإذا لم يُوجّه إلى



حيث الألم والحذلان والاستبداد تحوّل إلى لغو ثقافيّ يُطرب النخب ويُميت الشعوب.

أما السؤال المشتبك فهو الذي يولد في الحريق ولا يبحث عن استعراض وإثما عن خلاص؛ إنه السؤال الذي لا يُطرح فقط في قاعات الندوات ولكنه يطرح في ساحة اللاجئ، وفي زنزانة المظلوم، وفي أمعاء الجائع، وعلى شفاه أم تنام على خوف.

والأمة لا تنهض بفكرٍ متعالٍ على نبضها ولكنها تنهض بسؤالٍ ينزل إلى تربتها، يلمس جراحها، ويُعيد بناء الذات الجماعية من ركام الهزائم؛ فكل مثقفٍ لا يُحسن أن يربط بين (ما الإنسان؟) و(ما الذي يحدث في غزة؟ وغيرها من ساحات الدّم النازف في أمتنا) ليس حكيماً بل مراوغاً، وكل سؤالٍ لا يصبّ في مجرى التحرير من الظلم والاستلاب لا يُضيء الطريق ولكنه يُضللّه، ولسنا هنا لنطرح أسئلة تهويمية ولكننا نسعى لنوقف السؤال الذي يشتبك، ويؤلم، ويحمل في أحرفه قلقاً من أجل التغيير وليس سلاماً مع الاستسلام.



## ◉ خامساً: التدين بلا تساؤل، والتمرد بلا تبصّر.. بين أصنام الماضي وأوثان الترجمة

ثمة لحظة حرجة في المسار العقلي لأيّ أمة، تلك اللحظة التي تُغتال فيها الأسئلة، فلا تعود المعرفة بحثاً ولكنها تتحوّل إلى ترديد أجوف أو قطيعة رعناء، ومن هذا الغياب تولد ازدواجية مسمومة؛ تدينٌ يخشى السؤال كأنه كفر، وتمردٌ يحتقر اليقين كأنه خرافة.

إن الذي يُقصي السؤال من حياته الدينية لا يمضي في درب الإيمان ولكنه يهوي في طقس من الخضوع الغافل فيحمل في صدره (نصوصاً) لا يعقلها، (فتاوى) لا يسأل عن سياقاتها ثم يظن نفسه مُحاطاً بسياج الحق، وهو في حقيقته محصورٌ في صدى آخر ليس فيه صوت الإيمان؛ إنه يعيش التدين بوصفه (ميراثاً) لا (اكتشافاً)، ويبارس العبادة عادةً وليس حرقةً وجوديةً.

وفي الضفة المقابلة ينهض تمردٌ بلا أفق؛ فهناك شابٌ وقف عند هامش ترجمة سطحية لنيته أو سمع مقطعاً مسجلاً لفوكو فأغراه بريق الفلسفة المستوردة فحسم موقفه من الدين كله، وازدرى تراث أمته دفعةً واحدة دون أن يقرأ من كتبها إلا عناوينها؛ فلم يكن السؤال عنده أداة كشف ولكنه كان معول هدمٍ أرعن.

فهنا وهناك يلتقي التقيضان في غفلةٍ واحدة؛ كلاهما لم يسأل؛ الأول كبّل نفسه بقيود الماضي من غير تمحيص، والثاني استسلم لبريق الحاضر من غير تفكيك؛ فالأول يرفع التراث إلى مصاف التّقدّيس، والثاني يُنصب المترجمات أصناماً فكرية لا تُمسّ، لكنّ السؤال الغائب هو القاسم المشترك وهو الجريمة الكبرى.



فالتراث أساس متين من أسس هوية الشاب التوّاق للانبعاث الحضاريّ لكنّه إن لم يفهم تحوّل إلى مومياء معرفية تُباهي بها الأمم بينما تفرّ منّا أرواحها، والحادثة إن لم تُحاكم بنقد رصين تتحوّل إلى استعمار ناعم يتسلّل من حبر المترجمين إلى خلايا الدماغ فيفرغ الفكر من سياقه ويملؤه بتصورات الغير.

السؤال هو المنهج؛ فهو لا يفكك من أجل التفكيك، ولا يُسلّم من غير فهم، ولكنّه يُقيم توازناً بين عقلٍ يتذكّر ومخيّلةٍ تستشرف، وبين قلبٍ يبصر الروح وعقلٍ يدرك المدى.

فالذي يقرأ تراثه لا يفعل ذلك ليسجّل إعجاباً وإنّما ليسأل: لماذا قالوا ما قالوا؟ وكيف نُعيد اكتشاف مقاصدهم في زمننا؟ والذي يطالع فلسفات الغرب لا يفعل ليطلق عبارات الثناء ولكن ليسأل: ما الذي يُبنى فينا حين نُعيد إنتاج مفاهيم ليست من تربتنا؟ وما الذي يُهدم حين نستورد الأجوبة قبل أن نطرح الأسئلة؟

إنّ أعظم ما يُنتجه العقل هو القدرة على الربط بين النّقد والمحبة، أن نُحبّ تراثنا بما يكفي لتعامل معه بسلوك نقدي علمي وتمحيصيّ منهجيّ، وأن نحترم الآخر بما يكفي لنفكك منطقته؛ فلا الذوبان فكر ولا العناد معرفة.

في النهاية، لا تمرّد يُنجي دون بصيرة، ولا تدينٌ يُثمر دون وعي، فالسؤال هو الميزان، والسؤال هو التجرد، والسؤال هو الحياة.



## ٥ سادسًا: استعراض السؤال وغياب صدقه؛ حين تتحوّل المعرفة إلى مَشهَدِيَّة

ثمة فرقٌ شاسع بين سؤالٍ يُولد من حرقه العقل واحتراق القلب وضمًا الوعي وبين سؤالٍ يُساق إلى المنصّة كما يُساق نصٌّ في مسرحية مرتجلة؛ ففي الأول ينحت السؤال طريقًا في الصخر نحو المعنى، وفي الثاني يُقذّف في الهواء كالألعاب نارية تومض للحظة ثم تترك وراءها رماذًا خفيفًا لا يضيء شيئًا.

لقد غدت المعرفة - عند بعضهم - حلبةً للعرض وليست محرّابًا للتأمل؛ لا يُطرح السؤال من أجل أن يستنبت جوابًا ولكن من أجل أن يُحدث جلبة، أو يُسجّل (لقطةً فكرية) قابلة لإعادة النشر، ويتحوّل السؤال من مشروع عبور نحو الحقيقة إلى بطاقة عبور نحو الاهتمام، ويغدو العقل ديكورًا في مسرح الأنا لا بوصلةً في درب اليقين.

ذاك الطالب الذي يقف في ندوة فيسأل برودٍ ساخر: (هل الدين صناعة بشرية؟)، ثم يُغلق حاسوبه قائلاً: (بس حَيِّت أشوش الجو شوي)، هو ليس في الحقيقة طالب علم، وإنّما ممثّلٌ على خشبة اختار أن يلعب دور (الذكي المشاكس)، ليس لأنّه مشغول بالجواب ولكن لأنه مدمن على الظهور.

هذا النوع من الأسئلة يعمي العيون؛ إنه سؤال بلا نية، وإشكال بلا جوهر، وضوء بلا رسالة، وهنا تكمن المأساة؛ أن يتحوّل النهج التساؤلي - القوّة النبيلة التي تهدم الزيف وتبني المعنى - إلى مجرد عدسة استعراضية تُجمل صورة السائل في عيون الحضور؛ ولا فرق بين هذا وبين من يضع كتابًا عميقًا في زاوية التصوير دون أن يقرأه، أو يقتبس قولًا لفيلسوف كي يبدو مثقفًا في مقطع قصير.



في مثل هذا المناخ تموت المعرفة في لحظة ولادتها؛ لأن السؤال الذي لا يُبنى على قلقٍ وجودي لا يحقّق ولادةً فكرية ولكنه يُعيد إنتاج العقم.

السؤال الحقيقي لا يُطرح بصوتٍ عالٍ تشغيبي ولكنّه ينبع أولاً من همسٍ داخليٍّ حقيقيٍّ؛ إنّه مكاشفة مع الذات قبل أن يكون مشادة مع الخارج، واستسلام جريء أمام عظمة الحقيقة لا تهكّم صاحب فوق أطلالها؛ فكلّ سؤالٍ لا تُصاحبه نيّة الصدق هو مجرد مشهد بلاغي أجوف لا يختلف عن الإعلان التجاري في شيء، والفكر - حين يتحول إلى عرضٍ مسرحي - يفقد قدسيته، ويفقد الإنسان معه شيئاً من روحه.



## ٥ سابعًا: فصل السؤال عن سياق الأمة المعرفي.. قطيعة

### الروح عن جذورها

في غفلةٍ من الزمن أصبح بعض الشباب يظنّ أن التحرّر من الجذر الحضاري شرطٌ للموضوعية، وأنّ (البحث النزيه) لا يكتمل إلا إذا وضع (الدين على جنب)، وخلع عن السؤال أيّ وشائج تربطه بالذات الحضارية أو بالروح التاريخية للأمة. لكنّ السؤال الذي يُجثّث من جذوره لا يجرّر ولكنه يهيم في الفراغ؛ إنّه كائن معلق في الهواء، لا ظلّ له ولا أرض تحمله.

فما معنى أن يتسائل شابٌ عن علاقة الحاكم بالمحكوم بمنهج ميكيافيلّي صرف؛ كأنّ السلطة في شريعتنا مغنم وليست تكليفاً بل تشریف، وليست خوفاً من الحساب بل نشوة بالهيمنة؟

وما الذي يبقى من الوعي إذا استبدلت بتجارب الخلفاء الراشدين وأمثولات عمر بن عبد العزيز ونصوص السياسة الشرعية مقولات نفعية عن الغلبة والدهاء والبراغماتية؟

إنّ هذا ليس عقلاً حراً ولكنه عقلٌ تائه؛ ينتحل خطاباً بلا بنية، ويقتبس مصطلحاً بلا منظومة؛ كأنّ الحضارة مجرد كتالوج من الأفكار الجاهزة تُنتقى بحسب (موضة الفكر) لا مسارٌ طويلٌ من التفاعل بين الواقع والقيم، بين المبدأ والتاريخ، بين التجربة والمآل.

إنّ السؤال حين يُطرح من خارج السياق الحضاري لا يعود أداة بناء ولكنه يُصبح قذيفة طائشة، قد تهدم ما بقي من الوعي، أو تفتك بها تبقى من الأصالة. فلا هو يفضي إلى اكتشاف ولا هو يُعيد طرح الإشكالات، ولكنه يزرع قلقاً غريباً عن التربة لا يثمر سوى اضطراب الهوية وانفصام الذات.



يقول المفكر عمر عبيد حسنة: (والأمر المحزن حقا أن معظم جهودنا الفكرية تنصرف اليوم إلى الحديث عن عظمة الحضارة الإسلامية، وعبقريتها، وإنجازها التاريخي، وإنسانيتها، وعمق جذورها، واتساقها مع مكونات الإنسان، والقليل القليل من هذه الجهود الذي يتحدث عن أسباب تخلف المسلمين، وكيفية الإفادة من حضارتهم، وكيفية الاعتبار بها، والتعاطي معها، ووسائل استئناف دورها الإنساني، واكتشاف أين الخلل في مسيرة الأمة.

فالبحوث والدراسات التي تتجه صوب التحليل والمراجعة والنقد والتخطيط المستقبلي في فكرنا الحضاري أندر من النادر، وكأن العقل المسلم، الذي أضاع في القرن السابع الهجري بابن خلدون وابن تيمية والشاطبي عاود الانطفاء مرة أخرى، حيث ما نزال نعيش على إنتاج ورؤية واسترداد هؤلاء الرواد، الذين حاولوا مراجعة الواقع الإسلامي في ضوء قيم الوحي، وفتحوا ثغرة في جدار التخلف، لأننا ما نزال عند حدودها دون القدرة على الامتداد فيها)<sup>(١)</sup>.

السؤال لا يكون سؤالاً نبيلاً إلا إذا انبثق من داخل الوعي الحضاري، واشتعل بأشواقه وهمومه، وحمل في صيغته إحساس الأمة بنفسها وإدراكها لعلها، أما أن نطرح السؤال بلغة مستوردة، ونستل المفاهيم من سياقات مغايرة، ثم نطلب بالإجابات من واقعنا؛ فذلك خلط فادح بين الخرائط والتضاريس، وانفصال مروع بين الروح واللسان.

لقد علمنا التاريخ أن كل حضارة لا تحاور أسئلتها من داخل مرجعيتها تنتهي إلى عبث ثقافي أو استلاب كامل؛ فالسؤال الذي ينكر جذوره لا يصنع وعياً بل يُنتج شتاتاً.

(١) الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات: د. سعاد الحاتم، بتقديم عمر عبيد حسنة: ١٧.



## ◉ ثامنًا: الإقامة في أسئلة الانكسار لا أسئلة البناء

ثمة أسئلة لا تُطرح ليجاب عنها وإِثْمًا لتُعلّق كرايات بيضاء على أسوار الانهزام؛ فهي ليست بحثًا عن الحقيقة ولكنها إعلانٌ عن الاستسلام؛ أسئلة خافتة، مُنكفئة، محمّلة بشحنة وجدانية مثقلة بالعجز، لا تهدف إلى تحريك الفكر وإِثْمًا إلى تثبيت العطالة.

طالبة تقول: (هل من فائدة لأيّ تغيير؟) فهي لا تسأل لتعرف ولكنها تسأل لتنسحب، فلقد قررت الانسحاب قبل السؤال وجعلت السؤال ستارًا أنيقًا للانسحاب؛ إنه سؤال لا يفتح الأفق ولكنه يُحكّم الإغلاق؛ سؤالٌ مُبطّن بموقف وجودي يتزيًا بثوب الفكر وهو في حقيقته نزعة انكفاء وسكون.

إنّ أخطر ما في هذه الأسئلة أنها تُقيم في العقل كما تُقيم الأحزان في القلب؛ لا تُثير فعلًا ولكنها تُجمّد الحركة، وتُحوّل السؤال من أداة تحرّر إلى سجن ناعم. هي أسئلة تستأنس بها النفس المنكسرة لأنها تمنحها تبريرًا فلسفيًا للجمود؛ فمن السهل أن تقول: (لا جدوى)، لأن اليأس لا يُطالبك بجهد ولا يُكلفك ثمنًا.

أما سؤال البناء فهو السؤال المُتعب، سؤالٌ من يحمل همّ المعنى وسط الأنقاض، سؤالٌ من يؤمن أن العالم لا يتغيّر إلا إذا سألنا بطريقة تفتحه لا تغلقه؛ فشتان بين سؤال يُقال والدمع في عيني صاحبه: (كيف نبدأ؟)، وبين سؤال يُقال والظهر إلى الحائط: (ما الفائدة؟).

أسئلة البناء تنطلق من الألم لا للهروب منه، ومن الحيرة لا للاستسلام لها، وكلّ أمة عظيمة لم تولد من أجوبة جاهزة وإِثْمًا من أسئلة حيّة شقّت طريقها



وسط الركّام، تبحث عن شعاعٍ يُؤسّس ولا يُبرّر، يُوقظ ولا يُخدّر، يُضيء ولا يُطفئ.

في النّهاية؛ لا تُقاس الأسئلة بذكائها البلاغي بل بوظيفتها الوجودية؛ هل تُحرّك؟ أم تُخدّر؟ وهل تُنبئ؟ أم تُسوّد؟ وهل تصنع الإنسان؟ أم تبرّر موته البطيء؟ فالسؤال الذي لا يُفضي إلى نهضة؛ ليس من العقل ولكنه من وجعٍ لم يُحسن التعبير.



## ٥ تاسعًا: تسرُّب وهم السؤال في غياب ثقافة القراءة

ثمة ما هو أشدُّ خطرًا من الجهل الصامت؛ الجهل الصاحب الذي يتزيًا بثياب السؤال وهو في جوهره صدى فراغٍ معرفيٍّ أجوف.

ذلك النوع من الأسئلة الذي لا يُولد من مخاض الفكر ولكنه يولد من نزوة الاستعراض؛ حيث لا تُغذِّيه قراءة، ولا تُؤطره خلفية مفاهيمية، وهو محض اندفاع ذهني يفتقر إلى الجذور.

شابٌّ يرفع حاجبي الدهشة، ويقول بثقةٍ مستعارة: (إذا كان الله رحيماً، فلماذا يوجد الشر؟).

سؤال يبدو في ظاهره فلسفيًّا، لكنه مجرد تكرارٍ متأخرٍ لصدى جدلٍ قديم، طرح منذ قرونٍ ثم أُشيع نظرًا وتمحيصًا.

لوفتح كتب السير بعيونٍ باحثة وليس بعيون العادة لرأى كيف كان الأنبياء يمشون حفاةً فوق جمر الابتلاء، ويتوسّدون الألم دون أن يسقطوا في هاوية العبث، ولرأى كيف كانوا عمُدًا في بناء المعنى وسط العاصفة، يسألون دون أن يتهموا، ويتوجّعون دون أن يكفروا، ويُناجون ربهم في قلب المحنة كما يُناجي العاشق محبوبه لا كما يشتهي المتخاصم للقاضي.

ولم يكن الأنبياء وحدهم وإنّما كلّ المصلحين الكبار مثل شيخ الإسلام ابن تيمية الذي دخل السجن مراتٍ ليس لأنه أنكر الدين، ولكن لأنه سأل سؤال الحق في وجه السلطة، ورفض أن يبيع علمه لحاكم، والإمام العزّ بن عبد السلام، سلطان العلماء الذي نال اللقب بوقوفه في وجه الحاكم كأنه من سيوف الله تعالى، والعلامة عبد الحميد بن باديس الذي واجه فرنسا بسؤال



ماذا يعني أن نكون مسلمين في وجه المستعمر؟ والشهيد سيد قطب الذي لم يواجه معضلة الطغيان كأديب متأمل بل مفكرٍ مشتعل، جعل من زنانه محرّاباً، والمشتقة منبراً، ومالكوم إكس الذي خرج من ظلمة السجون الأمريكية إلى نور الإسلام، فلم يكتفِ أن يكون مؤمناً صامتاً، ولكنه جعل من السؤال عن الهوية والعدالة والتمييز والعالمية مشروع حياة، والشيخ الشهيد أحمد ياسين الذي جسّد سؤال الكرامة في جسدٍ مشلول، لكنه أقام به نهضة مقاومة أسطورية، فهؤلاء وغيرهم كلّهم سُحقت أجسادهم بالأشواك، وطُحنت أرواحهم في طاحونة الظلم، ووقفوا على أسئلة الغيب والعدل والشرّ لكنّهم لم يُسلّموا للعدم إنما حولوا السؤال عن الشرّ إلى مشروعٍ للخير، والوجه إلى منارةٍ للوعي.

لم تكن أسئلتهم ترفاً وجودياً ولكنّها كانت وجعاً مشتعلًا في شرايينهم، غير أنّهم لم ينهزموا أمامه بل حملوه كمن يحمل الشعلة في العتمة، ومضوا؛ ليس من أجل أن ينتقموا من العالم وإنّا ليعيدوا إليه معناه.

إنّهم الذين أثبتوا أنّ السؤال عن الشر لا يعني التشكيك في الخير، وأن الشك لا يعني الضياع، وأن الدموع حين تسقط في محراب الحقيقة تتحوّل إلى نور.

إنّ السؤال الذي لا يُسبق بقراءة هو أشبه بمن يُطالب بالحكم قبل أن يتعلّم الحروف، فالسؤال الذي لا ينهض على سلّم القراءة يسقط سريعاً في هاوية الجهل المركّب؛ إذ يجمع بين وهم المعرفة، وعُجب الجهل، وصخب الادّعاء.

لا تعدّ كل الأسئلة شجاعة؛ فالسؤال الذي لا يسبقه تعب ليس حُرّاً ولكنه مستلب، والسؤال الذي لا يُسنده تاريخٌ معرفي ليس عميقاً ولكنه عائم، والسؤال الذي لا ينبثق من قراءةٍ ناضجة هو قشرةٌ رنانة تخفي خواءً فاضحاً.



الأسئلة الحقة تنبت من صبر القراءة، من جلد المطالعة، من انكباب العيون على صفحات الكتب، وليس من ومضة هاتف أو صرعة تيك توك، وما أكثر من يتحدثون عن العدالة والشرّ والوجود وهم لم يقرؤوا إلا سطوراً مبتورة لا تنتمي إلى سياق ولا ترتبط برؤية.

إنّ السؤال بلا قراءة كالسهم بلا قوس، والنداء بلا صوت، وإذا كانت القراءة هي المعبر الوحيد من الاستفهام العشوائي إلى التفكير المنهجي، فإنّ أولى خطوات النضج المعرفي أن تقرأ قبل أن تسأل لتسأل كما يليق بالسؤال أن يُقال.



## عاشراً: السؤال المتوقَّع في الذات والمنقطع عن الجماعة

ثمة أسئلة تُشبه المرآة المغلقة على انعكاسٍ واحد؛ الذات، وحين ينكفئ السؤال على نفسه ويتحوّل من جسر إلى الآخر إلى قوقعةٍ أنانية؛ يتحوّل الفكر إلى عبءٍ ناعم، وتحوّل المعرفة إلى عزلة مغرورة.

إنّ السؤال حين يُحتزل في تحسين الأداء الشخصي، وتعظيم الكفاءة الذاتية، وتلميع (البراند) الفردي دون أن يعبر إلى همّ الجماعة؛ يكون قد خان وظيفته الحضارية، وتحوّل من أداة بناء إلى لعبة مرايا.

لا يعدّ كل سؤالٍ في ظاهره عميقاً كذلك في جوهره؛ فكم من سؤالٍ مدهش الصياغة، منمّق التعبير، فاخر المصطلح، لكنّه في العمق لا يرى إلا صورة السائل في مرآة ذاته لا في مرآة أمّته.

شابٌ يسأل عن أفضل كورسات الذكاء العاطفي، وأسرار النجاح المالي، ومهارات التسويق الذاتي، ويُتقن الحديث عن (الفرص)، لكنه لم يسأل يوماً: (ما دوري في مجتمعي؟ ما موقعي من آلام شعبي؟ من يقف الآن على الحافة بينما أنا أبني قلعتي الصغيرة؟)، وليس عيباً أن يسأل الإنسان عن ذاته لكن الخطيئة الكبرى أن لا يرى إلا ذاته.

وهنا تتسلّل إلى العقل المسلم على حين غفلة نزعَةٌ فردانية ناعمة، لا تأتي على شكل فلسفة صريحة ولكنها تتسرّب بوصفها منهج عيشٍ جديد، يزيّن (النجاة الفردية)، ويؤلّه (تحقيق الذات)، ويصوغ السؤال نفسه ليصبح مطويّاً على (أنائي) الصغيرة فتذبل فكرة الاستخلاف، ويتحوّل الدين إلى أداة نموّ شخصي لا مشروعاً حضارياً.



فبدل أن يسأل المسلم: (كيف أشارك في التغيير؟)، يسأل: (كيف أنجح في هذا السوق؟)، وبدل أن يقول: (كيف أنصر المظلوم؟)، يقول: (كيف أكون ملهمًا؟) ثم يغدو المقياس الروحيّ هو عدد المتابعين لا مقدار المعاناة التي واجهتها في سبيل الله تعالى والناس.

إنّ أخطر ما يحدث حين تحتلّ الفردانية قلب السؤال أن تُفْرغ العبادة من معناها الجماعي، وتُختزل الرسالة في سيرة ذاتية لا تسير إلا صعودًا إلى الذات وليس خروجًا منها نحو الآخر.

وحينها يتحوّل المسلم إلى مشروع (تحسين شخصي) وليس مشروع (تحرير جماعي)، ويصبح الدين طقسًا نفسيًا لتسكين القلق وليس نبراسًا لإشعال جذوة التغيير.

وما خلّقنا لهذا والله؛ ولكننا خلّقنا لنسأل سؤال الأنبياء: (من نحن في وجه الطغيان؟)، (ماذا فعل بالحق حين يستضعف؟)، (وكيف نكون جسدًا للأمة، لا شظايا في سوق الذات؟).

في زمنٍ تكاد تُختزل فيه المعرفة في سيرة ذاتية، وتتقلّص فيه الفكرة إلى محتوى رقمي موجه نحو المتابعين، يصبح السؤال مجرد (وسم) يسوّق الذات وليس معنى يُغيّر الواقع.

السؤال العظيم لا يُطرح ليرفع السائل فوق الناس، وإنّما ليحمل الناس معه نحو أفق أوسع، والعقل الكبير لا يكفيه أن يتقن مهارة، ولكنه يسأل: (لأجل من؟) و(في أيّ مشروع؟) و(ما الثمن؟).

أن تسأل عن ذاتك فهذا وعي، وأن لا تسأل إلاّ عن ذاتك فهذا سُكر أنانيّ، وأن تسأل عن ذاتك وأمتك معًا فهذا استخلافٌ ربّانيّ.



في غياب هذا الاتّساع ينكمش السّؤال حتى يغدو مثل النفس المحتبسة في زجاجة، ويدوي الفكر في عبادة الذات باسم (التنمية)، وتُحتزل الرسالة في نجاحٍ شخصيٍّ لا يترك وراءه أثرًا.

إنّ الأُمَّة لا تُبنى بالأفراد الذين يسألون: (كيف أتحمّن؟) فحسب، وإنّما بالذين يسألون أيضًا: (كيف ننهض معًا؟) وبالذين يرون أنّ المعنى لا يُستكمل إلا حين يمتدّ السؤال من (الأنا) إلى (نحن)، ومن الذات إلى الجماعة، ومن الطّموح الشّخصي إلى الهمّ الجمعي، ومن السّيرة الدّاتية إلى الرّسالة الوجودية. فلنحذر أن تتحوّل أسئلتنا إلى مرآة فردية نُجمّل بها وجوهنا أمام أنفسنا، بينما الحقيقة خارجنا تصرخ؛ تنتظر سؤالاً صادقاً يُقال بصوت الجماعة وليس بهمس الأنا.



## ١٠ حادي عشر: تحنيط الجواب وقتل السؤال؛ حين تتحول المعرفة إلى صنم

في لحظة ما من تاريخ الفكرة يتحوّل الجواب من كونه نهاية مؤقتة لرحلة بحث إلى صنم مقدّس يُمنع لمسه ويُجرّم السؤال حوله؛ عندئذ لا تعود المعرفة حواراً حياً ولكنها تتحوّل إلى تابوه ساكن، مشلول، مسيِّج بهالة من (الحرمة) المصطنعة. هكذا تُشنق الأسئلة على أبواب الجواب الجاهز لأنّها تهدّد مركز الجواب بالاهتزاز، وحين يُمنع الإنسان من أن يسأل لا يتوقّف العقل عن العمل ولكنه يتحوّل إلى فكرٍ داخلي، يسير بين الهمس والإنكار حتى ينفجر إثمًا في صمت خائق أو تمرّد عاصف.

وفي عالم تُقدّس فيه الشعارات وتُصنّم فيه المفاهيم لم يعد السؤال السياسي جسراً إلى الوعي ولكنه صار لعنةً تطارد من يتجرّأ عليه؛ فهنا شاب يسأل: (لماذا لا يُجاسَب الحاكم كما يُجاسَب المواطن؟)، فيردّ عليه بأنّ الدولة لها أسرارها، وكأنّ السلطة لا تُساءل وإنّها تُبجّل، وذلك آخر يسأل: (أليست المواطنة معناها المساواة؟ فلماذا تُمنح الوظائف على أساس الولاء للزعيم وجماعته؟)، فيقال له: (لا تفتح علينا باب الفتنة!)، وكأنّ الفتنة في السؤال لا في الظلم!

وشاب آخر يتساءل: (ما الفارق بين الأمن الوطني وقمع الرأي؟)، فيُصنع باتهام العمالة، وكأنّ من يفكّر صار خائناً، ومن يصمت صار وطنياً، وحين يسأل خريج عاطل: (لماذا لا تكافأ الشهادة بالفرصة؟)، تُفتح له كتب التنمية البشرية وليس أبواب العمل؛ وتُلقي على رأسه دروس الأمل وليس عقود التوظيف؛ وإذا صرخ محتجّ في مظاهرة ضد الغلاء: (من المسؤول؟)، قالوا له:



(كلنا مسؤولون!)، لِيُوزَّعَ الجُرمُ فلا يُحاسبُ أحد، وفي المجالس النخبوية حين يسأل مفكّر: (هل نجحنا فعلاً في بناء نظام سياسي رشيد؟ أم أننا ما زلنا نُدير الجمهوريات بعقلية القبيلة؟)، تتشجج الوجوه وتُرمى عليه تهمة (السوداوية)، وكأنّ التشخيص جريمة والمجاملة وطنية.

حتى في الحوار المجتمعي إذا تساءلت أمّ: (لماذا أصبحت الأسرة عبئاً على المرأة وحدها؟)، قيل لها: (سؤالك هذا من أثر النسوية!)، وإن تساءل أبّ: (لماذا يتسرّب أولادي من المدرسة؟) ألقوا اللوم على الإنترنت وليس على النظام التربوي.

في كلّ هذه الأمثلة لم تكن المشكلة في السؤال ولكنّها كانت في قوالب الجواب المحتنّطة التي فرضت على الوعي حتى اختنق؛ فقد أصبح الجواب قيداً على العقل بدل أن يكون مفتاحاً له، وتحول من نتيجة تفكير إلى سلاح رقابة لأنه صادر عن (الجهة العليا)، أو (الصوت الجماعي)، أو (الأعراف الموروثة)، أو (الاستقرار الاجتماعي) وكلها أصنامٌ لغوية تُغتال بها الأسئلة في مهدها.

وهكذا لم نعد نواجه أزمة في الجهل ولكننا أصبحنا نواجه أزمة في حقّ السؤال، وفي قيمة أن يُفتح الباب للارتباك النبيل، للدهشة الأولى، للصرخة التي لا تريد تحطيم النظام بل إنقاذه من الجمود.

فمن لا يسأل عن العدالة لن يصنع قانوناً عادلاً؛ ومن لا يسأل عن السلطة لن يعرف كيف يحاسبها؛ ومن لا يسأل عن الأعراف لن يميّز بين الحكمة والعادة؛ والسؤال الذي لا يسأل لا يظل معلّقاً في الهواء ولكنه يرتدّ ليخنق صدر الأمة من الداخل، ويصوغ وعياً جبرياً مزيّفاً فيحرس الأصنام وهو يظن نفسه من المصلّين.



وهنا لا يُنتج العقل قناعة ولكنه ينتج خوفاً، ويستبدل بالسؤال الحيّ طقوس الإجابة المحنطة، وحين تصبح الإجابة هي الأصل والسؤال تهمة يموت الفكر وتولد الوثنية من جديد ولكن بثياب فقهية أو أكاديمية أو أيديولوجية.

في كل حضارة حقيقية يُحترم السؤال لأنه بداية الحياة، وفي كل لحظة انحدار يُخنق لأنه بداية الخطر، الجواب الذي لا يُحاكم؛ يتعفن، والعقل الذي لا يُؤدّن له بالسؤال؛ يتكلس، والمجتمع الذي يصمت على هذا؛ يتحوّل إلى قطع يردّد لا أمة تُفكر.



## ٥ ثاني عشر: تحوّل السؤال إلى خنجر؛ حين يُستعمل العقل أداةً للطعن

في لحظة خيانة للفكرة يُنزع عن السؤال جلاله، ويحوّل من وسيلة كشفٍ إلى أداة طعن، من مفتاح للفهم إلى خنجر في الخاصرة؛ فما خلق السؤال ليُحقر، ولا شرّع ليستعرض به المتذاكبي ذكاهه على حساب المعنى؛ ولكنه وُجد ليكسر الأقفال لا ليكسر القلوب.

إنه التحوّل الخطير من سؤالٍ يُقدّم برعشة التواضع إلى سهم يرمى بنشوة الانتصار الكاذب، ومن لحظة بحث عن النور إلى مسرحية استعراضية يُراد منها إسقاط الآخر وليس الانكشاف على الذات.

فهذا طالب في قاعة دراسية يسأل أستاذه عن (حد السرقة) ولا يقصد بذلك أن يغوص في مقاصد العدالة ولا أن يقرأ فلسفة الحدّ بين الرحمة والردع ولكن مقصده أن يسخر، ويُرَبِّك، ويُظهر الأستاذ -أمام جمهورٍ جاهز للقهقهة- بمظهر القادم من عصرٍ لم يُحدّث تطبيقاته؛ فلا هو سأل ليفهم ولا هو ترك غيره يفهم؛ لقد تحوّل السؤال عنده إلى خنجر يُغمده في جسد المعنى، وليس مفتاحاً يفتح به باباً للوعي.

وآخر يسأل عن (سنّة وفضيلة تعدّد الزوجات) في مجلسٍ مختلط، وليس غرضه أن يفهم السياق التاريخي والاجتماعي والفقهي الذي نشأت فيه ولكن غايته أن يُربِّك المتدينين ويُجرِّهم أمام موجات (الحداثة) ثم يُغلق النقاش بغمزةٍ ساخرة تقول: (أترون؟ أنتم أبناء زمنٍ تجاوزه الزمن!)؛ فيضيع السؤال، وتُنسف الحكمة، ويُجرِّد النصّ من لحمه وسياقه ودفء غياته.



وفي مجلسٍ سياسيٍّ يقف أحدهم ليتساءل بحدّة: (أين هي الشورى التي تتغنون بها؟ أين هي خلافة الراشدين؟)؛ وهو لا يقصد بذلك البحث في أسباب الانهيار، أو استلهام النماذج ولكنه يريد أن يغرّز الشك في أصل المفهوم، ويصوّر كل خطاب ديني بوصفه غطاءً للتسلط، وكل حديث عن الخلافة كأنه دعوة للرجعية؛ فلا هو سأل ليستنير، ولا هو ترك الفكرة تنضج، لقد استعمل عقله كمن يستعمل المدفع ليهدم وهو يتصور أنه استخدم المجهر ليبنى.

وفي منصةٍ شبابيةٍ مفتوحة يُطرح سؤال: (هل تأخر المسلمون بسبب الإسلام؟) فيغيب سؤال: (هل نتحدث عن الدين أم عن المسلمين؟)، ويُختصر الأمر كلّهُ في مشهدٍ ترفيهيٍّ يستعرض فيه السائل براعة الشك وليس نبل السؤال، فتُخدش المهابة، وتُصقّى المعاني، ويُستهزأ بالمقدّس باسم العقلانية، بينما لا عقلانية تُمارَس ولكنه تهكّم سطحيٍّ وتخليط فكري.

إنّ هذا النمط من الأسئلة ليس من نسل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا من مدرسة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا من صحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين كانوا يسألون بحياء القلب وليس بحدّة الخنجر؛ هذه الأسئلة ترفع ظاهرياً شعار (التفكير الحر) لكنها تمارس أحياناً أعنف أشكال القمع؛ لأن السائل لا يمنحك فسحة للجواب ولكنه يهاجمك بصيغة السؤال فيصبح السؤال قناعاً للإدانة الجائرة.

وهكذا تُغتال النية الطيبة من السؤال ويُفرغ من محتواه التربوي، ويُستعمل العقل في غير وظيفته فيتحوّل من نورٍ يُضيء إلى سيفٍ يجرح؛ ويغدو السؤال -بدل أن يكون لحظة بناء- لحظة هدم تُهدم فيها الشخصيات، وتُبتَر المفاهيم، وتُدفن المعاني العميقة تحت ركام المناكفة.



فليس كل سؤالٍ مقدسًا ولا كل عقلٍ مستنيرًا، إنما تنبع قدسية السؤال من النية التي يحملها، من التواضع الذي يطرّقه به على باب الحقيقة، من رغبته الصادقة في أن يتشارك المعرفة وليس في أن يستعرض قدرته على تفكيكها أمام جمهورٍ يصفق للشكّ ولا يُصغي للمعنى.

فالسؤال في صورته الراقية قربانٌ يقدمه العقل للحقّ وليس قبلة يُلقبها على وجه المختلف، والسؤال النبيل لا يُقال من فوق ولكنه يهَمَس من القلب، أما السؤال الذي يُسأل ليُدمر فليس سؤالًا؛ إنّه خيانة.

إنّ أعظم ما في السؤال هو أنّه يُعرّي السائل قبل أن يُعري المسؤول، وحين يُستخدم للكيد يفشل مرتين؛ يفشل في بلوغ الحقيقة، ويفشل في احترام كرامة الإنسان.

نحن لا نحتاج إلى (أسئلة تُربك الخصم)، ولكننا نحتاج إلى أسئلة تُربك الجهل فينا؛ ولا نريد سؤالًا يربح المعركة اللسانية وإنّما سؤالًا يخسر غرور العقل ويكسب يقظة القلب.



## ٥ ثالث عشر: الهروب من السؤال المؤلم.. الجبن المعرفي المقنّع

ثمّة أسئلة لا تُطرح بحثًا عن معلومة ولكنها تطرح لأن الصمت عنها خيانة؛ أسئلة ليست مجرد أدوات للفهم ولكنها امتحانات للروح، تُحدّد منسوب الشجاعة في ضمير السائل، وتكشف درجة التورّط في حجب الحقيقة.

إنّ أخطر ما يواجه الإنسان المفكّر ليس الجهل ولا الخطأ وإنما لحظة يقرر فيها أن يهرب من سؤالٍ يعرف أنّه قد يغيّر مصيره، لحظة يلبس فيها الجبن ثوب الحكمة، ويتلخّف بالصمت مدّعيًا الرصانة بينما هو في داخله يرتجف من مجرد احتمال أن تؤوّل به المعرفة إلى اتخاذ موقف.

حين تسأل أحدهم: (هل يجوز أن نوقع اتفاقية تطبيع مع عدوّ يحتلّ الأرض، ويحاصر شعبًا، ويهدم بيوتًا على رؤوس ساكنيها، ويجعل من الدم حبرًا لخرائطه؟)، لا يُفكّر في السؤال ولكنه يُفكّر في مآلاته، ولا يتفاعل مع القيمة التي يستدعيها ولكنه يتفاعل مع الإرباك الذي يخلفه، فيبادر بالانفعال والردّ المهاجم: (وهل تريدون منّا أن نخوض حربًا ضدّ العالم كلّ؟!) إنه لا يجب، ولكنه يتّهم السؤال ويضعه في قفص الاتهام، وكأنّ السؤال فتنة؛ وكأنّ من طرحه قد ارتكب جريمة.

لكن الحقيقة أنّ هذا النمط من الهروب ليس حكمة ولكنه أحد أوجه الجبن المعرفي، حيث يتحوّل الإنسان من فاعلٍ أخلاقيٍّ إلى كائنٍ يتذرّع بالضرورة ليبرّر الانهيار، ويُغلّف العجز بغلاف الواقعية السياسية.

فالسؤال هنا لم يكن عن الحرب ولكنه كان عن المبدأ؛ ولم يكن استفتاءً على إطلاق الرصاص ولكنه كان اختبارًا للنزاهة القيم؛ إنه سؤالٌ يُفتش عن الحرام



حين يُعاد تصنيعه في مصانع المصالح المتوهّمة، ويبحث عن الحقّ حين يُخفى تحت ركام الذرائع الباطلة.

والمأساة ليست في قسوة الجواب ولكنها في غيابه، بل الأدهى أن يتحوّل الجواب إلى آلة لإسكات السؤال وليس لفهمه، وأن يتحوّل الحرج من الحقيقة إلى مبدأ، بينما تُشنّ الحرب الكاملة على من تسوّل له نفسه أن يسأل سؤالاً يفضح المستور، أو يُربك الاصطفاف، أو يُزعزع سكينه الأكاذيب.

لقد كانت الفتنة الكبرى - منذ الخليقة - في طمس السؤال، أو في منعه، أو في تسخيفه، أو في دفنه تحت صخرة الصمت؛ فالذين سألو موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧]، لم يكونوا يبحثون عن إجابة ولكنهم كانوا يبحثون عن وسيلة لقتل السؤال نفسه.

إنّ الهروب من السؤال المؤلم هو انسحابٌ من معركة الصدق، وهجرةٌ من أرض الشجاعة، وهو أخطر أشكال الردّة المعرفية لأنّه يُارسه باسم الحكمة ولا يقول (أنا جبان) بل يقول: (أنا واقعي) بينما هو في الحقيقة يرتجف خوفاً من أن ينكشف زيف موقفه، أو هشاشة قناعاته، أو عجزه عن التضحية، وما أصدق قول المتنبي:

يَرى الجُبْناءُ أَنَّ العَجْزَ عَقْلٌ  
وَتَلِكَ حَدِيعةُ الطَّبْعِ اللِّيمِ  
وَكَمِ مِنْ عَائِبِ قَوْلًا صَحِيحًا  
وَأَفْتَهُ مِنْ الفَهْمِ السَّقِيمِ  
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الأَذَانُ مِنْهُ  
عَلَى قَدْرِ القَرَائِحِ وَالْعُلُومِ



والحقيقة أننا في لحظة مفصلية من عمر الوعي؛ لحظة لم يعد يُطلب فيها من الإنسان أن يكون بطلاً يُقاتل وإنّما أن يكون صادقاً فيسأل.

وإذا كانت الحروب تُشنّ بالصواريخ فإنّ معركة الإنسان الحرّ اليوم تُشنّ بالسؤال؛ السؤال الذي يُمزّق أستار الخوف، ويكسر قيود الهزيمة، ويحرّر العقل من وهم الاعتدال المزيف، الذي يجعل المبدأ تابعاً للمصلحة المتوهّمة، والقيم رهينةً للميزان الدولي.

إنّ أمتنا لن تنهار بسبب الجيوش ولكن بسبب العقول التي قرّرت أن تصمت حين وجب أن تسأل، أو تلك التي قرّرت أن تُسائل الهامش وتدع المركز، أو تلك التي ظنّت أن طريق النجاة يمرّ من تحت أقدام الغزاة، وليس عبر رفع الرأس بالسؤال الصادق.

فيا أيها الإنسان؛ لا تخف من السؤال ولكن خف من أن تُقبر روحك حيّة حين تختار الصمت، وتُلقي على السؤال عباءة الاتهام، وتُصنّف للسكوت باسم العقل بينما العقل في جوهره؛ سؤال.

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

# أسباب أزمة السؤال عند الشباب

## قراءة فكرية في أسباب خفوت السؤال



أزمة السؤال عند الشباب ليست مجرد عرضٍ جانبيٍّ لضعف التعليم أو شحّ المعرفة، ولكنها عرضٌ روحي عميق لفقدان البوصلة، وانطفاء القلق المعرفي، وتشوه العلاقة بين الإنسان وذاته، وبين الفكر والواقع، وبين المعنى والإجابات الجاهزة.

لقد نشأ هذا الجيل في عالمٍ تفيض فيه الإجابات على مدار اللحظة حتى اختنقت فيه الحاجة إلى السؤال؛ كل شيء صار متاحًا بكبسة زر، وكل قضية لها ألف فيديو يشرحها، وألف حسابٍ يُبدي فيها رأيًا، لكن ما غاب هو الدهشة الأولى، والقلق الذي يلد الوعي، والسكينة التي تسبق الصياغة، فهل يُثمر الفكر في أرضٍ لم تُمطر بأسئلة صادقة؟

في هذا الفصل لا نسعى إلى تقديم لائحةٍ وعظيمة باللوم والنقد وإنما إلى تشريح فكريٍّ معرفيٍّ دقيقٍ لأسباب خفوت السؤال في وعي الشباب لفهم بنية العطالة الفكرية التي سكنتها أرواحهم، لا لندينهم ولكن لنتشّس معهم عن جمرٍ دُفن تحت الرماد لعله يُشعل الطريق من جديد.



## ○ أولاً: الإرهاب المعرفي والاستبداد الفكري؛ حين يُذبح السؤال

في فضاءٍ تربويٍّ جافٍ حيث تسود سلطة الجواب الواحد يولد العقل مكبلاً، وتُجزّز أجنحة السؤال قبل أن تلامس هواء الحرية، لا يُربى الناشئة على حقّ السؤال وإنّما على فقه الصمت، وتُلقن الأذهان أن الرأي انشقاق، وأن كل سؤالٍ يُخفي فتنة يجب وأدها قبل أن تنمو.

تتحوّل قاعات العلم إلى محاكم تفتيش يُدان فيها السؤال ويُحاكم فيه الطالب بنواياه لا بحجّته، فإذا قال يوماً: (أميل إلى هذا الرأي)، قيل له: (ومن أنت حتى يكون لك رأي؟)، كأنّ الكرامة المعرفية لا تُمنح إلا بوراثته؛ وكأنّ كلّ من لم ينطق بلسان القدماء هو دخيلٌ على مملكة الحقيقة.

شهدتُ يوماً مشهداً مُفجعاً في قاعة مناقشة علمية إذ وقف باحث في كلية الشريعة يناقش أطروحة الدكتوراه التي أمضى عمره يسقيها فكره، ولما قال في ثنايا عرضه: (ورأيي في المسألة)؛ قاطعه أحد أساتذتنا المناقشين صارخاً: (رأيك؟! ومن أنت حتى تُدلي برأيك أمام هؤلاء الأئمة الكبار؟!)، وكأنّما الحق وقف على الماضين، والعقل اليومي لا يملك حتى حق التنفس دون إذنٍ من عظامٍ في قبور.

هنا تتجلّى أزمة حضارية خطيرة؛ لقد أصبح الجواب جداراً من رخام لا تُسمع خلفه خفقات القلوب التي تبحث، وصار السؤال تُهمة تحتاج إلى براءة. وهكذا يُربى الشباب على (فقه التلقين لا فقه التبيين وفقه التمهيص النقدي)، فيخافون من السؤال ليس لأنّه خطأ ولكن لأنّه خطرٌ يهدّد نظاماً معرفياً هسلاً لا يحتمل الشكّ، ولو كان الشكّ سلماً إلى اليقين.



إنّ مناخ الإرهاب المعرفي هذا لا يخرج علماء ولكنه يخرج حُرَّاسًا للجمود، ولا يصنع مفكرين ولكنه يصنع نُسَّاخًا يُعيدون إنتاج الأجوبة ذاتها في زمنٍ تغيّر فيه كل شيء.

والنتيجة؟ عقول تظنّ الطاعة إيمانًا، والصمت أدبًا، والجرأة وقاحة، وعقول لا تجرؤ أن تقول: (لا أفهم)، لأنّها منذ الصغر تعلم أن هذا الاعتراف يُكلّفها مكانتها، وقد يُكفّرُها البعض إن تجرّأت وسألت في التوحيد، أو ناقشت في القدر، أو تساءلت عن الحكمة من الجحيم.

لكنّ العقل الذي لا يتساءل هو عقلٌ بلا ملامح، والروح التي لا تتنفس بالأسئلة تختنق حتى في قاعات العلم.

فهل آن لنا أن نعيد الاعتبار للسؤال؛ ليس بوصفه شبهة ولكن بوصفه شرفاً؟ وهل آن أن نقول لأولئك الشباب: (أحسنّت؛ لقد سألت) بدلاً من: (اسكت، لا تُثر الفتنة!)؟ فالسؤال ليس فتنة؛ بل الفتنة في وأد السؤال.



## ◉ ثانيًا: استقالة العقل أمام سطوة الشاشة؛ حين ينقلب البصر على البصيرة

في زمنٍ كثيف الصور، سريع الومضات؛ بات العقل شبحًا يتوارى خلف الشاشات، يُشبه نفسه في كل شيءٍ إلا في جوهره؛ لم يُعد يسأل، ولم يُعد يربط، ولم يُعد يبني؛ فقد أصابته علة الاستقالة؛ تلك التي لا تُقدّم رسميًا، ولكنها تسترب خفية مع كل (ريل)، وكل معلومة تومض ثلاث ثوانٍ ثم تُنسى.

العقل اليوم لا يتكئ على المعرفة وإنما على السرعة، ولا يطلب المعنى ولكنه يكتفي بالصورة؛ كأنّ الفكر قد تحوّل إلى جهازٍ استهلاكي لا يبحث عمّا (يُدهشه) وإنما عمّا (يمرّ سريعًا) دون أن يُتعبه.

إنّها لحظة سقوط الحفر المعرفي العميق تحت شهوات التلقّي الخفيف؛ حيث يتوهم الإنسان أنه (يعرف) لأنه شاهد، وأنه (فهم) لأنه استمع، وأنه (مثقف) لأنه يقرأ عناوين الأخبار لا مقالاتها، ويلخص الكتب في خمس دقائق ولا يعرف من الفكر إلا أغلفته.

وفي هذه اللحظة تحديدًا تتحوّل الشاشة إلى معبودٍ ناعم يُعفيك من مشقة التفكير، ويُعريك بأن المعرفة (جاهزة) لا تحتاج جهدًا ولا زمنًا؛ فيكفيك أن تشاهد الريل الصحيح، أو تنقر على الفيديو المختصر، أو تتجوّل في تطبيقات (كيف تفكر في دقيقتين؟)، لتحصل على إجابات تغنيك عن الأسئلة؛ فتمام مطمئنًا، وقد فارقتك دهشة الفلسفة، ولذّة التّيه المثمر، ومحنة البحث الصادق عن الحقيقة.



إنّ الكسل الذهني في أهبى تجلياته؛ كسلٌ لا يبدو كسلًا لأنّه يرتدي زيّ النّشاط ويتحرّك كثيرًا لكنه لا يبرح مكانه.

ولعلّ من أكثر المظاهر طرفاً وخطورةً لهذا الكسل الذهني والعقليّ الهوس بقراءة الروايات وذلك لا علاقة له بكونها أدبًا راقياً يُستمتع به ولكن لأنها باتت الملاذ (الآمن) الذي يريح الضمير من حمل المسؤولية المعرفية، فتجد شاباً يقرأ ثلاث روايات في أسبوع لكنه لا يعرف ما المقصود بالإيمان، ولا سأل نفسه مرةً عن معنى التاريخ، أو طبيعة الفلسفة، أو قضايا أمّته؛ لقد استبدل بالمساءلة المتعة، وبالمفاهيم الخبكات، وبالرسالة الحوار الدرامي؛ فصارت القراءة عنده نوعاً من الترف البصري تماماً كمن يشاهد مسلسلاً طويلاً في هيئة كتاب.

وهكذا تحوّل العقل من فاعلٍ يسأل إلى مفعولٍ به يتلقّى، وصار (العقل الشاب) مرآةً لا مصباحاً فهو يعكس ما يراه لكنه لا يُضيء شيئاً؛ فمن يُجرّر هذا العقل من الأسر الناعم الذي كبّله؟ ومن يعيد للسؤال مكانته في حضرة المعلومة المتاحة بكسل؟ ومن يذكر هذا الجيل أن المعرفة لا تُقاس بعدد المراجع ولا بسهولة الكتب بل بعمق السؤال؟ وأنّ الصورة لا تكفي لأن المعنى يسكن ما وراءها؟

السؤال هو الفأس التي تهدم جدران الوهم، أما الشاشة فهي الكهف الجديد، والذين لا يسألون سيقون فيه يظنون أنهم أحرار وهم في الأغلال الرقمية سادرون.



## ٥ ثالثاً: اختناق القيم الكبرى في زحام اليومي؛ حين يضيق الهمم فيموت السؤال

السؤال العظيم لا يُولد من فراغ ولكنه يولد من رحم انشغال عميق بالمصير، ومن قلق نبيل على الغاية، ومن توتر معرفي بين الحضور الزائل والخلود الآتي.

غير أن الزمن الذي نعيشه اليوم قد اختنق فيه المعنى تحت ركام التفاصيل، وانكشمت الأسئلة الوجودية أمام طوفان الانشغالات اليومية التافهة كما تنكمش الروح حين تُرهقها الحواس.

لم يُعد السؤال عن (من أنا؟ ولماذا خلقت؟ وما مصيري؟) هو ما يشغل القلوب ولكن صارت الأسئلة المطروحة في الوعي العام أقرب إلى فقاعات زمنية قصيرة العمر ترتطم بسقف السطحية وتنفجر دون أثر.

فشابّة تستعد لحفل لا تسأل نفسها: (كيف أكون امرأة من نور في زمن الفتنة؟)، ولكنها تُلقي سؤالها بكل وجع التافهة: (في وحدة بالحفلة لابسة نفس فستاني شي؟).

وشابٌ يمشي في الشارع لا يحمل هم قضية ولا حيناً إلى خلاص أمّة ولكنه يتمتم لنفسه: (شور رقم السيارة اللي مرقت؟ شكلو مميز) وكأن نداء الأرقام قد حلّ محل نداء الساء!

والسؤال عن القيم تحوّل إلى عبء فكري أو ترفٍ لا لزوم له لأن الوقت (مزدحم)، والحياة (سريعة)، والمشاعر (مضغوطة)، والإنسان (مرهق من اللاشيء)، منهك من معركة البقاء ضمن سيرك استهلاكي لا يسمح له بالتوقف لحظةً ليسأل: إلى أين أمضي؟



في مثل هذا الجو لا يمكن أن يولد سؤال كبير لأنَّ الأسئلة العظيمة تحتاج قلوباً عظيمة، والقلوب العظيمة لا تسكن أجساداً هزيلة الهمم، ولا تصطف في طوابير التخفيضات.

إنَّ عظمة السؤال مرآة لعظمة الهمم؛ فمن كان شغله الشاغل الماركة نسي الدم، ومن سأل عن شكل الجسد غفل عن جوهر الروح، ومن تاه في تفاصيل الموضة فلن يجد وقتاً ليسأل عن موضعه من مرافقة الأنبياء في جنات النور. وتأمل قول المتنبّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ  
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ  
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا  
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

فمن صغرت همته صغرت أسئلته حتى أصبحت تساؤلاته لا تُنبِت فكراً ولا تُنذر بخلاص، فبينما الجموع تتلاطم في أسواق الضجيج حيث تُختصر الحياة في صفقات الموضة، ونسب المشاهدة، وعداد الإعجابات؛ لم يكن ربيعة بن كعب الأسلمي شاباً يبحث عن مجدٍ دنيوي، ولا جاهاً ولا وساماً يُعلّق على كتف، ولكنّه كان يحمل الوضوء منتظراً اللحظة التي يُخاطب فيها الحبيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلبه؛ فجاءته لحظة الكشف: «سَلْ»<sup>(١)</sup> قالها النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لم تُقل من قبل؛ سؤال مفتوح على مصراعيه أبوابه السماء، ومفاتيحه القلب.

(١) أخرجه مسلم.



في مثل هذا الموقف قد يسأل الناس مألًا، أو منصبًا، أو فرجًا دنيويًا، لكنه أجاب بوعي المحبة النقية: (أسألك مرافقتك في الجنة).

إنها لحظة يتجلى فيها السؤال بوصفه ميثاقًا بين العبد وغاية الخلود؛ لحظة تدوب فيها كل فواصل الزمان، ويهتف القلب بلسان الوعي: لا أريد الجنة فردًا، ولكن بصحبة من علمني كيف أرى؛ فجاءه الجواب النبوي مفتاحًا لصناعة الروح: (فأعني على نفسك بكثرة السجود)؛ هكذا أعطى السؤال مقامًا سامقًا، فما أعظم الفرق بين من تسأل بغيظ وحنق: هل فستاني يشبه فستانها؟ وبين من يسأل بشوق ووجد: كيف أكون في جوارك يا رسول الله في جنة الخلود؟

إنها قلوب عظيمة لا تضيق بأسئلة المعنى ولو ضجت حولها كل أسواق التفاهة، وإنها أسئلة لا تزهر إلا في ظل السجود، ولا تُجاب إلا على أعتاب النبوة. فإذا رأيت شابًا في زحمة الزحام يهمس لنفسه: (أسألك مرافقتك في الجنة) فاعلم أن القلب الذي يُحسن اختيار سؤاله قد اختار مصيره.

إنَّ الأسئلة التي تبني لا تُولد في صخب الاستهلاك وإنَّها في سكون التأمل، والسؤال الذي يغير لا ينبثق من قلق المظهر وإنَّها من لهفة المصير، وحده الذي يُربي في قلبه همًا كبيرًا يرزق الله تعالى سؤاله جناحًا ليحلّق به من تراب العادة إلى نور الحقيقة.



## ○ رابعًا: انكسار النموذج المثقف وسقوط القدوات المفكّرة

إنّ السؤال لا يولد في الفراغ ولكنه ينبت في ظلّ قدوة ويستقيم في رعاية عقل كبير، لكنّ هذا الظلّ قد انكسر وتلك الرعاية قد تلاشت.

لقد عاش جيلٌ من الشباب وهمّ (المثقف المنقذ) و(العالم الربّاني)، فلمّا دنا الزمن من اختبار الصدق تهاوت كثير من هذه الصور كما يتهاوى الطين إذا جفّت فيه الروح.

تحوّل بعض المثقفين إلى موظفين عند السّلطة يكتبون بأحبار الخوف ويمسحون بالبلاغة أقدام الطغيان، وتحوّل بعض العلماء إلى مجرد صدى يردّد ما يُملَى عليه ويلبس الواقع لباس القدر، ويُقنع الناس أنّ الجور حكمة، وأنّ الصمت تقوى.

كان الشباب يتطلّعون إلى العقول التي تفكّر بحرية؛ فإذا هم أمام شاشات تلمّع الجُبْن وتُجمّل الانبطاح، وكانوا يبحثون عن حوارات الفكر؛ فإذا هم في مهرجانات الصراخ والانفعال، وكانوا ينتظرون من يُعلّمهم كيف يسألون لا من يُرعبهم بجوابٍ واحد لا يُناقش.

إنّ غياب النموذج الملهِم لا يعني فقط فراغًا في المشهد العام ولكنه يعني تخفيف منابع السؤال ذاته؛ لأنّ العقل لا يجروء على التخليق إذا رأى كلّ من طار قبله قد سقط محترقًا أو مستسلمًا.

في لحظةٍ ما؛ كان الشاب إذا قرأ مالك بن نبي أو الطاهر بن عاشور أو محمد إقبال أو علي عزّت بيغوفيتش شعر أنّ السؤال بوابة الخلاص، واليوم حين يرى بعض من تُسمّى عناوينهم (كبار المفكرين) يسوّقون للاستبداد أو يُدافعون عن الجلّادين يسقط في نفسه النموذج ويسقط معه السؤال.



هكذا سقطت القدوة التي تُسأل فذبل السؤال في القلوب؛ فالسؤال لا يعيش بين كتب الفلسفة فقط وإنما في عيون رجلٍ إذا تكلم رأيت الفكرة تمشي على قدميه، وفي سيرة عالمٍ إذا وقف على منبرٍ شعرت أن لسانه يسجد قبل أن يسجد جبينه.

إن انكسار النموذج لا يعني فقط ضياع صورة ولكنه يعني أن السؤال ترك وحيداً بلا من يرافقه في الطريق؛ فإذا لم نُعد صياغة النماذج سنسلم الجيل القادم إلى موتٍ فكريٍّ صامت، لا يُعلن موته لكنه يسرق روحه سؤالاً بعد سؤال.



## ٥ خامساً: الاغتراب الروحي أمام الحداثة الزائفة

في أروقة هذا العصر الذي يغذ السير نحو السرعة والأداء والمردود تسَلَّلت حادثة زائفة خادعة؛ تُسَبِّح للمصلحة، وتُمجِّد الكفاءة، وتُقيِّم الإنسان بما ينجز لا بما يوقظ، بما يراكم لا بما يتأمل، بما يملكه لا بما يقلقه.

وهكذا؛ تآكل البُعد الروحي العميق الذي كان يمنح الإنسان شجاعة الوقوف عارياً أمام السؤال؛ ذلك السؤال الذي لا يُطرح في سوق التوظيف، ولا يُقاس بدرجات الجدوى، ولكنه يُولد من جوف القلب حين يواجه الوجود.

لقد أصبح سؤال الغاية ترفاً متّهماً، وسؤال الله تعالى ثقلاً مزعجاً، وسؤال الخير والشر موضوعاً خارج المنهاج؛ صار الإنسان المعاصر يغلق نوافذه حين تهبّ عليه نسمة المعنى، ويخشى أن تسقط عليه فجأة نبوءة السؤال فتعري أمامه هشاشة البنيان الذي شيده على الرمال.

إنّ اغتراب لا يظهر في الكتب ولكنه يلمس في نظرات العيون وفي ذلك الخوف الباطن من التوقّف لحظة واحدة والتساؤل بصدق؛ فالإنسان اليوم يسير بسرعة مدهشة نحو اللاشيء.

لقد أغرق الإنسان المعاصر في محيط من التفاصيل اليومية؛ رسائل العمل، ونتائج الأداء، ومؤشرات النمو، ومشاريع (تطوير الذات)، ولكنه حين يخلد إلى نفسه لثانية يخاف؛ إنّه يخاف من فراغ المعنى الذي ينتظره خلف كل هذا الصّخب، ويخاف أن يطرح السّؤال لأنّه يعلم في قرارة نفسه أن الجواب قد يكلفه حياته القديمة، واختياراته المريحة، وربما مكانته بين المصفّقين.



في زمان أُهتَّ فيه التقنية وقُدِّست فيه الأدوات ضاق الفضاء الروحي حتى أصبح السؤال الوجودي كفرًا ناعمًا، وخيانة غير معلنة لعقيدة (الإنجاز)، ولم يعد الإنسان في هذا الزمن يسأل: (هل ما أفعله حقٌّ؟)، ولكنه صار يسأل: (هل يُنتج؟ هل يُعجب؟ هل يُربح؟).

وما لم نقم باستعادة الروح إلى ساحة السؤال؛ سيبقى العقل يدور في فراغ مغلف بالذهب، وتبقى النفس تهول من إنجازٍ إلى آخر كأنها نفرّ من نفسها. الأسئلة الوجودية لا تموت لكنها تُخدَّر؛ تنتظر لحظة صدق لتعود، وحين تعود؛ إمّا أن تُنقذ أو تُزلزل، فليكن لدينا شجاعة الإصغاء إليها لأنّ من لا يسأل عن مصيره سيقاد إلى مصيرٍ لم يختره.



## ٥ سادسًا: فقدان الأمان النفسي أمام الإجابات المُحرّجة

السؤال الحقيقي لا يطرق الباب برقّة ولكنه يقتحمه، ولا يستأذن على أعتاب النفس ولكنه يقتلع مسلّماتها من الجذور، ويترك العقل مضطّرًا إلى أن يعيد ترتيب خرائطه من جديد؛ ولذلك يخافه كثيرون.

إنّ في السؤال الصادق زلزالًا وديعًا يهزّ أركان النفس ليقظها من سُبات الرضا الكاذب، لكنه مع ذلك يُرعب الأرواح التي ألفت الاستكانة وتماهت مع صورة متماسكة عن نفسها لا تجرؤ على امتحانها.

في باطن كل يقين هسّ تقبع خشية السؤال، وفي صلب كل فكرة مشيّدّة على أعمدة التكرار يسكن رعبٌ من أن يأتي سؤالٌ لا تُحتمل إجابته، ولهذا يهرب الشباب من الأسئلة الحقيقية لأنهم لا يملكون الشجاعة الكافية لاحتمال الإجابة.

السؤال الحقّ لا يُريح ولكنه يُقلق، ولا يُسكّن ولا يقف عند سطح العبارة ولكنه يغوص إلى منطقة الصدمة الوجودية حيث كل شيء قد ينقلب رأسًا على عقب.

في زمنٍ تهيمن فيه (إجابات الراحة النفسية) تلك التي تُرضيك لا تلك التي تُواجهك؛ بات الجواب الأشد هشاشة هو الأكثر رواجًا، وبات السؤال الأكثر صدقًا هو الأكثر رعبًا.

فمن ذا الذي يجرؤ أن يسأل نفسه: (هل أنا على الطريق؟) و(هل ما أو من به نابع من يقينٍ أو من وراثته؟) و(هل الحقيقة التي أتمسك بها، أنا من اختبرها، أم أنني تلطّفت بها لأشعر بالأمان فقط؟).



الخوف من السؤال هنا خوف من زعزعة البناء النفسي الذي أُقيم فوق مساحات رخوة، ولهذا يُفضّل كثير من الشباب البقاء في حُضن أجوبة مريحة ولو كانت زائفة على أن يخرجوا إلى عراء السؤال الذي قد يجردهم من كل يقين مألوف؛ فليس أشقّ على النفس من أن ترى صورتها في مرآة الحقيقة وقد تهشمت.

إنّ من لا يحتمل السؤال لا يحتمل الحقيقة، ومن لا يحتمل الحقيقة لا يحتمل الحياة بمعناها العميق؛ فالسؤال إذن ليس مجرد فضول ولكنه شجاعة مواجهة، وصدق مع النفس، واستعدادٌ للانقلاب على الذات إن لزم الأمر.

في زمانٍ باتت فيه الطمأنينة أهم من الصدق نحتاج إلى من يعيد للسؤال قيمته الأخلاقية والوجودية؛ لأنه الطريق الوحيد إلى وعي لا يتورط في تزييف نفسه.



## ٥ سابعًا: تآكل الحس الحضاري وإغلاق أفق المشروع

الشعوب التي تنسى أنها خلقت لتضيف شيئاً إلى التاريخ تفقد تدريجياً القدرة على التساؤل الحضاري، وحين يعجز الجيل عن أن يسأل: (لماذا تأخرنا؟)، فاعلم أنه قد تماهى مع التأخر حتى صار جزءاً من تكوينه النفسي، فلا يستفزه، ولا يجرّكه، ولا يشكّل له قلقاً وجودياً، والسؤال الحضاري لا يُولد من فراغ وإنما من وعيٍ بأننا كنا شيئاً، وأنا قادرون أن نكون مرة أخرى، لكن هذا الوعي يتآكل اليوم ليس لأن الأمة عاجزة ولكن لأن إحساسها بأنها جديرة بالتهوؤ قد تلاشى؛ وعندما انسحب المشروع من الوجدان؛ انسحب السؤال معه.

الشباب الذين لا يسألون: لماذا تخلفنا؟ ولماذا لم تعد القيم تصنع الحضارة؟ ولماذا لم نعد نُصدّر فكرًا ولا علمًا ولا رؤية للعالم؟ لا يفعلون ذلك عن جهل وإنما يفعلون ذلك لأنهم يعرفون في أعماقهم أن الجواب سيواجههم بمرآة شديدة الوضوح: مرآة التخلي، ومرآة الانبهار، ومرآة التعلّق بالآخر ليس باعتباره (الآخر) ولكن باعتباره (المرجع).

فأن تسأل: (كيف نهض؟)، يعني أن تعترف أولاً أننا سقطنا، وأن تسأل: (لماذا سقطنا؟)، يعني أن تحمّل أنفسنا شيئاً من المسؤولية، وهذا الاعتراف مؤلم في زمن الهروب العام إلى التعليلات المريحة: المؤامرة، والقدر، والحسد، أو (هذا زمن آخر ولسنا له).

لقد تآكل الحس الحضاري لأن العقل لم يعد يرى الأمة مشروعاً ولكن مجرد ذكرى، فتحوّل التاريخ إلى متحف، وتحوّلت الهوية إلى شعار، وأغلق باب السؤال؛ لأن الجواب صار كاشفاً غير محتمل؛ وفي لحظة الصمت تلك؛ انتصر اليأس.



إنّ السؤال الحضاري ليس ترفاً فكرياً ولكنه بداية الطريق نحو النجاة فهو الدليل على أننا لم نمت بعد، وعلى أن الشكوى من التأخر ليست بكاءً ولكنها نداءً للقيام.

لكن من لا يرى نفسه أهلاً لحمل الرسالة فلن يسأل كيف يحملها، ومن ظنّ أن مجده يكتبه الغرب فلن يسأل كيف يستردّ قلمه، فالسؤال الحضاري فعل مقاومة، ومن لا يسأل: (أين موضعنا من العالم؟) لن يكون له موضع أصلاً.



## ٥ ثامنًا: القطيعة مع سؤال الوحي والنبوة

في الزمن الذي صار فيه السؤال ترفناً نسي الناس أن أول الطريق إلى النبوة كان سؤالاً، وأن أول آية نزلت من السماء لم تكن أمراً بالصلاة ولا نهياً عن منكر ولكنها كانت أمراً بالقراءة.

النبوة بدأت بسؤالٍ من نور؛ ﴿أَقْرَأُ﴾ [العَلَق: ١] ولم يكن محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا قبلها لكنه كان يسأل في غارٍ صامت ويتأمل في المدى المجهول حتى جاءه الجواب من الغيب فصار نبيًا.

لكن هذا الجليل وقد انقطع عن أنفاس الوحي؛ لم يعد يرى في السؤال طريقًا للنبوة ولكنه يراه عبثًا على الراحة، أو مرآة تُحرجه، أو مجرد لغوٍ لا يطعم ولا يسقي.

السؤال في القرآن ليس استهلاكيًا معرفيًا ولكنه خلقٌ جديد للوعي؛ يسألونك عن الروح؛ فيأتيهم الجواب الذي يكشف حدَّ الإنسان، ويربي التواضع، ويبقي سرَّ الله تعالى في غيبه، ويسألونك عن الساعة؛ فيأتيهم الجواب بندااء الاستعداد، ويسألونك عن الأنفال؛ فيأتي الجواب نازعًا الغنائم من أيدي الطمع، ورافعًا الراية إلى طهارة المقصد، ويسألونك عن الجبال؛ فلا يكون الجواب جغرافيًا ولكنه يأتي رؤيا مزلزلة عن مصير الأكوان.

هذه هي أسئلة الوحي؛ ليست لهواً ذهنيًا، ولا لغزاً أكاديميًا، ولكنها مفاتيح للنجاة، ومصابيح على طريق الخلاص، فمن ينقطع عن هذا النسق الرباني في السؤال يُبتلى ببدائل سطحية؛ أسئلة الهاشتاغ، وأسئلة (الترند)، وأسئلة لا تصنع مصيرًا ولكنها تستهلك أعمارًا.



لقد غاب السؤال عن الله تعالى فغاب السؤال عن الذات، وغاب السؤال عن المصير فغاب السؤال عن الرسالة، ومن لا يسأل: (لماذا خلقت؟)، سيسأل: (كم ربحت؟) ومن لا يسأل: (ما معنى الوقت؟)، سيسأل: (كم متابعًا لدي؟). إن القطيعة مع سؤال النبوة انقطاعٌ عن إمكانية النجاة، وعن خرائط الخلاص، وعن الوعي الوجودي العميق؛ فمن أراد أن يعود إلى ذاته فليعد إلى الوحي، ومن أراد أن يطرح سؤالاً ينجو به فليضعه على باب النبوة، فإن لم يجد جوابًا صريحًا، وجد نورًا هاديًا؛ وذلك وحده يكفي.



## ٥ تاسعاً: استبطان صورة (العالم المعصوم) وغياب

### ثقافة الحوار

ليس من قبيل المصادفة أن ينشأ جيلٌ بأكمله على صورة العالم الذي لا يُسأل، والشيخ الذي لا يُراجع، والمعلم الذي لا يُعارض؛ فقد أُنتجت صورة معرفية هرمية مغلقة جرى فيها تشييد سلطة (العارف الأوحده) كما تُشيد المعابد القديمة، لا يسكنها إلا صوت واحد فيها على الآخرين أن يُطأطأوا الرؤوس ويهمسوا بالتسليم.

وهكذا حين يشرع أحد الشباب - في غفلةٍ من هيبة المجلس - في طرح سؤال ناقد، أو رأيٍ مختلف، تتدفق حوله النظرات كأنه ارتكب جرماً فكرياً، وتُردّ عليه الكلمات بهراوة الصمت: (اسكت، عيب!) أو (كيف تجرؤ أن تناقش العلماء!؟) أو (من أنت لتقول رأيك أمام هؤلاء!؟).

وهنا يُغتال في المهد سؤال الوعي نفسه؛ إذ لم تعد المعرفة تُنتج في فضاء الحوار، ولكنها تُلقى من علٍّ على جماهير السامعين، تُقدّم كأنها قدرٌ لا يُراجع، لا بوصفها اجتهاداً يُفهم ويُفكك ويُجتهد فيه مرةً أخرى.

وحين تتحوّل العلاقة المعرفية بين الطالب والعالم إلى علاقة بين التابع والمعصوم تفقد الحركة العلمية روحها ويتحوّل العلم نفسه إلى سرديّة مغلقة لا تلد جديداً، ولكنها تكرر نفسها كما تُكرّر الطقوس الجامدة.

إنها أزمة خفية ولكنها قاتلة لأنها تُرهب العقل باسم التوقير، وتُخرسه باسم الأدب، وتمنع عليه نعمة السؤال باسم (الهيبة)، فصار الطالب يخشى أن يعارض أستاذه وإن كان يعلم خطأه، ويكبت رأيه وإن ارتجف قلبه بما فيه من



يقين، لأنه تعلم أن (الاعتراض وقاحة)، وأن (السكوت أدب)، وأن (الشيخ أعلم وأتقى)، حتى لو كانت أدلته معلولة أو منطقته واهناً، وبهذا تُغتال ثقافة الحوار من أساسها.

و حين تُحمد نيران السؤال فإن أول ما يُدفن ليس الفكرة بل الشجاعة؛ فالشجاعة أن ترى وأن تراجع، وأن تسأل دون خوف من فتوى التكفير أو شتيمة (قلة الأدب)؛ فالعلم الذي لا يُحاكم صاحبه ولا يُخضع للبرهان ليس علمًا ولكنه سلطة متكلسة؛ والعالم الذي لا يُطاول ولا يُناقش ليس إمام هدى ولكنه ظل صنم من أصنام الجاهلية أُعيد طلاؤه بطلاء التدين.

إننا لا نتقص من العلماء ولكننا نعيدهم إلى حقيقتهم الجميلة؛ أنهم بشرٌ يسعون، ويصيرون ويخطئون، ويؤخذ منهم ويُردّ عليهم، كما قال الإمام مالك نفسه: (كلُّ يؤخذ من قوله ويُردّ، إلا صاحب هذا القبر)<sup>(١)</sup>، وإن أرقى ما يُقدّم للعالم هو تلميذٌ صادق يناقشه بأدب، لا عبدٌ مطيع يُسكت عقله عند أقدامه.

وما لم يُفتح باب السؤال المشروع في حضرة العلماء فإن الشباب سيبحثون عن أبواب أخرى ولو كانت على ضفاف العدمية، أو على قارعة الشكوك المترجمة؛ فالفكر إذا حُبس في المساجد طار إلى المقاهي، وإذا قُمع بين العلماء استدعاه المنكرون.

لهذا، فإن تحرير صورة العالم من هالة العصمة لا تُقلل من مكانته ولكنّها تعيد إليه مقامه الحق؛ حارسًا للحق لا مالكا له، ومشاركًا في رحلة النور وليس حارسًا على بوابتها، والسؤال هنا ليس خيانة بل وفاء، وليس خرقًا ولكنه ميثاق؛ لأنّ الدين الذي لا يُسأل يتحوّل إلى أداة قمع لا مشروع خلاص.

(١) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم: ١٤٥/٦.



## عاشراً: العشاشة الهويّاتية أمام العولمة

لم تكن العولمة مجردّ انفتاح اقتصادي أو تقارب تواصلّي بين الشعوب، ولكنها كانت - في حقيقتها الغائرة - آلة طحن للهوية، تجرف الداخل قبل الخارج، وتقتلع سؤال الذات من جذوره لتستبدل به شعوراً ضبابياً لا يمسك شيئاً.

لقد تلاشت في عالم العولمة معالم (الأنا الحضارية) التي كانت تنبع من الانتماء إلى مشروع أمة ومشروع رسالة ومشروع قيم، وتحولت الهوية إلى قميص يغيّره الإنسان حسب مزاج السوق، وحسب خوارزميات الرائج في (الترند) اليومي.

إن أخطر ما فعلته العولمة ليس أنها أجهزت على الأجوبة الكبرى وإنما أنها اغتالت السؤال نفسه؛ لم تقتل (من أنا؟) صراحة، ولكنها أغرقتها في ضجيج البدائل؛ فصار الشاب يظنّ أن (من أنا؟) تعني: ما شكلّ جهازي؟، أيّ ماركة أرتدي؟، كيف تبدو صفحتي على الإنستغرام؟ بينما الهوية الحقيقية كانت تسأل: من أين أتيت؟ ما رسالتي؟ ولمن أنتمي حين يعصفُ الزيف؟

لقد غابت الجذور وبقيت القشرة، وغاب سؤال (من أنا بوصفي امتداداً لرسالة السماء؟)، ليحل محله سؤال خافت: (مع من أنتمي كي لا أبدو غريباً؟)، وهكذا لم يعد الانتماء فعلاً حرّاً ينبع من وعي ولكنه غداً استجابة غير واعية لضغط الجماعة الافتراضية، وسعيّاً للقبول اللحظي ولو بثمان الذوبان؛ ذلك الذوبان الذي يلبس فيه الإنسان قناعاً غريباً، وذوقاً استهلاكياً، ولساناً مزدوجاً؛ ولسان الحال يقول: أنا كل شيء إلا نفسي.

وهنا تُصاب الهوية بالهشاشة؛ هشاشة الذاكرة، وهشاشة الانتماء، وهشاشة الموقف، فلا الماضي يبعث على الفخر لأنه مُحي من الخيال الجمعي، ولا الحاضر



يمنح المعنى لأنه مستعارٌ من سواه، والنتيجة؛ غربة مزدوجة يعيشها الشباب بين الاشمئزاز من الذات لأنهم لم يتصالحوا معها، والانبهار بالآخر لأنهم لم يفهموه حقًا ولكنهم خضعوا لسطوة صورته التجميلية التي تبثها الشاشات.

إن سؤال الهوية لم يكن يومًا استظرافًا فلسفيًا؛ إنه سؤال المصير، ومن لا يسأل (من أنا؟) لا يستطيع أن يسأل (إلى أين؟)، لأنه يكون قد تاه في المنتصف بينهما، وكل مشروع نهضوي يبدأ من هذه اللحظة بالذات؛ لحظة الوقوف الجريء أمام المرآة الوجودية، والسؤال المزلزل: (من أنا؟) ليس كما يجيب السوق ولا كما يُبرمج الإعلام بل كما يجيب الوحي.

فالقرآن حين قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الدَّارِيَات: ٢١]، لم يكن يدعو إلى نرجسية الذات بل إلى كشف حقيقتها الكبرى؛ أنك لست كائنًا استهلاكيًا عابرًا في نهر الزمن، ولكنك خليفة في الأرض موصولٌ من التراب إلى السماء، ومن الوحي إلى التاريخ.

ومن لم يعرف نفسه ابتلي بأن يعيش في صور الآخرين، ومن لم يُنبِت جذوره في تربة مشروع حضاري يؤمن به كان عرضةً للانقياد عند أول عاصفة، فالهويات ليست ما نرتديه ولكنها ما نُفكّر به حين يختفي الجميع، وما نبقي عليه حين يُطلب منا أن نتنازل.

والهوية ليست ما يُمنح ولكنها ما يُكتشف، والسؤال عنها ليس ترفًا فلسفيًا بل هو أول الطريق نحو النهضة، ومن لا يسأل (من أنا؟) سيُسأل يومًا (لمِ صرّت غير ما خلقت له؟) وحينها قد لا يملك إلا الصمت.



## ٥ حادي عشر: هيمنة النزعة الأداتية على العقل المعاصر

لم يعد العقل في زمننا أداة بحث عن الحقيقة ولكنه صار أداة بحث عن المردود، وبهذا الانقلاب العنيف سقطت من عرش السؤال كل قضايا الوجود التي لا تُقاس على ميزان السوق ولا تندرج تحت جدول المهام، ولا تصنع شهرةً في تطبيق، أو عائداً في حساب مصرفي؛ فغدت الأسئلة العظيمة كأنها طيفٌ قديم لا مكان له في (العقل العملي) الجديد.

تُطرح اليوم الأسئلة بهذا الشكل المقلب: ما فائدة هذا التخصص؟ كم سيجلب لي من مال؟ هل يُضيف لسيرتي الذاتية؟ أما أن تسأل: ما الغاية من حياتي؟ أو: ما الجمال؟ أو: لماذا نحبّ الخير؟ فهذه أسئلة يُنظر إليها بوصفها رومانسيات فكرية لا يليق بها أن تراحم أسئلة (النجاح).

لقد هيمنت (البراغماتية) على العقل حتى ما عادت البراءة الفلسفية تجد موطنًا لها، وصار السؤال يُذبح على عتبة (الجدوى)؛ فإن لم يكن له عائداً مباشرٌ حُذِف من قائمة الاعتبار، وهذا الانقلاب المعرفي الخطير حوّل العقل من عينٍ تُبصر العمق إلى يدٍ تبحث عن الصيد، ومن مرآة تُراجع الذات إلى آلة تقيس الإنجاز.

وحين تسود (النزعة الأداتية) تنكمش الروح ويضمحلّ الوجدان، وتُهْمَش الأسئلة التي تصنع المعنى؛ فالسؤال لم يعد يبحث عن (الحق) ولكنه صار يبحث عن (الربح)، والإنسان لم يعد كائنًا يتأمل الوجود ولكنه أصبح موظفًا في شركة الوجود، مطلوبٌ منه أن ينتج لا أن يتفكّر.



تأمل في هذا التحوّل: كان الفلاسفة قديمًا يسألون عن الفضيلة، وعن الكمال، وعن الله تعالى، وعن الخير، وعن النفس؛ أما اليوم فيُسأل الشاب عن: كم يتقاضى المبرمج؟ هل الذكاء الاصطناعي (يوظفني)؟ هل قراءة الشعر تضيف لنقاطي في مقابلة العمل؟

صار الفكر خادمًا للاستهلاك بعد أن كان سيّدًا على كلّ نزعة، وسقط السؤال الجوهري من سُلم الأولويات لأنه لا يُطعم خبزًا؛ لكن أحدًا لم يسأل: وهل الخبز وحده يُبقي الإنسان إنسانًا؟ وهل الاكتفاء المادي يمنع الانهيار الروحي؟ إن الحضارات لا تنهض حين تُحسّن أدواتها وإنّما حين تصحّح أسئلتها، وكلّ أمةٍ استبدلت بسؤال المعنى سؤال المنفعة فإنها تتقدّم على عجلات الذهب إلى هاوية لا قاع لها، وما أفسى أن ترى شابًا يملكون طاقة الوعي ثم يُستدرجون إلى قياس العالم كلّه بمسطرة السعر وقيمة الذات بمؤشّر الإنتاجية.

إنّ تحرير العقل من سطوة (العائد) هو أوّل خطوات عودته إلى أصله، أن يكون عينًا ترى لا يدًا تلتقط، وأن يعود السؤال ليُسأل لأنه ضروري للروح وليس لأنه نافع للجيب؛ فبغير هذا سننتج آلاتٍ بشرية بارعة لكن لا تُنتج إنسانًا واحدًا يسأل من قلبه: (لم أنا هنا؟) وذلك هو الخسران المبين.



## ⊙ ثاني عشر: الانغماس في العبثية الوجودية واليأس من المعنى

لا تُولد الأسئلة من فضولٍ معرفيٍّ بالضرورة؛ فبعضها يُولد من أمل، وبعضها من وجع، وبعضها من يقينٍ بأن للكون مغزى يُرجى، لكن حين تُختطف الروح من مدار المعنى وتُلقى في جاذبية العبث يصبح السؤال ترفاً لا طائل منه، ويغدو الصمت ملاذاً لمن لم يُعد يصدّق أن هناك من يستحقّ أن يُسأل، أو حقيقةً تستحقّ أن تُكتشف.

إنّ الحداثة المتأخّرة وقد نفضت يدها من الغايات الكبرى لم تكتفِ بأن تسلب الإنسان يقينه بالله تعالى ولكنها سلّبت يقينه بأن للحياة مغزى أصلاً؛ فانهار المعنى تحت ركाम النسبية، وتهاوى السؤال في جُحّة اليأس، وأصبح العالم في وعي كثير من الشباب مسرحاً سريالياً عبثياً لا يسير إلى غاية، ولا يحتكم إلى عدل، ولا يحمل في ذاته حكمةً تُرتجى.

من يرى العالم على هذا النحو لا يسأل: (لماذا خلقت؟)، لأنه لا يرى خلقاً ولكنه يرى انفجاراً عشوائياً، ولا يسأل: (أين أسير؟)، لأنه لا يرى طريقاً أصلاً وإنّما يرى فراغاً مترامياً، وحين يُفرغ الوجود من المعنى تُغتال الحاجة إلى السؤال، ويُحال العقل إلى التقاعد القهري.

وهكذا تسرّبت (العدمية) من جدران الفلسفات إلى شرايين النفوس، شبابٌ يملكون الذكاء والموهبة لكن قلوبهم مثقلةٌ بالالاجدوى؛ ينظرون إلى الشمس ولا يرون فيها نوراً، ويسمعون القرآن ولا يشعرون فيه وعداً، ويقرؤون التاريخ فلا يبصرون فيه حكمة، ويسألونك: (لماذا أتعب نفسي؟) ليس لأنهم متغرسون ولكن لأنهم مكسورون من الداخل.



هذه العبثية ليست موقفاً فلسفياً فقط؛ إنها مرض روحيّ قلب البوصلة في الأعماق؛ فلم يعد السؤال وسيلة للبحث ولكنه غداً دليلاً على السذاجة، وأصبح الضحك المرّ على كلّ شيء هو الدين الجديد، والسخرية هي الغلاف الحديدي الذي يُخفي هشاشة الروح وخوفها من أن تعترف بأنها تائهة تبحث عن يقين.

إن اليأس من المعنى أخطر من الجهل بالمعنى؛ فالجاهل يسأل أما اليائس فلا يرى جدوى في السؤال أصلاً، والعبثية لا تقتل العقل ولكنها تقتل القلب أولاً؛ فتتزع عنه توفقه الفطري إلى الكمال، وحينه إلى الغيب، وشوقه إلى أن يكون لحياته وزنٌ في ميزان الحقّ.

وما لم تُدأِ هذا الجرح الروحي العميق فكّل نداء إلى (السؤال الفلسفي) سيصطدم بسور من اللامبالاة، لأنّ العدم لا ينصت والفراغ لا يستجيب.

لكن الوحي منذ البدء جاء ليقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فهذا النداء الإلهي ليس فقط جواباً على العبث ولكنه صفة له، وبداية لبعث السؤال من قبره؛ لأننا حين نصدّق أن في الخلق حكمة نعود ونسأل وعندها يبدأ الوعي.



## ٥ ثالث عشر: الانشطار الداخلي بين السؤال الحقيقي والسؤال المستعار

لا يمكن اعتبار أن كل سؤال يُعبّر عن حاجة حقيقية في الوجدان، ولا كل استفهام يُتلى نابغ من حُرقة في القلب أو عطش في الفكر؛ ولكن ثمة أسئلة تُردّد على الألسنة كما تُردّد الكلمات الرائجة بلا أصلٍ ولا جذر، فهي أسئلة هجينة ومستوردة نبتت في تربة غير تربتنا، ونبتت في زمان غير زماننا ولكننا نُحاكيها تقليدًا لا تفكيرًا.

في زمن التبعية الثقافية استحال السؤال في وعي كثير من شباب الأمة إلى صنعة مستوردة لا يُطرح لأنه نابغ من قلقٍ حضاريٍّ أصيلٍ وإنما لأنه (رائج) في قنوات الآخر، فصار الشاب العربي يسأل عن (الجندر) قبل أن يسأل عن الأخلاق، ويستमित في الدفاع عن (العلمانية) قبل أن يُبصر معنى السيادة، ويتكلم عن الحريات الفردية دون أن يسأل عن حرية أوطانه من الاستعمار الناعم.

هذا الانشطار بين (السؤال الحقيقي) و(السؤال المستعار) هو أحد وجوه الفصام الثقافي الذي تعانیه الأمة؛ تُناقش قضايا الآخر بأدواته، في لغته، ووفق منظومته، لكننا لا نجرؤ على مناقشة أوجاعنا في ضوء هويتنا، وبمنهجنا، وعلى أرضنا؛ فنُصبح كمن يرتدي ثوبًا لا يفصله، ويمرّك لسانًا لا يفكر به، ويشتبك في معارك لم يحدّد ميدانها.

فأين أسئلتنا نحن؟ أين السؤال عن مشروع النهضة؟ أين السؤال عن السيادة المعرفية؟ عن مقاصد الشريعة في العصر؟ عن كيف نكون فاعلين لا مفعولًا بنا؟ عن كيفية الخروج من نفق التبعية إلى أفق الاستخلاف؟



إنَّ سؤال الآخر ليس خطيئة في ذاته لكن الخطيئة أن تُهمل أسئلتنا لحسابه، وأن نُسقط سؤال الإصلاح من أجل الركض وراء سؤال التفكيك؛ الخطيئة أن نتحوّل إلى جماعةٍ تقنّت على فضلات الفكر المستورد، وتفقد شهية السؤال عن الذات وتستعيز عنها بشهية التقليد.

لقد تحوّل السؤال -في كثير من الأحوال- من مرآةٍ تُراجِع الذات إلى قناعٍ يُرضي الآخر، ومتى أصبح السؤال قناعاً فقد صدقه، وانسلخ عن وظيفته، وغدا أداة تجميل وليس أداة كشف.

إنَّ السؤال الحقيقي لا يُستعار؛ السؤال الحقيقي يُولد من رحم المعاناة، من صرخة الحيرة، من شهقة الحقيقة عند منعرج الطريق؛ إنه سؤالٌ تُنطقه الذات لا اللسان، تحمله الهموم وليس الصيحات، ويكتبه التاريخ لا الموضة.

فما لم نستعد حقننا في طرح سؤالنا نحن بلغتنا، ومن صميم جراحنا وتطلعاتنا، سنبقى نحرق في أرض غيرنا، ونسائل أنفسنا بلسان غيرنا، ونتوه في الإجابات لأنها لم تُصنغ أصلاً لأسئلتنا.



## ○ ومضة ختام؛ السؤال نبض الحياة ومفتاح الخلافة

السؤال ليس ترفاً معرفياً ولا تمريناً ذهنياً يُؤدى في فراغ ولكنه إعلان وجود، وتمرين على الخلافة، وصيغة أولى للعبادة العقلية التي لا تُقبل إلا إذا وُلدت من قلبٍ يسأل، وعقلٍ يندهش، وروحٍ تؤمن بأن الله تعالى في كل شيء آية.

أزمة السؤال إذن ليست مجرد كسلٍ معرفي ولا ضيقاً بالأجوبة ولكنها انقطاع وجودي عن لحظة الاستخلاف، وتمزقٌ في العلاقة بين الإنسان وربّه حين يرضى أن يدوي في الصمت أو يحيا بأسئلة غيره.

لقد قُتل السؤال فينا لأن الدهشة قُتلت، ولأن المرّي صار يلقن لا يُدهش، والمعلّم صار يُلقني دون أن يُصغي، والخطاب الديني انزوى في قوالب جاهزة تُرعب من السؤال وتحشاه، والمثقف خان السؤال حين باع عقله لبلاط السلطة أو باعه لسوق الثقافة المعلّبة.

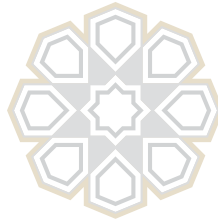
وما لم يستعد الشباب شجاعتهم الروحية وحرية تفكيرهم الفكرية، واعتزازهم بهويتهم الحضارية، سيقفون يستهلكون أجوبة لم يسألوها، ويعيشون باللسنة غيرهم وعقول غيرهم، ويُصنّفون لسؤال الآخر دون أن ينطقوا بسؤال الذات.

إن أزمة السؤال في حقيقتها أزمة معنى، وأزمة حضور، وأزمة إيمان بأن للإنسان وزناً في هذا الوجود، وأنه ليس رقماً عابراً في صحب المجرّات، ولكنه خليفة، موكلٌ بالسؤال، مكلفٌ بالبحث، مأمورٌ بأن يعرف ويهتدي ويكشف.

فيا أيها الشاب: لا تخش السؤال، ولا تخف من أن تُدهش، ولا تخجل من أن تسأل: لماذا أنا هنا؟ ومن أنا؟ وإلى أين؟ ففي هذه الأسئلة يبدأ طريقك وبها تُبعث من غفلتك، وتكرارها تُولد نفسك من جديد.



السؤال هو ضوءك حين يشتد الظلام، والسؤال هو روحك حين يبس  
الجواب، والسؤال هو وعد الله للذين يسألون: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ  
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وهو خطاب الأنبياء حين قالوا لقومهم: ﴿أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ﴾ فاسأل فإنك إن سكتت مت قبل أو انك، واسأل؛ فإنك بالخلافة أمرت  
وبالسؤال تبدأ الطريق.



# كيف نعيد للسؤال شرعيته وقيمته في فضائنا الفكري والمعرفي؟



لسنا هنا لنعلّم الناس كيف يسألون ولكننا هنا لنحرّر الفعل نفسه من السجن الذي أودع فيه؛ فقد اختُطف السؤال من ساحات الفكر ووضِع في قفص الاتهام، وصار كل من يطرحه يُطالب بإثبات حُسن نواياه قبل أن يُسمَع له صدى. فهل هذا مجتمع حيٌّ من الداخل، منفتحٌ على ذاته، أم هو جسدٌ مشلولٌ يأبى لمس جروحه حتى لا تتفجّر؟

إنّ المجتمعات لا تنهار حين تكثر الأسئلة ولكنها تنهار حين تُفرض الأجوبة، والجواب حين لا ينبع من حاجة روحية وفكرية حقيقية يصبح صنمًا؛ والسؤال حين يُكمّم يصبح ندبةً داخليةً في ضمير الأمة لا تُشفى.

إعادة شرعية السؤال لا تعني أن نسمح به في هوامش الكلام ولكنها تعني أن نعيد صياغة منظومة المعرفة بحيث لا تُبنى إلا من سؤال، ولا يُحترم عقل إلا بمقدار ما يقلق، ولا يُقاس النضج بكثرة ما نردّ بل بجرأة ما نُراجع.

في هذا الفصل لا يُطالب بالأسئلة ولكننا نُنقذها من الإعدام الرمزي، ونُعيد تنصيبها في موضعها الحقيقي؛ فعل مقاومة معرفية، وحقًا وجوديًا للذات، ومفتاحًا لتحوّل الوعي من التكرار إلى التشكل؛ فنحن لا نطلب إذن شرعية السؤال؛ نحن ننتزعها.



## ٥ أولاً: تحرير الفضاء المعرفي من سطوة الإجابات المتألّمة

ثمّة مرحلة في تطوّر الوعي لا يُقاس فيها العقل بكمّ ما حفظ وإنّما بجرأته على نزع الأقفلة عن الإجابات المتخشّبة؛ تلك المرحلة التي يصبح فيها العقل كائنًا يقف أمام (الجواب السائد) بوصفه نتاجًا بشريًا قابلاً للنقض وللختبار وللعبور.

فالأزمة الكبرى في فضاءنا المعرفي تكمن في أن السؤال محكوم مسبقًا ببنية جوابية مغلقة تمنعه من أن يُولد حرًّا، أو أن يشقّ طريقه في الهواء الطلق؛ وهي أزمة لا تتعلق فقط بمنع السؤال ولكنها تتعلق أيضًا بتأليه الجواب؛ الجواب الذي تسلّل من كونه محاولة بشرية إلى مقام (النصّ البديل)؛ والجواب الذي يتحوّل إلى وثنٍ فكريٍّ يُخشى على الناس من السجود له أكثر مما يُخشى عليهم من الشك.

لقد انتقلنا من مجتمع يقدّس النصّ إلى مجتمع يقدّس الشرح، ومن حضارة تسأل عن العلة والمقصد إلى بيئة تردّد العبارات كما لو أنّها مبادئ لا يجوز تقليبها.

في مثل هذا المناخ لا تعود (حرية السؤال) حقًا ولكنها تصبح تهديدًا يُقابل بالإلغاء أو بالازدراء، والسؤال لا يُجاب عليه ولكنه يُدان ويُحنق؛ تمامًا كما حُنق ذاك الطالب الذي سأل في مناقشة علمية عما يراه من علل في قول فلان فليل له باستهزاء: (ومن أنت حتى تسأل؟! ) وهنا تتكشف المأساة؛ أن يُطلب من الإنسان أن يُفكّر ثم يُوبّخ إن فعل.

إنّ أخطر ما يُصيب العقل في بيئة مثل هذه ليس الجهل ولكن الاستقالة الطوعية تحت سطوة الإجابة المتألّمة؛ ذلك النوع من العجز المعرفي الذي



يجعل الشاب يكرّر أجوبة غيره لأنه خاف من أن يُقال له (تجاوزت الحد)، أو (تطاولت على الكبار)، أو (شككت في الثوابت).

لكن أي ثوابت هذه التي تهتزّ من مجرد سؤال؟ وأي علم هذا الذي يخاف من تلميذ لم يتجاوز العشرين؟ وأي إيمان هذا الذي ينكفى من كلمة (لم أفهم)؟ في القرآن الكريم يأتي السؤال مفتاحاً للوحي، فالخطاب الإلهي لا يغلق الباب بل يفتحه: (يَسْأَلُونَكَ.. قُلْ).

بين (يسألونك) و(قل) جسرٌ إلهي من تشريع الحق في التساؤل بلا لوم ولا تجهيل ولا طرد إنما إجابة تُصاغ بميزان البلاغة ولغة الحكمة ونفس الرحمة. أما في ثقافة الإجابة المتأهّلة فالسؤال نفسه يخضع للتصنيف؛ فإن كان مطابقاً للسائد فهو (سؤال رشيد)، وإن مخالفاً له فهو (شبهة)، أو (ضلالة)، أو (إرجاف فكري)، حتى ولو كان صادقاً في دوافعه نزيهاً في طريقه.

وهكذا لا يعود السؤال جسراً إلى المعنى وإنما بوابة إلى العار، ولا يبقى الجواب مجالاً للاجتهاد لكنه يصبح قيداً يُطبّق حرفياً ولو على زمنٍ تغيّر ومجتمعٍ تبدّل، ولكن المعرفة إن كانت حقاً معرفة فإنها لا تهاب السؤال ولكنها تشتاق إليه، والمفكر الحقيقي لا يخاف من أن تهتزّ بعض قواعده لأنه يعلم أن الثبات لا يأتي من التكرار وإنما من التمحيص، والمعلم الذي لا يطبق سؤالاً هو في الحقيقة لم يُشَفَّ بعد من طفولته الفكرية، والعالم الذي يغضب من سائل لم يرتق بعد إلى مقام من يُنسب إليه العلم.

ولهذا فإن تحرير فضائنا المعرفي لا يبدأ من محو الجهل وإنما من كسر الطغيان؛ طغيان الجواب المتأهّ، وطغيان (قال فلان) إذا نُزعت عنه بشريته،



وطغيان الرواية إذا أُخِذَتْ خارج سياقها، وطغيان الاستشارة إذا أصبحت سلطة لا إضاعة.

ونحن هنا لا ندعو إلى فوضى عقلية ولا إلى التّهوين من مكانة العلماء ولا إلى تفكيك الثوابت ولكننا ندعو إلى تحرير العقل من الجمود، وتمكين السؤال من أن يتنفس دون أن يُخنق في مهده، لأن السؤال الصادق لا يهدّد الحقيقة ولكنه يطهّر الطريق إليها، والأجوبة التي تخاف من السؤال هي نفسها التي يجب أن تُسأل أولاً؛ من منحك هذه الهالة؟ ومن نصبك حاجزاً بين العقل وبين الله تعالى؟ ومن قال إن فهمك أقدس من الوحي نفسه؟



## ٥ ثانياً: ترسيخ فضيلة (لا أدري) بوصفها مقدّمة لنبل السؤال

إنّ أرقى درجات النضج العقلي ليست في كثافة الأجوبة ولكنّها في شجاعة الاعتراف بحدود الإدراك؛ فالعقل الذي لا يعرف كيف يتواضع لا يعرف كيف يتعلّم، والذي يأنف من أن يقول (لا أدري) لن ينطق يوماً بجوابٍ يليق بالحق. في أزمة الوضوح الفكري كانت (لا أعلم) علامة علم لا أمانة جهل؛ وكان الإمام يُسأل فيقولها خاشعاً لأنّه يعلم أن الكلمة التي لا تخرج من رحم يقينٍ أو بحثٍ إنّها تلد فتنة لا فهماً.

سُئل الشعبي عن مسألة فقال: (لا أدري) فقليل له: ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟! فقال رحمه الله: (لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢])<sup>(١)</sup>.

وقال عمر بن عبد العزيز: مَنْ قال لا أدري فقد أحرز نصف العلم؛ فعلق الجاحظ قائلاً: لأن الذي له على نفسه هذه القوة قد دلّنا على جودة التثبّت، وكثرة الطلب، وقوة المنة<sup>(٢)</sup>.

وتمعّن معي في قول ابن جماعة في (تذكرة السامع): (إذا سُئل العالم عما لم يعلم قال: لا أعلمه، أو: لا أدري)؛ فمن العلم أن يقول: لا أعلم، وعن بعضهم: لا أدري نصف العلم، وعن ابن عباس: إذا أخطأ العالم (لا أدري) أُصيبت مقَاتلته، وقيل: ينبغي للعالم أن يُورث أصحابه (لا أدري)؛ لكثرة ما يقولها، قال محمد بن عبد الحكم: سألت الشافعيّ عن المتعة؛ أكان فيها طلاق، أو ميراث، أو نفقة تجب، أو شهادة؟ فقال: والله ما ندري.

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم: ٤/١٦٨.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ١/٣٩٨.



واعلم أن قول المسؤول: لا أدري لا يضع من قدره - كما يظنه بعض الجهلة - بل يرفعه؛ لأنه دليل على عظم محلّه، وقوّة دينه، وتقوى ربّه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته، وقد رُوينا معنى ذلك عن جماعة من السلف.

وإنما يأنف من قول: لا أدري من ضَعُفت ديانته، وقلّت معرفته؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورقّة دين، وربما يشتهر خطؤه بين الناس؛ فيقع فيما فرّ منه، ويتّصف عندهم بها احترز عنه (١).

أمّا اليوم فقد أصيب العقل الشبابي بداء (الجواب الفوري) وذلك ليس لأن المعرفة تكاثرت ولكن لأن الوهم تضخّم، وكلما ازدادت (ثقافة الظهور) تضاعف الضغط النفسي على الإنسان ليكون في صورة من (يعرف كل شيء عن كل شيء)؛ فإن سُئل عن خلق الروح أفتى! وإن طُرِح عليه إشكال فلسفي أو لغوي أو شرعي أو اقتصادي صرخ قائلاً: (المعلومة سهلة اسمعني بس!).

لقد أنتج هذا السلوك الحديث - خصوصاً على وسائل التواصل - ما يمكن تسميته بالخنفساريّة الجديدة؛ وهي ظاهرة التّظاهر بالعلم مع الغياب التام للمعرفة الحقيقية، شبيهة بما تحدّث عنه العلماء الأسبقين حين ذمّوا من يتعالم قبل أن يتعلّم أو يتصدّر قبل أن يتدرّب على الانحناء أمام السؤال.

ففي خضم هذه الفوضى لم تعد (لا أدري) خياراً مطروحاً ولكنها باتت في وعي كثيرين علامة ضعفٍ وخسارة جمهور؛ حتى الأستاذ الجامعي، أو الخطيب على المنبر، أو الداعية في بث مباشر يشعر أن قول (لا أعلم) تهديد لصورته؛ فكيف يعترف بجهل مسألة أمام المتابعين؟ فيختلق جواباً أو ينقل عن غيره دون تروٍ ويفقد بذلك شرف الجواب وكرامة العقل.

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ابن جماعة: ٦٨.



لكن الحقيقة التي يجب أن تُقال دون مواربة: إن قول (لا أعلم) قد يكون أكثر علمًا من ألف جوابٍ مزوّر؛ فهي العبارة التي تفتح الباب نحو الأفق، نحو المجهول الذي نحترمه لا الذي نخافه، وهي التي تُربّي في السائل والمجيب معًا روح التواضع المعرفي الذي يُنبِت الحكمة، ويمنع تضخّم الأنا العلمي الذي يُفسد المجالس ويُميت الحقيقة.

تأمل هذا المثال البليغ؛ سُئِلَ أستاذ فلسفةٍ في الجامعة عن قضية غيبية فابتسم وقال بهدوء: (لا أملك جوابًا يقينًا، لكن دعونا نقرأ معًا)، فانهدّ الحاجز بين الأستاذ والطلاب وولدت في لحظة صدقٍ واحدة رحلةً بحثٍ أصيلة لأن السؤال لم يُخنق ولأن الجواب لم يُختلق.

وهذا هو المربط الجوهرى في أزمة السؤال؛ ليس أن نعلّم أبناءنا ما نجيب به ولكن أن نعلّمهم متى لا نجيب، ومتى نُصغي، ومتى نقول: دعني أفكر؛ دعني أراجع؛ لا أعلم بعد.

لأن المعرفة ليست في تكديس الأجوبة ولكنّها في الانضباط أمام السؤال، ولأننا حين نجرؤ على قول (لا أدري) فإننا نحرّر عقولنا من عبودية الادعاء، ونؤسّس لها مقام العارف الذي يسير في درب الحقيقة لا الذي يتشبّث بشجرة وهمٍ تحت وهج الأضواء؛ فالذي لا يقول يومًا (لا أعلم) عن مسألة هو في الحقيقة لا يعلم شيئًا عن أي شيء.



## ٥ رابعاً: إحياء الدهشة المنسيّة بوصفها معين السؤال الأول

حين خُلِقَ الإنسان لم يُخلَقَ عالماً ولا منطقيّاً صارماً ولكنّه وُلِدَ سائلاً مدهوشاً؛ فخرج من ظلمة الرحم إلى بهاء الوجود فعاش دهشته الأولى؛ ما هذا الضوء؟ من هؤلاء؟ لماذا أبكي؟ تلك الأسئلة الفطرية الأولى لم تكن دروساً في الفيزياء أو الفلسفة ولكنها كانت بداية ما يُسمّى بالوعي، والوعي في جوهره لا ينشأ من الشرح وإنما من الدهشة.

الدهشة - في أعمق مستوياتها - ليست مجرد انفعال عاطفي مؤقت ولكنها النفس الأول للسؤال الجاد؛ إنها التوق لفهم ما وراء المألوف، والانتباه المتوتر إلى ما يبدو (عادياً) لكنه يخفي وراءه سحراً سرمدياً، وكلُّ أمةٍ تفرط في دهشتها الأولى إنما تفرط في أول شروط النهضة؛ التساؤل.

إننا اليوم نعيش في زمنٍ قُتلت فيه الدهشة بسيف الاعتياد، واغتيل فيه السؤال بيد الجواب السريع، وجُردت فيه العقول من شهقة التأمل، لأن الصورة صارت أسرع من الفكرة، والردّ الجاهز أبرد من الحيرة.

تأمل هذا المشهد الذي يتكرر كل مساء في آلاف البيوت دون أن ننتبه له؛ طفل صغير يقف أمام نافذة بيته يحدّق في نجمة وحيدة، ثم يلتفت إلى أبيه ويسأله بصوتٍ خافت كأنه سرّ: (بابا، هل هي تنظر إلينا أيضاً؟) فيضحك الأب؛ إما استهزاءً أو استعجالاً، ويحيب: (لا تفكر في هذه التفاهات، خلّص درسك بسرعة)، وينهي الحديث.

تلك اللحظة العابرة كانت لحظة دهشة بريئة، وكان يمكن أن تُثمر في ذلك الطفل حلماً علمياً، أو روحاً شاعرة، أو إيماناً وجودياً يجعل من الليل مصحفاً،



ومن النجم خطاباً؛ لكن الردّ القاسي قطع شجرة السؤال من جذرها، وهكذا بدلاً من أن ينمو السؤال إلى فكر ويمتدّ إلى إيمان يُقتل في مهده.

إنّ الدعوة إلى (إحياء الدهشة) ليست ترفاً عاطفياً ولكنها ضرورة حضارية؛ فالدهشة هي التي أخرجت إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من عبادة الكواكب إلى توحيد ربّ الكواكب، وهي التي جعلت موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يرتعد أمام النار ثم يسمع النداء، وهي التي قادت الغزالي إلى الشكّ كي يصل إلى اليقين، وهي التي جعلت ابن تيمية يقلب الكتب وهو في سجنه كأنها أنهار تسقي عطش روحه.

ولذلك لا يمكن أن يُبعث السؤال في أمة ماتت فيها الدهشة؛ وكل مناهجنا التربوية إن لم تخلق مساحة للدهشة فهي ليست أكثر من تدريب لا تعليم فيه، وكل حوارٍ لا يوقظ الحيرة فهو محض تلقين لا تفكير، وكل أبٍ أو أمٍّ أو شيخٍ أو أستاذٍ يسكت الطفل حين يسأل؛ يطفى شعلة المعرفة من أولها.

في هذا الزمن الذي صارت فيه المعرفة نسخاً ولصقاً يجب أن نعيد للدهشة هيبتها، وأن نربي أبناءنا على التأمل لا التلقين، وأن نستمع إلى أسئلتهم كما نستمع إلى أوجاعهم، وأن ندرك أن كل سؤال صغير في عين طفل قد يكون هو ذاته جسراً نحو عبقرية.

إنّ الأمة التي تدبل فيها الدهشة تموت فيها الفلسفة، ويتخشب فيها الفكر، ويُستبدل بالقرآن الكريم المقرّر الجاف وبالسماة الرّحبية شاشة الهاتف؛ فأحياو الدهشة تعود الأسئلة.



## ٥ خامسًا: تجديد صورة السائل من المغامر المشاكس إلى المفكر الجاد

في كثير من بيئاتنا الفكرية ارتبط مفهوم (السائل) بصورة المتمرد الخارج على النص أو الجماعة، أو بمن يسعى للتشويش وزرع الفتنة وليس بمن يريد أن يفتح نافذةً للوعي أو يضيء عتمة الفهم.

لقد تكّلت هذه الصورة حتى بات كل سؤال يخرج عن نطاق المألوف يوصف مباشرةً بالعدمية، أو التّغريب، أو التّأثر بالخطابات (المشبوّهة)، وكأنّ طلب الفهم صار تهمة، أو كأنّ طريق الإصلاح يجب أن يمرّ عبر الصّمت لا عبر الحوار.

لكن السّؤال في حقيقته ليس خصومة مع الجماعة ولا مشاكسة للمقدسات، ولكنّه ضمير الجماعة وعينها التي تفتش عن العطب وأذنها التي تلتقط ما يغيب عن إدراكها الجمعي ولسانها الذي يذكرها بما أهملته أو لم تتأمّل فيه بصدق؛ والسؤال ليس خصومة مع النص بل محاولة للاقتراب منه أكثر لإحياء روحه بدل دفنها تحت ركام التّأويلات الكسولة أو القراءات المبتسرة.

تأمّل تلك الشّابة التي تقف في متدى فكري وتساءل بهدوء وصدق: (هل نفهم منزلة المرأة في فقه الموارث فهماً تكاملياً يتسق مع مقاصد العدل أم أننا أسرى لبعض العادات التي تسربت إلى عادات اجتماعية قديمة تحولت إلى فقهٍ مُلزم؟) فبدل أن تجد من يفتح معها أبواب النقاش تُتهم بأنها (مؤدّجة) أو متأثرة بالخطاب النسوي الغربي، بينما قد يكون سؤالها - لو أخذ بجديّة - مفتاحاً لإعادة قراءة روح التشريع التي جاءت لتقيّم ميزان العدالة لا لتعيد إنتاج صراع بين الجنسين.



إنَّ وصم السائل بالمشاكسة يختزل الحوار في خطين متوازيين؛ خطَّ السَّلطة الذي يحتكر الجواب، وخطَّ الجماهير التي تصفَّق ولا تسأل، والنتيجة هي موت الفكر في مسرحية لا بطل فيها سوى (الجواب المحفوظ) ولكن المجتمعات التي تنهض هي تلك التي تكرم السائل ليس باعتباره متمردًا بل باعتباره شريكًا في صناعة الوعي.

إنَّ إعادة بناء صورة (السائل) تعني أن ندرك أنَّ من يسأل ليس خائنًا لموروثه ولكنّه وفيّ له لأنه يسعى إلى أن يبقى حيًّا في ضوء الزمن، وهي تعني كذلك أن نفصل بين السؤال الذي ينبع من رغبة حقيقية في الفهم والسؤال الذي يهدف للتشويش أو الهدم؛ فالأول هو ركيزة التقدم، والثاني دخان ينقشع أمام أول نسمة صدق.

علينا أن نربي أبناءنا على أن السؤال ليس عيبًا ولا تمرّدًا ولكنّه عبادة عقلية، وواجب أخلاقي، وأنَّ أعظم العقول عبر التاريخ لم تكن تلك التي أجابت بسرعة ولكنها تلك التي سألت بصدق حتى كادت تُخرج زمانها، والمجتمع الذي يطرد السائل الصادق إنما يطرد أفقه الخاص ويغلق باب النهضة قبل أن يُطرق.



## ٥ سادسًا: تعليم فقه السؤال لا صيغته فحسب

السؤال ليس تقنية لغوية ولا مهارة بلاغية تُدرّس في مناهج الخطاب ولكنه نمط وجود، وبنية تفكير، وموقف روحي عميق تجاه الكون والمعنى والمصير؛ فليست القضية أن يحسن الطالب صياغة السؤال بمنطوقٍ سليمٍ يُختتم بعلامة استفهام ولكن أن يحسن حمله من أعماق قلبه بوصفه صرخة بحث لا صفارة اعتراض.

إنّ أخطر ما اقترفته البيئات التربوية المعاصرة أنها درّبت الألسنة على تركيب الأسئلة ولم تربّ العقول على فلسفتها؛ فخرجت أجيال تحفظ (كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟) كأنها محركات بحث لكنها لا تسأل لأنها تريد أن تفهم وإنّما لأنها أمرت بأن تسأل! فصار السؤال طقسًا لا شغف فيه ومجرد صنعة وليس شرارة اشتعال الفكرة.

لكن الحقيقة أنّ السؤال الحق لا يُولد من فضولٍ سطحيٍّ وإنّما من رجفة دهشة، ومن توقٍ إلى الفهم يُذيب التردد ويخترق جدران الصمت، فأن تسأل إذن ليس أن ترفع يدك أمام أستاذ ولكن ترفع روحك إلى أعلى وأنت تقول: دلّني؛ فإني أجهل وأحبّ أن أرى.

ومن هنا لا بدّ أن نحرّر السؤال من قوالب الاحتجاج العقيم، ونُعيد تربيته بوصفه أحد أشكال التبتّل إلى الحقيقة؛ فأن تسأل ليس لأنك تريد أن تُفحم وإنّما لأنك تخشى أن تموت دون أن تعلم، وأن تسأل لا لأنك غاضب ولكن لأنك عطشان.



تأمل تلك الطالبة في كلية الطب حين سألت أستاذها: (ما معنى أن تكون الروح في الجسد؟) سؤالها لم يكن تشكيكًا في المناهج ولكنه كان تعبيرًا عن انفتاح مذهل بين علم الجسد ومسرات الروح، لكنها ووجهت بالتجاهل لأن سؤالها لا يحمل رقمًا في سلم العلامات ولا يوافق تسلسل (المحتوى الدراسي)؛ فخرنا بذلك لحظة نادرة من تلاقح الفلسفة بالتشريح، ومن غرس معنى القداسة في درسٍ ماديٍّ يُشرّح الأعضاء ولا يرى القلب.

إن تعليم (فقه السؤال) يعني أن نعلّم أبناءنا كيف ينبت السؤال من أرض التواضع لا من دخان العُجب؛ وأن نقول لهم: لا تسأل لتجادل ولكن اسأل لتكتشف، ولا تسأل لتُشكك وإنما لتستنير، ولا تسأل لتنتصر بل لتنجو.

فالسؤال ليس سلاحًا في معركة ولكنه بصيرة في رحلة، والسائل ليس مقاتلاً في حلبة فكرية ولكنه حاجٌّ إلى أبواب المعرفة يمشي على جمر الجهل بقدمي الشوق، وحين نعلّم أبناءنا هذا الفقه فإننا لا نعلّمهم الكلام بل نعلّمهم الحياة.



## ٥ سابعاً: تفكيك هرم السلطة المعرفية.. من المدرّس القاضي إلى المعلّم الرفيق

لا يمكن للسؤال أن يتنفس في قاعةٍ يشغلها خوف، ولا يمكن للفكر أن يولد في مجلسٍ يعلو فيه صوت الحكم على صوت التأمل؛ وطالما ظلت المعادلة المعرفية قائمة على تمركز السلطة في قمة رأس واحد، وأخضع الباقون لموقع (الطلاب) فإن الفكر سيظلّ طاعةً عمياء وليس هجرة إلى المعنى.

فالسلطة المعرفية حين تلبس لبوس التّفديس تتحول إلى أصنام فكرية لا تُتمس، ولا تُسأل، ولا تُراجع؛ فيصبح المعلّم قاضيًا، والسائل متهمًا، والسؤال ذاته قرينة على (الريبة)، ويُجتم المجلس بالتصفيق للجواب وليس بالتفكير في السؤال!

لكن المعرفة لا تزهر إلا في أرضٍ مستوية وليس في قممٍ شاهقة تنظر من فوق، ولا تنبت الفكرة إلا إذا شعر السائل أن رأسه ورأس معلمه على سطح واحد؛ سطح البشرية المشتركة، وسطح الجهل المشترك، وسطح الارتقاء المشترك.

إن أعظم ثورة فكرية يمكن أن نبدأ بها ليست في تطوير المناهج ولا في تجديد الكتب ولكن في تفكيك (هرم المعرفة) وإعادة تشكيله ليصبح أفقًا مفتوحًا لا سُلّمًا يصعده البعض ويمنع الآخرون، فأن يتحوّل الصفّ إلى منتدى، والمعلّم إلى نِدّ كريم، والمتعلّم إلى شريكٍ أصيل، هذه هي بداية نهضة السؤال.

تأمل معي مشهدًا مهيبًا؛ شيخ مسنّ جلس بين شبابٍ يختلفون عنه في العمر، وربما في اللّغة والوسائط لكنّه التفت إليهم وسأل بهدوء: (من عنده اعتراض على كلامي؟) ليست كلمات بسيطة ولكنها مفتاح لتحرير العقول؛ فبدأ أحدهم



يسأل، والثاني يراجع، والثالث يقترح، والشيخ لا يسكتهم لكنّه يُفكر معهم، ومع كل تساؤل ينكشف أمامهم باب، وتولد فكرة، وتنضج رؤية، والشيخ لم يفقد هيئته ولكنّه ازداد نوراً، والشباب لم يتجرّؤوا عليه ولكنّهم ارتقوا إليه؛ وهكذا تُصنع المجالس التي تخرج أجيالاً من المفكرين لا من الببغاوات.

إنّ تفكيك هرم السلطة المعرفية لا يعني فوضى ولا عدميّة ولا تساوياً قسرياً في المراتب؛ ولكنّه يعني أن يتخلّى المعلّم عن غطرسة (امتلاك الحقيقة)، وأن يمدّ يده لطلّابه ليس من أجل أن يعلو عليهم ولكن ليصعدوا معاً في مدارج البحث عن المعنى؛ فكل فكر لا يُمارس بشراكة يتحوّل إلى سلطة وكل سلطة تقطع جذور السؤال.



## ٥ ثامناً: تحويل السؤال من لحظة عابرة إلى فعل حضاري متجدد

السؤال ليس ومضة ذهن في عزلة ولكنه نواة حضارة، وليس زفرة عابرة لذاتٍ حائرة وإنما صرخة ميلاد لفكرةٍ قد تغير مصير أمة، وإن الشعوب لا تنهض لأن أفرادها فكروا لحظة ولكن لأن مؤسساتها احتضنت السؤال وصنعت منه طقساً جماعياً وكرّمته بوصفه شرط حياة ومحرك ارتقاء ونبض عقل لا يهدأ.

لا يكفي أن يسأل الفرد في خلوته ثم يعود إلى صمته المستكين؛ فما لم يُصدّق المجتمع هذا السؤال وما لم يتحوّل من اعتراف فردي إلى مشروع جماعي فلن تكون له جذور ولن يورق.

تأمل الحضارات التي صنعت مجدها؛ فهي لم تكتفِ بأجوبة صلبة ولكنها خلقت بنية ثقافية تحرس السؤال وتعيد إنتاجه وتربط كل طفل يولد بسلسلة النبض الطويل لهذا التساؤل العظيم، فلم تكن المدارس مقابر للأسئلة ولكنها كانت مخبرات لأفكار تولد، وآفاق تنفتح، ودهشة تُصان.

تخيل مشهداً راقياً؛ دولة لا تُعيّن وزراء ثقافة لتزيين المؤتمرات ولكنها تفعل ذلك لتفجير السؤال في المجتمع، فتُطلق كل عام (سؤالاً وطنياً) يُصبح حُمة الثقافة الجماعية؛ فعلى سبيل المثال تطلق سؤال العام ليكون في إحدى السنوات (ما مستقبل اللغة العربية في عصر الذكاء الاصطناعي؟)، ولا يُطلب من الناس الجواب الموحد ولكنهم يُدعون ليخوضوا رحلة التفكير؛ فيتنافس المراهق والشيوخ والمؤرخ والمبرمج والشاعر والمهندس في تقديم أجوبتهم مساهمةً في تشكيل وعي جديد.



عندها يتبدّد الخوف من الخطأ، وتنكسر هيبة الإجابات المقدسة، ويصبح السؤال هو بطل المشهد، ويتحوّل المجتمع كلّهُ إلى ساحة فكرية لا تهاب الجدل، ولا تحتقر الحيرة، ولا تهرب من المجهول بل تعانقه وتجعله جسراً إلى المعرفة.

حين نُخرج السؤال من هامش الندوات المتحرّرة ونضعه في قلب السياسات التعليمية وفي جدول أعمال خطط الإعلام وفي مناهج الأطفال؛ لا نكون قد بدأنا بـ(السؤال) فحسب ولكن بالنهضة؛ فالنهضة ليست هي الأجوبة الصحيحة وإنّما هي الجرأة على طرح الأسئلة الصحيحة ثم الجرأة الأعمق على أن نعيش لأجلها ونصبر حتى تثمر.



## ٥ تاسعاً: تحوّل السّؤال من صدى الأزمة إلى نداء الإمكان

السّؤال الذي يصرخ من عمق الألم ولا يرى سبيلاً للخلاص إنّما هو صدى لليأس وليس نداء للإمكان، ولكنّ عظمة السّؤال لا تكمن في مأساته ولكن في قدرته على التحوّل، وأن يخرج من ركام الانكسار ليبنيه من جديد، وأن ينقلب من مرآة للخذلان إلى محرّك للأمل، ومن توثيق للوجع إلى تدشين لرحلة جديدة. تأمل شاباً محاطاً بالجدران المتداعية في حيّ منسيّ في أطراف مدينة لا تراها كاميرات التنمية؛ يسأل بمرارة: (لماذا نحن هنا؟ لماذا نولد في الظلال المهمشة والمنسيّة؟)؛ إنّ سؤال صادق لكنّه في شكله هذا معلق في الفراغ؛ فهو يلهث ولا يمشي، وينوح ولا ينهض.

لكنّ نفساً جديداً يدخل حين يلقاه مُفكر أو ناشط لا يحتقر وجعه ولا يصفعه بالسكوت ولكنّه يقول له: (جميل سؤالك لكن ماذا لو سألته بشكل آخر؟ ماذا لو قلت: كيف نحول هذا الحي إلى فسحة تُعلم؟).

هنا يتحوّل السّؤال من سرديّة المظلوميّة إلى خارطة طريق، ومن تمرکز حول الندبة إلى سباق نحو البذرة؛ فتنشأ مكتبة صغيرة وتقام حلقة نقاش وتُزرع فكرة؛ صحيح أنّه لم تُحلّ الأزمة الكبرى بعد لكن تم إعلان التمرد عليها؛ ليس بالشعارات وإنّما بالسؤال الجديد.

السؤال ليس نائحةً تُجيد البكاء إنّما قائدةٌ تُتقن البناء، فكما أن السؤال قد يكون سكيناً يغور في الجرح فإنه قد يصير يداً ترفع الأناقض لتكشف النور؛ وإنّ إعادة شرعية السؤال في وعينا الجمعي لا تعني تكرار صدى الخيبات ولكنّها تعني إشعال صوت الإمكان، فالسؤال العميق ليس الذي يصف حجم الخراب وإنّما الذي يفتح نافذة في جدارٍ خرسانيّ، ويقول للريح: ادخلي؛ ثم ينسج معها بساطاً من المعنى.



## عاشراً: ترسيخ المسؤولية الفكرية عن إنتاج السؤال

لا يمكن التعامل مع السؤال بوصفه زينة فكرية تتباهى بها في الندوات، ولا تمارين بلاغية نتسلّى بها في مقاهي المثقفين، ولا خيوطاً عشوائية في نسيج الكلام؛ السؤال هو العقد الذي وقّعه الإنسان مع عقله منذ اللحظة التي وعى فيها أنه كائن يُسأل ويَسأل، ويُحاسب على قدرته على السؤال كما يُحاسب على عمله وجوارحه.

إن امتلاك العقل دون ولادة السؤال كامتلاك البذرة دون غرس والنور دون مسير، ومن هنا يصبح السؤال مسؤولية بل أكثر من ذلك إذ يصبح من لم يسأل - وقد طُلب منه - مذنباً بحق قدرته، متواطئاً مع جمود الزمان، ساكناً في مدار التكرار حين كان بوسعهِ أن يفتح أفقاً جديداً.

تأمل أستاذاً جامعياً طُلب منه تحكيم بحث طالب ماجستير فلم يثن على السجع، ولا انشغل بحشو الهوامش، ولكنّه كتب بخط صارم رحيم: سؤالك جميل لكنّه مكرر؛ أين السؤال الذي يحدث فرقاً؟، فصدّم الطالب وشعر بالإحراج لكنّه عاد إلى نفسه وبدأ رحلته من جديد؛ ليس لينقح الفصول ولكن لينقّب في ذاته حتى ولد السؤال الجديد، وحين سلّمه كتب هامساً صغيراً لأستاذه: شكراً؛ أيقظتني من غفلة التكرار.

فمن لا يُنجب سؤالاً من صُلب رؤيته يتبنّى أوهام غيره دون وعي، ومن لا يُحمّل نفسه أمانة السؤال يظلّ تابعاً في مملكة الفكر، يُصَفَّق لأجوبة الآخرين دون أن يتسائل كيف وصلوا إليها.



إن السؤال الجديد ليس مطلبًا أكاديميًا فحسب إنّما هو موقف وجوديّ،  
وأن تقول: (لن أكرر) تعني: (لن أعيش بظل غيري)، وأن تقول: (سأسأل  
ما لم يُسأل بعد) تعني أنك استعدت دورك في خريطة الإنسانية باعتبارك فاعلاً  
يصنع أثرًا ولو بومضة سؤال.



## ٥٠ حادي عشر: مؤسسة السؤال؛ من القلق الفردي إلى العقل الحضاري

السؤال في ذاته بذرة لكنه لا يُثمر ما لم يُغرس في حقولٍ تُحسن رعايته وتحميه من التصحّر، ومهما كان عميقاً في قلب صاحبه يظل مهدداً بالذبول إن بقي رهين الهمم الفردي، أو نُظر إليه على أنه لحظة عابرة من الفضول لا مشروعاً ممتداً يُراد له أن يبني عقلاً.

إن الأمم التي تحوّلت أسئلتها إلى مؤسسات هي وحدها التي كتبت اسمها على جداريات التاريخ؛ فالسؤال حين يتحوّل من ومضة إلى بنية، من قلق فرد إلى استراتيجية جماعة، يصبح طاقةً هائلة تفتح الأفق وتمنح للمعرفة معناها العملي وللحضارة مناراتها.

مدرسة لا تبني مناهجها على كمّ المعلومات ولكن على سؤال مركزي في كل مرحلة عمرية على سبيل المثال: (ما الإنسان؟) في الابتدائية، (ما العدل؟) في الإعدادية، (ما الوطن؟) في الثانوية، (ما الحقيقة؟) في الجامعية؛ فيخرج الطالب من كل مرحلة محمّلاً بسؤال يعيش فيه ويعيش به وليس ممتلئاً بورق محفوظ.

تأمل معي مركز أبحاث لا يبدأ موسمه بخطة مشاريع وإنما بسؤال: (كيف يمكن إعادة تشكيل الخطاب الديني ليكون مؤثراً في العقل المعاصر دون أن يفرط في ثوابته؟) إنّه سؤال واحد لكنه يغدو شجرة تُثمر دراسات، وندوات، ولقاءات، ومراجعات للتراث، وردداً للشبهات، وتفكيكاً للمقولات السائدة، وقراءة جديدة للواقع، فهو لا ينتج ورقاً ليُصفّ على الرفوف ولكنه ينتج وعياً يُغرس في العقول ويُبصغ في السياسات.



فحين تُبنى المجالات الفكرية على سؤال وليس على تقليد، وتُصاغ المؤتمرات حول إشكالية لا على استعراض شخصيات المتحدثين، وتُصمم مناهج التعليم على جدليات وليس على سرديات مغلقة؛ عندها نتحرر من عبودية (ماذا قيل؟) إلى شرف (ماذا ينبغي أن يُقال؟).

إن مأسسة السؤال ليست عملاً إجرائياً فقط ولكنها تحوّل في بنية الوعي من العقل المنفعل إلى العقل الفاعل، وهي إعلان ضمني أن هذه الأمة لم تُعد تكتفي بردّات الفعل ولكنها قررت أن تبادر بالسؤال وتنسج به ثوب مستقبلها؛ ففي كل حضارة عظيمة لم تكن المؤسسات تتابع الأجوبة ولكنها كانت تتنافس على ولادة السؤال الذي يُغيّر المصير.

# آليات عملية لتربية الذات على صناعة السؤال



إنَّ السؤال - وإن كان في ظاهره فعلاً عقلياً- لا يولد في الذهن فقط، ولكنه يتخلَّق في الوجدان، ويترسَّب في الجوارح، ويتطلَّب بيئة داخلية وسلوكاً يومياً يربِّيه؛ فالفكرة التي لا تجد قدماً تمثي بها وسلوكاً يترجمها تبقى مجرد ومضات معلقة في الفراغ؛ تلمع ثم تنطفئ، تُبهر ثم تُنسى.

والفكر العظيم ليس هو الذي تُحسن الحديث عنه ولكنه هو الذي تعرف كيف تعيشه، ولهذا فإنَّ الحديث عن (صناعة السؤال) لا يكتمل بمجرد تفكيك أبعاده الفكرية أو تعظيم مكانته في الوعي بل لا بد من أن نُنزله من علياء التنظير إلى رحابة التطبيق، من مجرد التأمل فيه إلى التدريب عليه من كونه قضية فكرية إلى كونه أسلوبَ عيشٍ وممارسةً يوميةً.

فالسؤال لا يُنجب من القراءة وحدها وإنما من التأمل، والمخالطة، والحيرة، والانصات، والانضباط الذاتي، وتجارب الصمت، وتفكيك العادة، وسؤال الذات في صميم اللحظة.

إن الانتقال الآن إلى الآليات العملية ليس خروجاً من الفكر ولكنه ذروة الفكر وذلك حين تصير الحياة نفسها سؤالاً حياً.



## ◉ أولاً: درّب نفسك على الصمت الداخلي لتسمع السؤال في أعماقك

في هذا العالم المسكون بالعجلة والضجيج لا تموت الإجابات فقط ولكن تموت الأسئلة قبل أن تولد، وإنّ السؤال الصادق لا يولد من ضجيج الثرثرة وإنّما من رحم السكون، ومن ذلك الصمت العميق الذي لا يعني الغياب، ومن الإصغاء الكامل لحفيف الوجود في داخلك.

الصمت ليس فراغاً وإنّما مساحة مقدّسة تُتاح للسؤال كي ينبثق من أعماق الروح؛ فهو أشبه بريح خفيفة تُزاح بها ستائر العادة فتظهر النوافذ التي تؤدي إلى الداخل، ومن لم يُجرب أن يجلس مع ذاته في عتمة صامتة فلا ينتظر من روحه أن تهديه سؤالاً يضيء الدرب.

درّب نفسك على لحظاتٍ لا تُكتب فيها تغريدة ولا يُفتح فيها هاتف ولا يُقال فيها شيء؛ لحظات لا تُستثمر في إنتاج خارجي ولكن استثمار في نحتٍ داخلي، واجعل لك في يومك ركناً منعزلاً تقف فيه أمام مرآة وجودك ليس لتسأل الناس ولكن لتسمع السؤال الذي يسألك.

في مثل هذه اللّحظات تُبعث من تحت الرّماد أسئلةٌ دفنتها العادة، ويصحو فيك القلق النبيل بوصفه يقظة؛ فالسؤال الحقّ ليس طارئاً يُستورد من الخارج وإنّما هو صوت داخلي دفين، خافت في البدء ثم جارف إذا أصغى له.

الصمت هو الأرض التي ينبت فيها نداء الوجود الأكبر وسؤال المصير، فاجعل من صمتك محرّاباً لا انسحاباً، واجعل من خلوتك موعداً مع السؤال لا هروباً من الإجابة؛ فإنّ الصوت الذي لا يُسمع في صمتك لن يسمعه أحد حين تصرخ.



## ٥ ثانيًا: خصّ دفترًا خاصًا لأسئلتك الوجودية والفكرية

إنّ السؤال الذي لا يُكتَب لا يُفكَّر فيه حقًّا؛ فهو مثل حلمٍ يتبخَّر مع أول ضوء، أو ومضة لا يمسكها العقل إلا إن دوّنها.

الكتابة ليست فعلًا توثيقياً للسؤال ولكنها بدء التجلّي، هي اللّحظة التي يتحوّل فيها القلق إلى نصّ، والحيرة إلى ملامح.

في زمانٍ تتناهبنا فيه الشاشات وتُغرّينا فيه الردود السريعة تُنسى الأسئلة كما تُنسى الأحلام، ولأنّ الوعي لا يُبنى من الإجابات وحدها وإنما من الحيرة التي لا تُستعجل، فإنّ أوّل الطريق أن تمنح سؤالك مكانًا ليقيم فيه.

خصص دفترًا لا تُزيّنه العناوين ولا تُثقله النقول ودوّن فيه ما يراودك من أسئلة عن الموت والحبّ والحقّ والقدر والمعنى والخوف والعدالة والله تعالى والخلود؛ وكل شيء؛ وحذار أن تسأل: (هل هذا السؤال عميق بما يكفي؟)، ولكن اسأل: (هل هذا السؤال لي؟ هل وُلد من قلقي؟)، فالسؤال الصادق لا يُقاس بعمقه الظاهر وإنما بحرارته الباطنة، والسؤال الذي يتكرر في ذهنك لا تسخر منه؛ إنّه لا يعود إليك عبثًا إنّما لأنك لم تصغ له كما يجب، وربما تكتشف بعد أشهر أنّه كان الباب الوحيد لفهم ذاتك.

وفي تطبيق عملي مقترح؛ اكتب كل أسبوع ثلاثة أسئلة وجودية حيّة نابغة من معتركك، ليس من كتبٍ قرأتها ولا من محاضرة سمعتها ثم عد إليها بعد شهر ودوّن تحت كل سؤال: هل بقي السؤال حيًّا؟ هل حاولت أن تفهم منه؟ هل قادتك إلى قراءة، أو إلى نقاش، أو إلى دمعة؟ أم بقي مجرد حبرٍ على الورق؟

دفتر الأسئلة ليس مجرد أوراق ولكنه مرآتك الفكرية، وهو السيرة غير المكتوبة لعقلك وروحك، والأهم التي لا تكتب أسئلتها لا تكتب مستقبلها.



## ٥ ثالثاً: اقرأ لا لتجمع معلومات بل لتبحث عن السؤال الذي بذر الفكرة

إنّ القارئ البسيط يلتقط الجملة ويجمع الحقائق كما يجمع الصياد الأحجار لكنه لا يرى الشجرة التي نبتت منها الثمرة، ولا يسمع السؤال الذي هزّ روح الكاتب قبل أن يخطّ أول حرف؛ فكل فكرة تُكتب إن لم تولد من قلق ومن حيرة ومن دهشة تهزّ الكيان فإنها مجرد زخرف لغوي لا نبض فيه.

إنّ القراءة ليست مجرد استقبال للأجوبة ولكنها محاولة للإنصات إلى الصرخة الأولى التي دعت الكاتب للكتابة؛ تلك الصرخة التي غالباً لا تُقال وإنما تُفهم من بين السطور ومن انحناء المعنى ومن حرارة اللغة.

فلا تسأل وأنت تطالع كتاباً: (ماذا قال الكاتب؟) فحسب ولكن اسأل: (ما الذي أوجعه؟ ما السؤال الذي أنبت كل هذه الصفحات؟).

لأنّ الفهم لا يكتمل إلا حين تدرك أنّ الفكرة الحقيقية ليست هي ما كتب ولكنها ما حُذف، وما ظلّ ساكناً في خلفية النصّ ينتظر قارئاً يبصر لا قارئاً يُحصى.

لقد صرنا في زمنٍ ثلثهم فيه الكتب كما ثلثهم الوجبات السريعة؛ تقرأ فتلخص وتلخص فتشر وتشر فتتساها في اليوم التالي؛ لكن الذي يسأل: (ما الذي كان يبحث عنه الكاتب؟) يبدأ كتابةً جديدة في أعماقه ولو لم يمسه قلمًا.

وفي تطبيق عملي مقترح؛ حين تقرأ كتاباً -أيًا كان نوعه- لا تبدأ بتدوين أفكاره بل توقف لحظة واسأل نفسك: ما السؤال الذي كانت هذه الفصول تحاول أن تجيب عنه؟ ما الوجد الذي كان الكاتب يداويه؟ ما الفراغ الذي حاول أن يملأه؟ ثم اكتب هذا السؤال في أعلى الصفحة، ودع بقية أفكار الكتاب تتلوه لا تسبقه لأنك إن أمسكت بالسؤال فهمت ما وراء النصّ، وإن بقيت مع الجواب سكنت السطح.



## ○ رابعًا: تعلّم كيف تسأل (سؤالًا جيّدًا) وليس مجرد أسئلة كثيرة

في عالم تُغرقه الأسئلة كما تغمر السيول أرضًا غير مُهيأة يصبح التحدي الأكبر ليس أن نسأل ولكن أن نُحسن السؤال؛ فالسؤال كما النار إمّا أن يكون نورًا يكشف الطريق أو لهبًا يحرق المعنى.

إنّ السؤال الجيّد ليس وليد فوضى ذهنية وإنّما ثمرة نضج معرفي ونتيجة حوار داخلي طويل بين العقل والروح، وبين التجربة والنص، وبين الذات والكون. فكّر في السؤال كما يفكّر النّحات في ضربته الأولى على الصّخر؛ فإنّ ضربة متهورّة تفسد الكتلة كلها لكن ضربة دقيقة تمهد لتحفة، كذلك السؤال؛ الصياغة الرديئة تشوّه المعنى، والصياغة البديعة تُحرّر الحقيقة.

أن تسأل: (ما هو الإسلام؟) سؤال واسع إلى حد التلاشي، قد يُشعرك بأنك بدأت لكنه لا يقودك إلى شيء؛ أما أن تسأل: (كيف أسهم التصور الإسلامي في تحرير الإنسان من العبوديات الحديثة؟) فأنت حينها تُمسك بطرف الخيط، وترسم خريطة للبحث، وتحدد زاويتك الخاصة في الدخول إلى البحر.

في التربية السليمة لا تكافى السؤال لمجرد وجوده وإنّما لجودته؛ ليس لكثرة علاماته ولكن لصدق دافعه ودقة مساره، وإن ما نحتاجه ليس فقط أن نعلّم الشباب الجرأة على السؤال ولكن أن نُربي فيهم الحياء المعرفي؛ ذلك الحياء النبيل الذي يُدرك أن السؤال مسؤوليّة، وأنه فعل حضاري وليس نوبة وجدانية، وأنه كلمة وزنها من ذهب.



وفي تطبيق عملي مقترح؛ اختر سؤالاً عاماً مثل: (ما هو التقدّم؟) ثم جرب أن تصقله مرّة بعد مرّة حتى يصير قابلاً للبحث: ما هو التقدّم؟ وما الفرق بين التقدّم الصناعي والتقدّم الإنساني؟ وهل يمكن للتقدّم التكنولوجي أن يكون معادياً للأخلاق؟ وما أثر فقدان البعد الروحي على تصورات التقدّم في العالم الحديث؟ وكيف نعيد تعريف التقدّم من منظور قرآني يُوازن بين المادة والروح؟ وحين تصل إلى هذه المرحلة ستشعر أن السؤال لم يعد فكرة عابرة ولكنه أصبح خريطة طريق ومفتاحاً لباب ظلّ موصداً طويلاً.

ثمّ اعرض هذا السؤال الأخير على عقلٍ ناقدٍ أو أستاذ أمين ليسير معك في ممرّاته ويضيء زواياه ويصوّب زاويته؛ لأنّ السؤال الجيد كالسفر الشاق لا يُحاض وحده ولا يُجتم سريعاً إنّما يُبنى عبر رفقة الفكر ومكاشفة الروح.



## ٥ خامساً: ناقش أسئلتك مع من يفكر ببطء لا مع من يجيب بسرعة

الفكر لا ينضج في مواعد العجلة ولا يُتطفئ ثماره في أسواق السجال السريع، بل إن السؤال أشبه ببذرة تُغرس في تربة الوعي وتحتاج إلى رفقَة الصبر وليس عصف التصفيق، وتحتاج إلى سكون التأمل لا صخب الردود الجاهزة.

الهاربون من السؤال أولئك الذين إذا طرحتَ عليهم ما يُقلقك عاجلوك بإجابة سريعة كأنهم خائفون من دويّ السؤال ذاته لا يُمكن أن يرافقوك في درب الحقيقة؛ إنهم يخشون السؤال لأنه يهزّ البنيان الذي اعتادوا أن يسكنوه دون مراجعة، أو لأنهم استراحوا للإجابات التي تسند غرورهم وليس تلك التي تزعج ضميرهم.

إن النقاش الحقيقي لا يشبه مباريات المصارعة الذهنية ولكنه يشبه حوار الأُحبة في هدوء ليل طويل حيث تُقال الكلمات على مهل، ويُمنح السؤال حقه في أن يتموضع ويُكرم بالإنصات إليه قبل الحديث عنه.

السؤال لا يحتاج إلى من (يُبهنا) بإجابته وإنما إلى من (يرافقنا) في دهشته، ويحتاج إلى من يفكر كما يُصليّ بخشوع لا باستعراض، وإلى من يصغي كما يصغي المُحب إلى نبض قلب الآخر ليس كما يصغي المدّعي لِيُجهّز ردّه.

ابحث في دوائرك عمّن إذا سألته: (ما الفرق بين الإيمان والطمأنينة؟)، لم يُسرع بالجواب ولكنه نظر في عينيك طويلاً ثم قال: (دعني أفكر؛ فأنا أحتاج أن أمشي قليلاً قبل أن أُجيب).



وفي تطبيق عملي مقترح؛ كَوْن دائرة حوار أسبوعية من صديقين أو ثلاثة يُطرح فيها كل أسبوع سؤال واحد فقط ويُمنح الوقت الكافي ليُفكَّر فيه، وسجّلوا ملاحظاتكم ليس من أجل أن تصلوا إلى جواب نهائي وإنما لتكتشفوا كيف يتغير السؤال حين يُصغى إليه حقًّا، وبعد عدّة أسابيع لن تكونوا فقط قد أجبتم عن بعض الأسئلة بل ستكونون قد كوّنتم (ضميرًا فكريًّا جماعيًا)، يعلي شأن السؤال ويحتقر العجلة ويوقن أن أعظم الإجابات هي التي وُلدت بعد طول صمت.



## ◉ سادساً: اربط كل ما تدرسه بسؤال أصلي؛ لماذا أدرس هذا؟

في لحظة من الصدق مع الذات اسأل نفسك هذا السؤال البسيط العميق: لماذا أدرس هذا؟ فإنّ العلم الذي يُدرّس بلا سؤال يشبه الماء الذي يُسكب في إناء مثقوب لا يروي ولا يبقى، وما أكثر ما غرق الشباب في طوفان من التخصصات والمقرّرات والدورات والدبلومات من غير أن يرفع أحدهم رأسه ليسأل: ما الغاية من هذا كله؟ هل أدرسه لأنني أُجبرت؟ لأنني أُعجبت؟ لأنني أبحث عن عمل؟ أم لأنني أبحث عن معنى؟

السؤال الأصلي هو الجذر الذي تتفرّع منه أغصان الفهم، وهو الروح التي تُنعش النّص الميت والمعادلة الجافة والمعلومة اليابسة، وحين يُنتزع هذا السؤال من العملية التعليمية يتحوّل التعلم إلى عملية ميكانيكية تُخزّن فيها المعلومات في الذاكرة وليس في الوعي.

فحين تبدأ بدرس الفلسفة لا تسأل: (ما تعريف الفلسفة؟)، ولكن اسأل: (هل يمكن للعقل البشري أن يقترب من الحقيقة؟ وهل أستطيع أن أعيش بكرامة دون أن أفهم نفسي؟) وحين تدخل دورة في الإدارة لا تسأل: (ما هي أدوات القيادة؟)، ولكن اسأل: (هل أريد أن أقود؟ ولماذا؟ وعلى أي أساس أخلاقي؟) وحين تحفظ حديثاً نبوياً أو تدرس آية لا تسأل: (ما معناه النحوي؟)، بل اسأل: (كيف يوجّه هذا النص حياتي؟ وكيف أنظر إلى نفسي من خلاله؟) فالمعرفة الحقّة لا تُقاس بعدد ما قرأت ولكنها تقاس بعمق السؤال الذي استيقظ فيك بعد القراءة.



وفي تطبيق عملي مقترح؛ في بداية كل فصل دراسي أو قبل الدخول إلى أي مساق أو برنامج علمي أو فكري اجلس مع نفسك واكتب سؤالاً واحداً كبيراً تريد أن تجيب عنه من خلال هذه الرحلة.

واحرص أن يكون السؤال وجودياً شخصياً منفتحاً لا مغلقاً، فلا تسأل: (كيف أنجح؟)، بل اسأل: (ما الذي يجعل النجاح يستحق العناء؟)، أو (ما النجاح الذي لن أندم عليه بعد خمسين سنة؟).

دوّن هذا السؤال في بداية دفترك وفي كل مرة تشعر بالملل أو الضياع عد إليه؛ فإنه ليس مجرد بوصلتك بل هو روح الدرس ونبض الطريق.



## ○ سابعاً: اخرج من دائرة (أسئلتني فقط) إلى (أسئلتنا نحن الأمة)

إنَّ السؤال حين يبقى حبيس الأنا يُجهض رسالته ويتحوّل من محرّك نهضة إلى مرآة نرجسية؛ وأن تسأل عن نفسك وعن ذاتك وعن مصيرك فهذا بداية الوعي، ولكن أن تظلّ غارقاً في (أسئلتني أنا) دون أن تتبّه لـ (أسئلتنا نحن) فأنّت تزرع على حدود الهاوية.

ليست كل الأسئلة دليلاً على اليقظة؛ فهناك يقظة فردانية، وهناك يقظة حضارية؛ فالأولى تُوقظك لتبحث عن طريق خلاصك، والثانية تُوقظ أمةً لتسأل معاً: كيف ننجو جميعاً؟ وحين ينحصر العقل في أسئلته الشخصية؛ كيف أطور ذاتي؟ كيف أنجح؟ كيف أهاجر؟ ولا يسأل: لماذا تُغتصب القدس؟ لماذا تُجوع غزة؟ لماذا يُدنّس القرآن علناً ولا يتحرك الضمير؟ فهو عقلٌ بلا أفق وروحٌ مقطوعة عن جسد أمتها.

نحن لا نحتاج فقط إلى مثقّفٍ يسأل عن (الوعي الذاتي) فحسب وإنما إلى مفكّرٍ يسأل: لماذا سُرقت منا إرادة السؤال؟ ولا نحتاج فقط إلى شابٍ يبحث عن (أفضل الطرق لرفع الإنتاجية) ولكن إلى من يسأل: لماذا لا تنتج مفكرين يُجيبون سؤال المصير؟ فما قيمة السؤال عن تطوير الذات إن لم يكن هذا التطوير في سبيل بناء جيلٍ ينهض بالأمة؟ وما معنى أن تحفظ مئات الكتب إن كنت لا تجرؤ على أن تسأل: ما الذي غيّب هذه الأمة عن موقع الشهادة على الناس؟ فالسؤال ليس فردياً بطبيعته ولكنّه بوابة للدخول إلى وجدان الأمة.



فكّر؛ ما السؤال الذي يجب أن يُطرح الآن عن جراح الأمة ولكن الصمت يلتفّ حوله؟ ومن ذا الذي يسأل عن الجبن الأعمى الذي يجعل دمنا المسفوك أرخص من تراب الاستهلاك؟ وفكّر؛ ما السؤال المسكوت عنه في علاقتنا بالقرآن الكريم؟ وهل نقرأه لتبرئة ذمتنا؟ أم نسأله كل صباح: ما الذي تريدني أن أفعله بهذا الوحي اليوم؟ وفكّر: ما السؤال الجوهرى عن الحرية؟ وهل الحرية مجرد (الحق في الاختيار الفردي)، أم هي القدرة على أن نختار طريقاً جمعياً نحو الكرامة؟

غادر أسئلتك الصغيرة وادخل أرض الأسئلة العظمى، فإن لم تسأل أمة عن مصيرها فقد ساء مصيرها، وإن لم يكن للشباب أسئلة كبرى فانتظر أجيالاً بلا غد.



## ٥ ثامناً: تذكّر؛ ليس كل سؤال يحتاج جواباً مباشراً؛ بعض الأسئلة تحتاج مساراً

الأسئلة لا يُجاب عنها كلّها كما تُطفأ شعلة صغيرة بكأس ماء فبعض الأسئلة نيرانٌ ملتهبة لا تُطفأ ولكنّها تضيء الطريق وأنت تسير فيه، فهناك أسئلة لا تبحث فيها عن إجابة فورية إنّما تتجول معك وتُربّيك وتُربك وتخلخل قناعاتك ثم تعيدك إلى ذاتك وأنت أكثر نقاءً، وهناك أسئلة لا تكون فيها الإجابة جملة واحدة بل عمراً كاملاً.

سؤالٌ مثل: (من أنا؟) لا يُجاب عنه في مقالة تحليلية أو كتاب سيرة ولكن في سجدة صامته، وفي موقفٍ أخلاقي، وفي لحظة اختيار مصيري بين الصدق والمساومة، وسؤال: (لماذا خلقتني الله تعالى؟) لا يُجاب عليه في درس عقائدي فقط ولكن في كل لحظة تقرر فيها أن تكون للحق لا للباطل وللناس وليس لنفسك وللوحي لا للهوى.

السؤال الصادق ليس مشروع تفسير فقط إنّما هو مشروع تكوين، فهو شجرة لا تطلب منها الثمار الآن بل تزرعها وتسقيها ثم تُفاجأ يوماً بأنها ظلّك وأنت كبرت بها؛ فلا تستعجل الجواب وكن أنت الجواب.

ليكن لك سؤال تمشي معه عامّاً كاملاً، وسجّله في مفكرتك، وقل لنفسك: (لن أبحث عن جواب الآن ولكن سأجعل هذا السؤال مرآتي أعود إليه كل شهر وكل مرة بوجهي الجديد وبقلبٍ تغيّر وبتجربةٍ تشكّلت).

راقب نفسك كيف تتغير وذلك ليس لأنك وجدت الجواب وإنّما لأن السؤال قادك إلى قراءة لم تكن تنويها وإلى حوار لم تكن تحسبه وإلى صلاة



أكثر خشوعاً وإلى رؤيةٍ للعالم أكثر عمقاً، فإذا كنت تبحث عن إجابة تُنهي قلقك فأنت لا تبحث عن حقيقة بل عن مهدى، وأما إذا كنت تقبل أن تسير والسؤال في جيبك؛ يؤنسك ويربكك ويعلمك؛ فأنت تسير لا إلى جواب بل إلى حياة أعمق.



## ○ تاسعاً: اجعل من السؤال مشروع حياة وليس لحظة انفعال

في لحظة انفعالٍ عابر تولد آلاف الأسئلة لكنها تتبخر لأنها جاءت من ضجيج المشاعر وليس من عمق الرسالة؛ أما العطاء فإنهم لا يسألون بعجلة ولكنهم يجعلون من السؤال مركباً يعبر بهم نهر الحياة، ويصوغون سؤالهم كما تُصاغ الغاية ويسیرون به كما یسیر النبی برسالة.

فما معنى أن (تعيش بسؤال)؟ معناه أن تُدرك أنك لم تُخلق لتتملاً فراغاً وإنما لتُجيب عن نداءٍ خفيٍّ يتردد في أعماقك منذ الطفولة الأولى: (ما دوري؟ ما رسالتني؟ ماذا سأضيف؟).

ذلك هو السؤال الذي لا يُشبهه غيره لأنك وحدك المسؤول عن صياغته ووحده القادر على أن تهبه عمرك كله؛ فليس كل سؤال يصلح أن يكون مشروع حياة، فالسؤال العظيم ليس قنبلة دخانٍ تُطلقها لتُربك من حولك ولكنّه محرّك وجود يهديك حين تضل ويوقظك حين تغفو، وأن تعيش بسؤال يعني أن تختار ألا تكون هامشياً، ويعني أن تُعطي لحياتك معنى، ولوجودك غاية، ولموتك رسالة.

وفي تطبيق عملي مقترح؛ افتح دفترك الآن وفي الصفحة الأولى، اكتب بخطٍ جليل: (سؤال عمري هو:.....) وسأعيش لأجيب عنه ليس بكلام ولكن بحياة، ثم راجع ذلك السؤال كل عام واسأل نفسك: هل ما زلت أمنيأ له؟ هل تقربت من جوابه؟ أم أنك نسيت أنك سائل في زحمة اللاسائلين؟



## عاشراً: اجعل سؤالك دعاءً خفيًا لا مجادلةً صاخبة

السؤال الحقيقي لا يُطرح من فوق المنابر ولا يُصاغ تحت أضواء الجدل ولكنه ينبثق في القلب كما تنبثق دمعَةُ المحبة في عين عاشق؛ فليس كل سائلٍ باحثًا ولا كل متكلمٍ طالبٌ هدى؛ فالسؤال في حقيقته نداء؛ أه في الروح تبحث عن معنى وعن نورٍ في ليلٍ كثيف، وإن أعظم الأسئلة لا تُلقى في حلقات المناظرة بل تُهمس في جوف الليل وتُغمس في دمعته وتُطوى في سجدة.

حين يندلع السؤال في أعماق الإنسان لا يكون أول مظهره كلمات تُقال وإنما وجعٌ صامت ورجفةٌ في القلب وتشوّفٌ داخلي إلى معنى لم يُفصح عنه الوجود بعد؛ فحين تسأل: لماذا يتألم الأبرياء؟ فاحذر أن ترفعه كسوطٍ في وجه السماء، أو كاتهامٍ مواردٍ ضد القدر؛ بل اطرحه كمن يضع جرحه أمام خالقه، وكمن يقول لله تعالى: هذا القلب لا يحتمل هذا المشهد، ففسّر لي ما لا أفهمه، أو اربط على قلبي بحكمةٍ منك.

وحين تسأل: لماذا خلقتُ؟ فلا ترمِ السؤال في زوايا التشكيك، كأنك تطالب الوجود بأن يعتذر لك عن مجيئك؛ ولكن اسأل كما يسأل العاشق: ما سرّ النداء الذي جعلني أوجد في هذا العالم؟ وما السبيل لأكون شاكراً حقيقياً للذي أوجدني؟ فالأسئلة الوجودية الكبرى ليست ثورةً على الله تعالى ولكنها عودةٌ إليه.

إن السؤال إذا لم يُسكب في إناء التواضع تحوّل إلى صرخة استكبار؛ وإذا لم يُهمس في حضرة التقديس صار ضجيجاً في سوق البلاغة، فسؤال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لم يكن نزقاً معرفياً



ولكنّه كان خففة قلبٍ يتشوّف للنور، وسؤال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، لم يكن تزلزلاً في الإيمان ولكنّه كان لهفةً لأن يتذوق اليقين بعين البصيرة؛ فكلاهما سأل لكنهما لم يرفعا السؤال على منبرٍ للتحدي وإنّما وضعاه في محراب القرب.

والسؤال إذا وُجّه للناس قبل أن يُوجّه لله تعالى ضلّ الطريق، وإذا أُعلن في ساحات الجدل قبل أن يُبيّن في سجدة صادقة صار وسيلة استعراض وليس وسيلة اهتداء، ومن الناس من جعل من السؤال سكيناً يغرسه في قلوب المؤمنين ليس من أجل أن يطلب الحق وإنّما ليُريق الطمأنينة من صدورهم، ومنهم من جعل من السؤال وسادةً من حريرٍ يستريح عليها من عناء الإيمان لأنه لا يريد أن يعرف، وإن السؤال الصادق لا يُقال بصوتٍ عالٍ فحسب ولكنّه يهمس في الليل ويصلّي به ويُبكي معه، والذين ضلّوا لم تكن مشكلتهم أنهم سألوا ولكنّ مشكلتهم أن كثيراً منهم لم يسجدوا مع السؤال.

وفي تطبيق عملي مقترح؛ كلما استيقظ فيك سؤال عميق عن الله تعالى أو القدر أو الألم أو المصير؛ فلا تكتبه في منشور ولا تقذفه في جلسة ولكن توضعاً وصلّ ركعتين، ثم قل: اللهم إن هذا السؤال أثقل قلبي فارزقني من نُورك ما يطمئنني، ومن علمك ما يهديني، ومن حلمك ما يسترني، ثم بعدها ابحث واقرأ وحاوِر وناقش؛ لكن اجعل البداية دائماً من الله تعالى والنهاية عنده، فالسؤال الذي لا يبدأ بسجدة ينتهي غالباً بضياح.

أزمة السؤال الفكري والمعرفي عند الشباب

# هَوَاجِسُ عِلْمَةِ اسْتِفْهَامٍ

محمد خير موسى

## في خاتمة الرحلة؛ نداء من القلب



يا صديقي:

لا تُثقل قلبك بالأسئلة التي يطرحها الآخرون عليك، ولا تُقِم لميزانهم مكيالاً، ولا تُعدّ معارفك بعدد الكتب التي قرأتها، ولا مرتبتك الفكرية بقدر ما تملكه من شهادات، فهذه كلّها ليست هي التي تُحدّد من تكون؛ إنّ الإنسان لا يُقاس بما قيل له إنّما بما سأل هو، وليس بما اختزن من معلوماتٍ ليردّها ولكن بما حمل من عطشٍ دفينٍ لبحث به.

الأسئلة التي تصنعنا لا تولد من فصول الدرس وإنّما من صمّتٍ طويلٍ نسكبه على القلب، من رعشةٍ تهاجمنا في لحظة تفكّر، من قلقٍ عميقٍ يراودنا كلّما اصطدمت أرواحنا بحدود الجواب الجاهز، من اشتياقٍ دفينٍ إلى المعنى الذي نحسّ غيابه أكثر مما ندركه.

اسأل نفسك في خلواتك، في لحظات الانكسار، في انبهارك بشيءٍ لا تفسّر له، أو في ألمٍ لا تعرف له سبباً: (ما الذي أريد أن أفهمه حقاً؟).  
لا تسأل لتُحسن الحديث ولكن لتُحسن الحياة.



ولا تسأل لتتصر في حوار وإنما لتنجو في المصير.

ولا تسأل لتبهر غيرك بل لتبصر نفسك.

وحين تصدق في سؤالك فإنك لن تحتاج لميكروفون، ولا لمنصة، ولا لكاميرا؛ ولكنك ستحتاج فقط إلى صدق النية، وعمق الصبر، وأن تسير في درب البحث بقدميك الحافيتين، موقناً أن الحق لا يُمنح لمن يطرق الأجوبة بجلبة وإنما لمن يسألها بخشوع.

فلا تنتظر أن يأتيك الجواب في هوامش الكتب أو بين تصفيق المحافل ولكن انتظره في الطريق، في التجربة، في العثرة التي تكسرك لتبنيك، في الركعة التي تبكي فيها وأنت تهمس في قلبك: (يا ربّ؛ أرنى).

لا تحدد له كيف، ولا متى، ولا أين؛ فقط قلها من الأعماق، واترك لبصيرتك أن تتفتح ما يريدك لك من زمن لا على عجلتك.

فإن الله تعالى لا يُحبّ قلباً صدق، ولا يضيع سائلاً مشى إليه بسؤالٍ لم يكن استعراضاً ولكنه كان ابتهاً، ولم يكن جدلاً وإنما حنيناً، ولم يكن تمرّداً بل توقفاً إلى النور.

وإنك - إن صدقت - ستبصر في لحظة ما - فجأةً - بين سطرٍ وسطر، أو بين غيابٍ وحضور، أو بين خذلانٍ وتجلٍّ، أن الجواب لم يكن في الورق ولكنه كان في الطريق.

وأن المعرفة ليست ما خزنت وإنما ما خضت، وأن السؤال لم يكن ليُجاب عنه بعبارة ولكنه كان ليصوغك من جديد.



وأنَّ الله تعالى كان يراك مذ بدأت تسأل، وأنك ما كنت وحدك ولكنك كنت تُقَاد إلى الإجابة بشوقك، بدمعك، بصدقك، بخطواتك المرتعشة نحو يقين يولد في رحم القلق.

يا صديقي:

اجعل سؤالك دعاءً، وعيشك بحثًا، وحياتك حكاية تُروى ليس بما قلت ولكن بما تجرأت أن تسأل.

واصدّق، واصبر، وامض؛ فإنَّ الجواب سيأتيك ذات فجرٍ، تمامًا حين لا تنتظره، حين تفتح الكتب بيدك، وتعانق السماء ببصرك، وتُبصر الحق في قلبك كما لم تره من قبل.

فيا صاحبي: لا تُنصت للضحيج ولكن أنصت لسؤالك واتبع أثره؛ فإنه طريقك إلى الله تعالى، وما عليك بعد هذا النداء إلا أن تبدأ الرحلة.



## ○ فهرس المراجع

١. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، ت: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١ م.
٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
٥. البيان والتبيين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.
٧. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين ابن جماعة، ت: محمد هاشم الندوي، دائرة المعارف، ١٣٥٤ هـ.
٨. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
٩. التوابون، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، دار ابن حزم، الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.
١٠. الجامع الكبير (سنن الترمذي)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م.



١١. حداثة داروينية أم حداثة إنسانية؟، عبد الوهاب المسيري، مقال منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٠/١٠/٢٠٠٩م.
١٢. الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات؛ د. سعاد الحاتم، بتقديم عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
١٣. خارج الدليل التشخيصي والإحصائي؛ إزالة الطابع المرضي عن المثلية الجنسية، جاك دريشر، مجلة العلوم السلوكية، العدد ٤ / ٥٦٥-٥٧٥.
١٤. زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.
١٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
١٦. شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م.
١٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ.
١٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٥ م.
١٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية الأولى، ١٩٧٢م.
٢٠. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ.



٢١. المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي،  
ت: د. جميل صليبا، د. كامل عياد، مطبعة الجامعة السورية، الطبعة  
الخامسة: ١٩٥٦ م.
٢٢. الموطأ، الإمام مالك بن أنس، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء  
التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥ م.
٢٣. ميزان العمل، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ت: الدكتور سليمان  
دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٤ هـ.

هذا الكتاب لم يأت محاولة لتكديس المفاهيم إنما هو محاولة لفكِّ حصار المعنى عن السؤال.

فهو ليس نصًّا مكتوبًا من أبراج التنظير المعزولة بل من قلب المعاناة اليومية التي نحيها حين نرى كيف يُجثُّ السؤال من صدور الشباب، وكيف تُقابل حيرتهم بالاستهزاء، وكيف يُخفق نبض الوعي في مهده باسم الطاعة، أو باسم "لا تفتن نفسك"، أو باسم "هكذا قال الأولون"؛ إنه صرخة ضد ثقافة القمع الناعم التي تلبس الجواب ثوبًا مقدَّسًا لا يُمسّ، وتُحيل السائل إلى مهرطق ولو لبس جبة وعمامة أو ربطة عنق.

فإن كنت قد تعوّدت أن تحيا بلا سؤال، أن تُسلم بلا بحث، أن تؤمن بلا دهشة وتبحث عن أجوبة جاهزة فضع هذا الكتاب جانبًا.

وأما إن كنت من أولئك الذين ما زالوا يشعرون بوحز السؤال في قاع أرواحهم، وشبعت من الأجوبة الجاهزة، وتاقت نفسك إلى شيء يهز يقينك الكسول، وتود أن تخوض مغامرة السؤال فأنت مدعو إلى أن تمضي معنا في هذا النص من أجل أن تولد أسئلتك من جديد، فأنت صاحب هذه الرحلة لا ضيفها؛ فمرحبًا بك في الطريق.

مكتبة الأسرة العربية  
خيارك الأفضل للمعرفة الأصيلة



www.ArabFamilyBs.com  
info@ArabFamilyBs.com

سوريا - دمشق 933 933 564 566  
تركيا - اسطنبول 99 552 888 59



ISBN: 978-625-5521-71-2



GHIRASCENTER



غراس  
للإنتاج الفكري

تصميم: أخطبوط ميديا